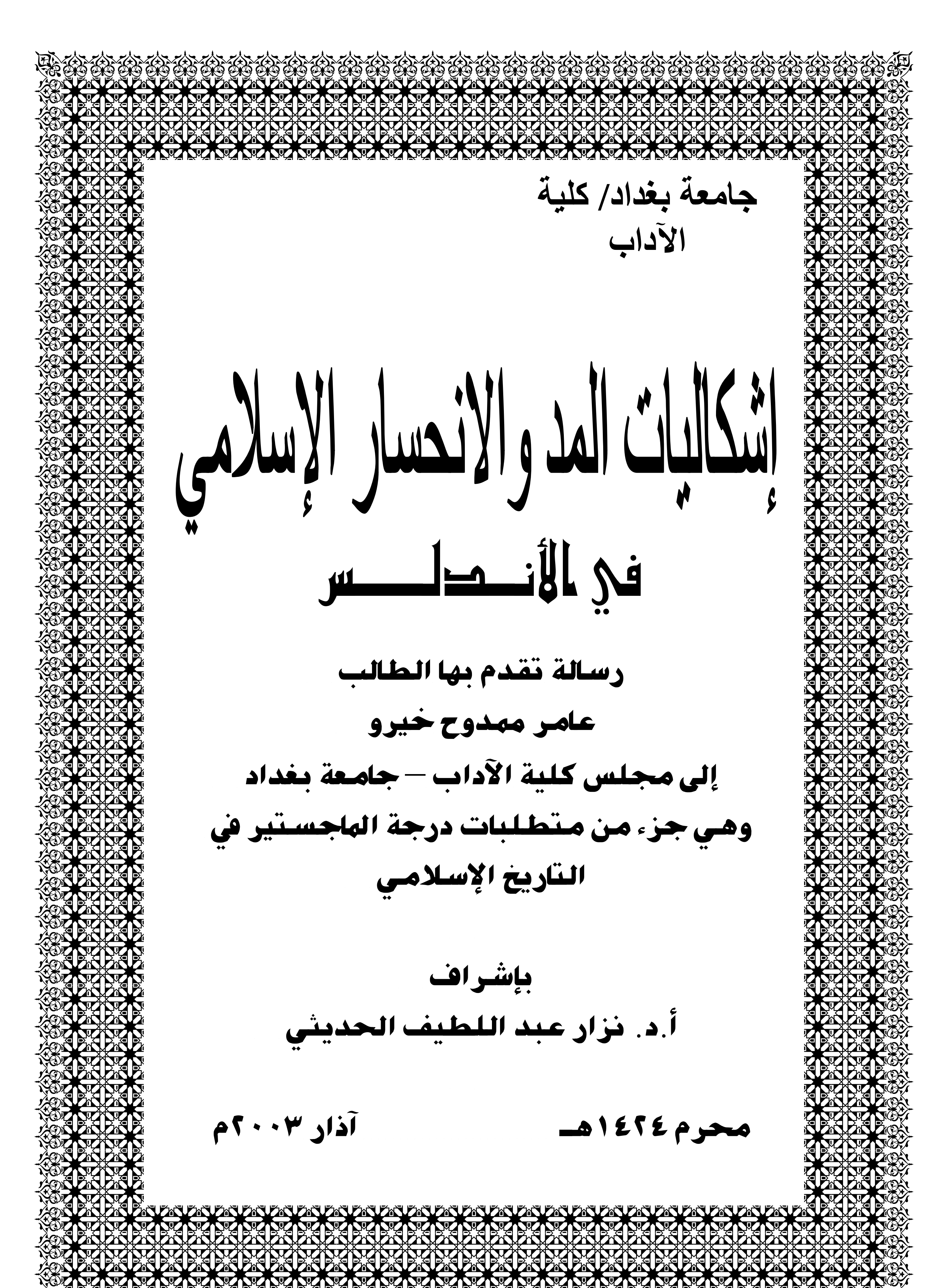


الرسائل الجامعية



جامعة بغداد/ كلية
الآداب

إشكاليات المد والانحسار الإسلامي

في الأنـدلـــس

رسالة تقدم بها الطالب

عامر ممدوح خيرو

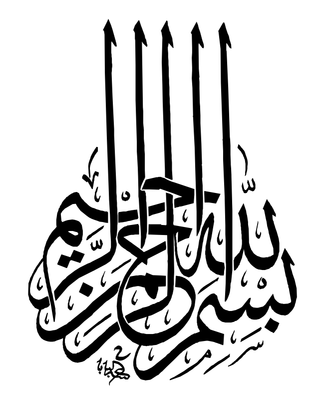
إلى مجلس كلية الآداب – جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

بإشراف

أ.د. نزار عبد اللطيف الحديثي

محرم ١٤٢٤هـ　　　　　آذار ٢٠٠٣م



قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *

صدق الله العظيم

(آل عمران: ١٣٧-١٤٠)



الإهداء

إلى من أفتخر بحمل اسمه طوال عمري ...

إلى من علمني وأرشدني ووضعني على الطريق القويم ...

وزرع في نفسي الأمل والعفو التسامح ...

مثلي الأعلى ...

والدي الكريم ..

إلى أول كلمة سامية نطقت بها شفتاي

إلى من حملتني وهنا على وهن وغرست في نفسي طاعة الله

إلى من علمتني وتعلمت الصبر منها مرفأ قلبي

والدتي الحنون ..

عامر

شكر وتقدير

بسم الله أبدأ، وأحمده وأشكره حمدا وشكرا يوافي نعمه ويكافئ مزيده على ما رعاني به لإنجاز هـذا العمل وبعد..

لا يسعني في ختام عملي هذا إلا أن أتقدم بجزيل شكري وامتناني وتقديري واعتزازي إلى أسـتاذي الفاضل د. نزار عبد اللطيف الحديثي المشرف على الرسالة والذي تحمس لموضوعها وأعطاه الكثيـر مـن وقته وجهده وعمله من أجل تطويره وإظهاره بالصورة التي عليها الآن فكانت بصماته واضحة عليه، وفضلا عن ذلك كان مثال الأستاذ العالم والأب العطوف، والصديق الودود، أدعو الله أن يحفظـه ويمـده بالصـحة والعافية لمواصلة مسيرته العلمية المباركة.

وأشكر أساتذتي الأفاضل في قسم التاريخ بكلية الآداب/ جامعة بغداد لما شملوني به من رعاية وتعليم منذ دخولي هذه الكلية، وأخص بالذكر: أ.د مرتضى النقيب، و أ.د. بهجت كامل التكريتي، وأ.د. نافع توفيق العبود التكريتي، وأ.د. حمدان عبد المجيد الكبيسي وأ.د. صباح الشيخلي، حفظهم الله وبارك جهدهم وعملهم.

ولا يفوتني شكر الأستاذة الفاضلة د. عربية توفيق لما بذلته من جهد بقراءة الرسالة وتقويمها لغويا، ود. خليل المشهداني الذي تفضل بتصويب الرسالة من الناحية الفكرية.

وأتقدم بالشكر سلفا لرئيس وأعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقراءة الرسالة ولما سيبذلونه بمشيئة الله من ملاحظات قيمة.

كما وأوجه عظيم شكري وتقديري إلى موظفي مكتبة كلية الآداب ومكتبة الدراسات العليا ومكتبة قسم التاريخ والمكتبة المركزية لما قدموه من عون وما بذلوه من جهد سهل الكثير من مهمتي في الحصول علـى المصادر والمراجع، وأخص بالذكر منهم الست نجاة (أم علي)، التي كانت مثال الوالدة الحنونة في تعاملهـا والست مائدة، ولا أنسى كذلك الست سجى، آلاء، هدى، ورقاء، تمارة، اللواتي لم يقصرن في عملهن معي.

ولا يمكن أن أنسى زملائي الأعزاء في السنة التحضيرية الذين لم يبخلوا بأي مسـاعدة أو نصـح، فجسدوا بذلك المعاني السامية للزمالة والأخوة الصادقة، وأخص منهم بالذكر ناظم ظاهر، أحمـد خزعـل، نصير بهجت، صالح محمد، عبد الله علي، أسامة عدنان، وفقهم الله وسدد خطاهم.

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم عظيم تقديري واعتزازي لأفراد عائلتي الذين صبروا معي طيلة إعداد هذه الرسالة، وكانوا حريصين على تخفيف أعباء الدراسة، وصعوباتها، حفظهم الله وبارك مسعاهم.

وأدعو الله لكل من أسهم ومد يد العون لإخراج هذا العمل المتواضع بهذه الصورة وأخـص بالـذكر الأخ سلوان ومكتب المثلث الأخضر للطباعة، ولا أنسى كل من قدم لي معروفا أو نصيحة وفاتني أن أذكـر اسمه، أدعو الله للجميع بالخير والموفقية ومن الله التوفيق

عامـــــر



المقدمة

يهدف الاستقراء والتحليل التاريخي في إطاره العام إلى عدة أهداف يمكن بلورتها في مصطلح (الوعي بالتاريخ) والاستشعار بقوانينه، والتمثل الإيجابي لدروسه ومغزاه، ويتجاوز هذا الوعي في كثير من الأحيان إطاره الذاتي الفردي المعرفي إلى الإطار الاجتماعي الأشمل الذي يتصل بالدافع النهضوي لمستقبل أي أمة.وبالتالي فان البحث في علّية نهاية تجربة ما كالتي ندرسها هنا له أهمية فائقة، فمرحلة الانحسار والتفكك والسقوط نتعلم منها اكثر مما نتعلمه من مرحلة البنيان والصعود، فهي التي تمنحنا مفاتيح التعامل مع كثير من الإشكاليات المعاصرة وفق رؤى وتجارب الماضي إلى حد بعيد جداً.

ترصد الدراسة التي بين أيدينا نهاية التجربة العربية الإسلامية في الأندلس، والبحث في حقل التاريخ الأندلسي له تميزه وخصوصيته، فهو حلقة مهمة في سلسلة تاريخ الامتداد الإسلامي في عصوره الأولى وعنوان تجربة عربية إسلامية فريدة في القارة الأوربية، وقصة مؤسفة لضياع الأرض والدولة والإنسان، فضلاً عن الصورة المشرقة للإبداع الحضاري الذي تمثل بالمنجز العربي الإسلامي الأندلسي في شتى المناحي والأصعدة لهذا كله تكتسب هذه الدراسة أهميتها. تبحث هذه الدراسة في الوجود العربي الإسلامي الأندلسي كإطار عام يتجاذبه المد والانحسار، وتحاول إثارة العوامل التي تحكمت في قوته وضعفه دون التركيز على مرحلة محددة على أنها سبب الانحسار النهائي، ومن ثم لم يتعامل الباحث مع سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ وفق النظرة التقليدية، فسقوط آخر معقل إسلامي في الأندلس كان يمثل سبب مباشر وفعال في حصول ما حدث إلا أنه في حقيقته لم يك سوى نقطة نهائية في سلسلة متواصلة من الحوادث والاتجاهات والتأثيرات، وكان سقوط غرناطة نهاية أحداث عديدة يمكن أن توصف بالإشكاليات التي أضعفت الوجود العربي ومن ثم أنهته وجوده ولذلك لم أحاول إثارة تساؤل: ما الذي يمكن أن يحدث لو أن حادثة سقوط غرناطة لم تقع؟ بل وجهت الاهتمام نحو بحث الظروف والعوامل التي أدت إلى مثل هذه الحادثة.

وكنت مدركاً منذ البداية حجم المغامرة في التعامل مع التاريخ الأندلسي في محاولة واحدة نظير سعة الأحداث وكثرة التفاصيل وتعدد الاتجاهات والعدد الكبير من الشخصيات التي احتواها، لذلك ومن اجل تحقيق أهداف الدراسة حاولت التركيز على المفاصل الرئيسية للموضوع دون الاهتمام بالتفاصيل الواسعة والكثيرة بل والمتشابهة مع ذكر بعض الأمثلة للتأكيد على المسألة المطروحة وتوثيقها. فهذه المحاولة تتجاوز الجانب الحدثي في تاريخ الأندلس الواسع لتؤكد على تعليل الأحداث المختلفة من خلال ربطها بإشكاليات معينة دون الخوض في جوانب ظاهرية تقليدية كالتي نجدها متكررة باستمرار في كثير من إسهامات المحدثين في حقل التاريخ الأندلسي، ولا بد من الإشارة كذلك إلى اقتصار ما نقوله هنا على الجانب السياسي دون الحضاري الذي اخذ منحى آخر مختلف ومتنامي بصورة مستمرة المحنا إليه ضمن فصول الرسالة.

احتوت هذه الدراسة فضلاً عن المقدمة والخاتمة خمسة فصول تناولت أربع إشكاليات أساسية هي الجغرافية والمجتمع والسلطة والتحدي الخارجي، أما (الفصل الأول) فتضمن عرضاً سريعاً لأهم **ملامح الوجود السياسي العربي الإسلامي** هناك واتجاهاته صعوداً وهبوطاً، مداً وانحساراً، تراجعاً وانتعاشاً ويمثل هذا الفصل تمهيداً ومدخلاً يضعنا أمام تصور عام وشامل لتاريخ الأندلس يعيننا على عرض الإشكاليات الأربع آنفة الذكر من خلال ملامح عامة وثابتة نحتكم إليها في الفصول التالية، فضلاً عن كونه مجالاً مهماً لمناقشة مواضيع متعددة لها أهميتها في تاريخ الأندلس.

ويدور (الفصل الثاني) حول **إشكالية العائق الجغرافي**، وعرضنا فيه التأثير الذي مارسته جغرافية الأرض على الحدث التاريخي في الأندلس من خلال تأثير الجغرافية على محاولات الامتداد الإسلامي فيما وراء جبال ألبرت والعلاقة التي ربطت بين الطبيعة الجغرافية للأندلس وجيوب المقاومة المضادة له. وخصص (الفصل الثالث) للحديث عن **إشكالية التكوين الاجتماعي** وتأثيره على الكيان السياسي الإسلامي في الأندلس، وعرضت فيه طبيعة المجتمع الأندلسي وسماته من خلال تناول الفئات المسلمة وغير المسلمة، وكذلك الحديث عن العلاقات الاجتماعية من حيث طبيعتها وآثارها، وختمت الفصل بذكر آثار النزاع الاجتماعي الداخلي على مستوى السياسة والاقتصاد والعلاقة مع الآخر.وتعلق (الفصل الرابع) **بالنظام السياسي في الأندلس** وقد تناولت فيه طبيعة النظام السياسي من خلال عرض الأنظمة السياسية المختلفة في عصور الأندلس المسلمة، وكذلك تحدثت عن المشاكل السياسية التي افرزها النظام السياسي وهي النزاع

والاستئثار بالسلطة، وغياب القائد الأنموذج، والولاء والتحالف السياسي مع العدو، واحتكمت في تقييم النظام السياسي إلى معيار محدد يدور حول عدد من الأسئلة: كم كان الاستقرار السياسي في حياة الأندلس؟ كم كانت هيبة حكامها؟ وما هي صفاتهم وكيف عاملوا شعوبهم؟ ما هي حدود صلاحياتهم؟ كيف كانت علاقات الدولة بجيرانها؟ وكيف حلت مشاكلها معهم؟.

وارتبط (الفصل الخامس) **بإشكالية التحدي الخارجي**، وتحدثت فيه عن العلاقة مع الآخر في الأندلس بين طرفي المواجهات الحربية والدبلوماسية ووقفت عند خصائص وسمات الصراع الخارجي، فأشرت على جبهة المواجهة مع العدو، ومن ثم خصصت جانباً لا بأس به للحديث عن الروح الصليبية في الصراع الخارجي. اعتمدت هذه الدراسة في عرض فصولها على عدد مهم من المصادر، وقد ركزت بصورة أساسية على المصادر العربية الإسلامية والتي تظل أهم مصادر شبه الجزيرة الأيبيرية على الإطلاق وأكثرها موضوعية وأمانة على الرغم من النقص الحاصل فيها بسبب الضياع والتلف، ومع ذلك فأن معظم هذه المصادر أفادت الدراسة في البناء الحدثي الظاهري للموضوع محاولة تدقيق الخبر التاريخي حسب، فلم تحتوي إلا في القليل منها على تعليلات وإشارات تحليلية عن مسببات الحدث ونتائجه، ولذلك رجعت في مواطن كثيرة جداً وأساسية إلى المراجع الحديثة للوقوف على تحليلات أصحابها وتعليلاتهم وتعزيز توجهاتهم الفلسفية في النظر إلى التاريخ الأندلسي وذلك دون التركيز على الأحداث المتتابعة في مؤلفاتهم إلا في حالات قليلة ينقل فيها الكاتب عن مصدر مفقود أو مكتوب بلغة أخرى لا يتسنى للباحث التعامل معها.

ومن ابرز المصادر التي اعتمدت عليها كتب التاريخ الأندلسي العام ومنها كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول و(تاريخ افتتاح الأندلس) لأبي بكر محمد بن القوطية (ت ٣٦٧هـ) و(تاريخ الأندلس) لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، و(البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) بأجزائه العديدة لأبي العباس احمد بن محمد بن عذاري المراكشي (ت بعد ٧١٢هـ) و(المقتبس في أخبار بلد الأندلس) لشيخ مؤرخي الأندلس أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ) بأقسامه المتعددة، وكذلك مؤلفات المؤرخ والأديب لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) المختلفة وغيرها. واستفاد البحث كذلك من المصادر الأولية التي عنيت بوصف الجغرافية الأندلسية وفي مقدمتها كتاب (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد الله

الحميري (ت نحو ٧١٠هـ) و(صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس) للشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) وغيرها، وكانت فائدتها كبيرة إذ ساهمت في بيان الطبيعة الجغرافية العامة للأندلس والوقوف على مناطق الحصانة والمنعة في المدن الأندلسية فضلاً عما احتوته هذه الكتب بين ثناياها من معلومات تاريخية دقيقة ومهمة. واعتمدت على كتب التراجم الأندلسية ومنها (جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي (ت ٤٨٨هـ) و(الحلة السيراء) لأبى عبد الله بن أبي بكر بن الابار (ت ٦٥٨هـ) و(التكملة لكتاب الصلة) لنفس المؤلف وما تبعه من الذيل وصلة الصلة وغيرها كثير، ومن خلال هذه الكتب تمكنت من الوقوف على صفات الكثير من الحكام الذين توالوا على إدارة الأندلس ،وأفدت منها كذلك في تبيان روح الجهاد والبطولة الأندلسية عن طريق تراجم مئات العلماء الذين استشهدوا او فقدوا وهم يجاهدون عدو الأندلس التاريخي، فضلاً عن المعلومات التاريخية المهمة التي جاءت ضمن تلك التراجم. وكان الرجوع إلى كتاب (جمهرة انساب العرب) لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ذو أهمية خاصة لأنه ساعد في تبيان أصول كثير من بيوت العرب، والبربر، وشكلت معلوماته الدقيقة معرفة مهمة لي عن موضوع الاستقرار الإسلامي الأندلسي. أما المراجع الحديثة فكان الاعتماد على مؤلفات الأستاذ محمد عبد الله عنان المختلفة وذات القيمة المتميزة ،كما اكتسبت مؤلفات الأستاذ (عبد الرحمن علي الحجي) أهميتها في هذه الدراسة لما لصاحبها من رؤية نقدية شاملة، ومواقف تعليلية بارزة في تناول أحداث الأندلس التاريخية ويوازي ذلك جهود حسين مؤنس في هذا المضمار حيث يكتسب خصوصية مهمة من خلال أفكاره التي ينفرد بها، وارتبطت الدراسة بصورة كبيرة بكتاب (مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس) لمؤلفه عبد الكريم التواتي، حيث افادها بوضع مخطط الدراسة العام إلى حد بعيد وصياغة العديد من أفكارها، كما أفدت من كتب الرحلات والآثار في اكتساب معرفة جغرافية معاصرة ناتجة عن مشاهدات أصحابها مثل كتاب (رحلة الأندلس) لحسين مؤنس و(الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان وغيرها. ورجعت كذلك إلى المصادر الأجنبية المترجمة للوقوف على رؤيتها للأحداث التاريخية في الأندلس ومنها كتاب (الإسلام في المغرب والأندلس) لمؤلفه ليفي بروفنسال، (وتاريخ الحروب الصليبية) لستيفن رنسيمان، وغيرها. واعتمدت الدراسة في مواطن كثيرة على عدد من المقالات المهمة لعل في مقدمتها (العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في

فرنسا) لكاتبها علي المياح و(الفوضى العسكرية في الأندلس في عصر الــولاة) لعبــد الجليل الراشد، وثمة مقالات أفدت منها في تأصيل عدد مــن الأفكــار المهمــة حــول استخدام العنف وتعليل الانحسار بين الداخل والخارج ومن أبرزها مقالة عبــد الحميــد احمد أبو سليمان (العنف في الإسلام بين المبدأ والخيار) ومقالة عماد الدين خليل (قضايا الحضارة الإسلامية في مناهج الجامعات). ولم اغفل جهد الدارسين الذين سبقوني، ولعل من ابرز الرسائل التي تركت أثرا واضحا في فصول الرسالة (اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس ٩٤-٨٩٧هــ) لخالد يوسف الخالدي و(معاهدات الصــلح بــين الأندلس والممالك الأسبانية ٦٣٥ــ٨٩٧هــ) لخالد محمود عبد الله وغيرها ممــا هــو مثبت في قائمة المصادر والمراجع.

واجهت الباحث صعوبات متعددة في تغطية الموضوع في مقدمتها سعة المساحة والزاوية التي تعالجها الدراسة ورغم أنني تحاشيت الكثير من التفاصيل إلا أن التعامــل مع ثمانية قرون من الأحداث الزاخرة المتشعبة والمتعددة له صعوبته الكبيرة دون شك. كما وان التعامل مع عصور ذات خصائص ثابتة في خمسة فصول يعرض الباحث إلى إعادة بعض الأوصاف والخصائص والسمات، ولا نقصد بذلك التكرار، وإنما هو السياق التاريخي الذي يفرض علينا عدم إغفال أية مرحلة تاريخية وعدم تجــاوز المواصــفات الخاصة بها. واتسمت الكتابة في موضوع الجغرافية وأثرها على الأحداث التاريخية في الأندلس بالصعوبة، فحداثة الموضوع له أثره، كما وإن طبيعة المعلومات المتوفرة فــي المصادر تفتقر في اغلبها إلى الشمولية أو هي تعكس تصورات الفترة التي كتبت بهــا، لذلك كان اللجوء إلى المصادر الحديثة وكتب الرحلات، ومن خلال الجهد المتواصــل تكونت لي عدد من الإشارات المتناثرة والمفككة علمت بعد ذلك على تجميعها ومعالجتها كل حسب اتجاهه وحاولت الوصول بذلك إلى صورة شاملة ومتكاملة ولو نسبياً لأثــر الجغرافية على الحدث التاريخي في الأندلس .

وأخيراً: أرجو أن أكون قد وفقت في تناول ذلك كل ومن الله التوفيق، والحمــد أولاً وأخيراً لله {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}

الفصل الأول
الوجود العربي الإسلامي في الأندلس
(نظرة عامة)

مدخل

دخل المسلمون الأندلس[١] سنة ٩٢هـ واستمر وجودهم بها إلى عام ٨٩٧هـ وشهدت مدة وجودهم على هذه الأرض تطورات مهمة انتهت بخروجهم منها. ويستوجب البحث في ظاهرة المد والانحسار الإسلامي في الأندلس وتعليلها متابعة الوجود العربي الإسلامي هناك وكشف أبرز ملامحه من أجل تشكيل الأرضية التاريخية للموضوع وبلورة الرؤية المعرفية الحديثة.

لم يتطور الوجود العربي على وتيرة واحدة، إنما أخذ صوراً متعددة عبر بها عن نفسه وهي (المد/ التراجع/ الانتعاش/ الانحسار) فضلاً عن بعض صور الانكفاء والتعثر التي ظهرت ضمنها، ويشمل هذا الوجود السياسي دون الحضاري الذي سار في وتيرة التصاعد فظل ينمو باستمرار حتى في أشد الفترات حرجاً، بل إنه لقوته فإن تأثيراته واضحة حتى الآن ممثلاً في المساحة التي يحتلها، من التراث العربي والأسباني وهي مسألة مهمة يمكن تعليلها بأثر الطابع العلمي والثقافي للشخصيات الحاكمة في الأندلس تشجيعهم على العطاء الحضاري، فضلاً عن عامل التنافس بين الحكام كما حصل في عصر الطوائف[٢]، ومثل الإنجاز الحضاري استجابة إيجابية مذهلة لتحدي

---

(١) أطلق العرب المسلمون لفظ (الأندلس) على ما شمله سلطانهم من شبه الجزيرة الايبيرية وهو غير لفظ (الأندلس) الذي يطلق اليوم على الجزء الجنوبي من أسبانيا، وعلى الرغم من هذا فلم يشمل سلطان العرب المنطقة كلها دائماً ويمكننا متابعة مناطق النفوذ العربي الإسلامي من خلال الخرائط المبثوثة في هذا الفصل إذ تبين حجم النفوذ العربي في كل عهد مرت به الأندلس، عن هذا ينظر: حسين مؤنس، رحلة الأندلس (حديث الفردوس الموعود) (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣) ٢٢-٢٨.

(٢) لا يفوتني التأكيد على أن مظاهر الإبداع الحضاري زمن الطوائف والتراجع كانت تركن إلى قرون طويلة من الإنجازات المهمة على شتى الأصعدة وبالتالي فهي واصلت ولم تبدأ من الصفر في عملية الإسهام الحضاري، عن موضوع الحركة العلمية زمن الطوائف ينظر رسالة الشقندي في فضائل الأندلس نشرة ضمن كتاب (فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي، نشر صلاح الدين المنجد، ط١ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨) ففيها نماذج إيجابية عديدة.

الأرض والواقع السياسي المأزوم، ولا ننسى أن الحضارة أطول عمراً من الوجود السياسي، وكثيراً ما يحدث سقوط وانحسار دول وكيانات متعددة بينما تبقى الحضارة في إطاراتها الشاملة تواصل ديمومتها وبقائها أو صمودها على الأقل فترات طويلة أخرى[1].

---

(١) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٤ (الموصل: منشورات مكتبة ٣٠ تموز، ١٩٨٦) ص٢٦٥، ولكن ظاهرة التناقض بين الواقع السياسي والمنجز الحضاري في الأندلس يراجع: على محمد راضي: الأندلس والناصر (دار الكتاب العربي، د. ت؛ ص١٢، عبد الكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، ط١ (الدار البيضاء: مكتبة الرشاد، ١٩٦٧)، ص ٦٦٤.

المبحث الأول

الامتداد والتراجع

فتح العرب المسلمون شبه الجزيرة الايبيرية سنة ٩٢هـ، واتخذ وجودهم فيها طابع التوسع الذي أخذ شكل نشاط جهادي كبير استمر متواصلاً حتى توقفه بعد معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ) التي حددت الوجود العربي الإسلامي ببلاد الأندلس فحسب.

تمثلت أولى صور الامتداد العربي الإسلامي في الأندلس بعملية العبور إلى أراضيها، وإذا أردنا النظر في فلسفة العبور إلى الأندلس لابد وأن يتجه تركيزنا نحو جملة أمور أساسية تدور حول الأسباب الدافعة، وماهية القوة المشاركة، وأثر هذه المرحلة الحاسمة فيما تلتها من أحداث، وعلّية الامتداد العربي الإسلامي بهذه السرعة.

لم يكن فتح الأندلس متقاطعاً مع الستراتيجية العسكرية العربية الإسلامية بل على العكس جاء متوافقاً معها لأنه يؤمن للدولة حدودها[1]، وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) والقائد موسى بن نصير مدركان لطبيعة العبور وأخطاره واتفقا على تأمين ذلك بسرايا استكشاف توفر للجانب العربي معرفة ضرورية بالمنطقة وطبيعتها[2]، وفضلاً عن ذلك كان العامل الديني حاضراً إذ مثل فتح الأندلس وسيلة لإيصال رسالة الإسلام إلى تلك البقاع الأوربية[3].

---

(١) حرص المسلمون دائماً على مسألة الحدود في فتوحاتهم عن هذا ينظر: محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسة والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠) ص٩.

(٢) جاء في رد الخليفة الوليد على فكرة الفتح التي طرحها موسى بن نصير: (أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه أنه ليس ببحر زخار إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه فكتب إليه: وإن كان فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه) ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبرونسفال الـ (بريل، ١٩٥١) جـ٢، ص٥، مؤلف مجهول: في أخبار مجموعة فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم (مجريط: ١٨٦٧م) طبع بالأوفسيت (بغداد: مكتبة المثنى، د. ت) ص٥-٦.

(٣) عن العامل والدافع الإيماني ودوره في تسهيل مهمة الفتح ينظر: عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط١ (دمشق، الرياض: دار القلم، ١٩٧٦) ص٤٣.

وكلا هذين العاملين لم ينفيا وجود أثر للجانب الاقتصادي بما ستحققه أراضي شبه الجزيرة الايبيرية من تأمين لحاجات المسلمين المجاهدين واستيعاب الاتساع والتطور الذي كانت الدولة الإسلامية تمر به وقتذاك، وفتح منافذ اقتصادية جديدة، وأي عمل عسكري في أي جزء من العالم لابد وأن تصحبه أبعاد وآثار اقتصادية هي بعيدة عن دوافع البحث والسعي وراء الغنائم والذي توصي به العديد من الروايات التاريخية[١].

تتقاطع معالجة عبور المسلمين إلى الأندلس وفق هذه الرؤية مع الصورة التقليدية التي تطرحها الروايات التاريخية عن هذه المسألة التي ركزت على ثلاث جهات أساسية لتحقيق هذا المنجز المهم وتتمثل بيليان حاكم سبتة، وأبناء الملك المخلوع غيطشة واليهود، وكأنها توحي لنا بشكل أو بآخر أن الفعل العسكري الإسلامي كان قائماً في أساسياته على تلك الإسهامات التي سهلت حدوثه.

تتجاوز عملية الامتداد الإسلامي في الأندلس تلك النظرة المحجمة له ولعمقه السياسي والعسكري التي تربطه بأساطير وخيالات ليس لها من الواقعية التاريخية شيء يذكر، فهي لم تعتمد في أنسياحها على مساعدة يليان[٢]، وأن ما قدمه لا يعدو أن يكون عاملاً مضافاً ساعد على تسهيل الأمر بعد أن ترسخت فكرة الفتح عند قيادات الدولة

---

(١) عن الدوافع الاقتصادية وأثرها ينظر: إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٨) ص٦٥.

(٢) تتضارب الروايات بشأن يليان هذا وتنسج قصصاً عديدة حوله ولقائه بالمسلمين وتتوسع في إبراز دوره في عملية الفتح ولعل سفن العبور واحدة من المشاكل المتعلقة بدور يليان، وفي محاولة لاستكمال الصورة عنه يراجع:

عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم، فتوح أفريقيا والأندلس، حققه وقدم له: عبد الله أنيس الطباع، (بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ١٩٦٤) ٧٢-٧٣، أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت: دار النشر للجامعيين، د. ت) ص٣٣-٣٤؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٥-٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢، ص٤-٥؛ وحول أصل يليان ودروه ينظر:

عبد الواحد ذنون طه وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (الموصل: مطابع دار الكتب للطباعة والنشر بجامعة الموصل؛ د. ت) ص٢٠-٢٢؛ وحول سفن العبور: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس حتى نهاية الدولة العامرية، ط٣، (القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٦٠) ص٣٤-٤٠، ٤٤-٤٥؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٧-٤٩.

العربية الإسلامية وثمة فرق بين الهدف الأساسي والوسائل المنفذة له والمساعدة على تحقيقه.

وأراد أبناء غيطشة الاتكاء على القوة الإسلامية المندفعة في التخلص من لوذريق لظنهم بأن غاية العرب المسلمين هي الاستيلاء على الغنائم، وأنهم لم يكونوا ينوون الاستقرار على أرض الأندلس[(١)]، ولا نلمس بعد هذا أي رد فعل أ أثر سلبي لعدم تحقيق غاياتهم.

وما قام به اليهود من عدم مقاومة الفتح الإسلامي للأندلس يعود نفعه عليهم الدرجة الأولى فقد ساعدهم على التخلص من النظام الذي طالما اضطهدهم وضيق عليهم، كما أنه فتح لهم آفاق حياة جديدة من حسن المعاملة والتسامح والاستقرار، فموقف اليهود كان مصلحياً قائماً على فائدتهم الخاصة[(٢)]، كما وأن دورهم في عمليات الفتح أقل بكثير مما هو مطروح فهم لم ينتظموا في صفوف المقاتلين المسلمين ولم يشاركوا في عمليات الفتح ولم يقاتلوا تحت راية إسلامية أو يهودية وإنما ساهموا في حراسة المدن المفتوحة وتحت إمرة المسلمين الذين تركوا معهم عدداً من المجاهدين بالرغم من حاجتهم الشديدة إليهم، وكان اليهود يفشلون في أداء هذه المهمة فهم يهربون حال تعرض تلك المدن لهجوم أو تمرد داخلي ويتركون الجنود المسلمين يواجهون المتمردين لوحدهم مثلما حدث في أشبيلية[(٣)]. هذا هو الواقع التاريخي، ولا يوجد بعد

---

(١) عبر المؤرخون عن هذا بصورة واضحة ينظر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري: صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب روض المعطار في خبر الأقطار) نشر: ليفي بروفنسال (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧) ٩-١٠؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٢٩، مجهول، أخبار مجموعة، ص٧-٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢٦/٢.

(٢) عبد الواحد ذنون طه "التنظيم الاجتماعي في الأندلس في عصر الولاة"، ندوة مكتب التربية العربي (النظم الإسلامية) (أبو ظبي:١٩٨٤) ٣٣٩/٢؛ وحول دوافع اليهود ينظر تعقيب الشيخ عبد العزيز الرويس ص ٣٥٦، وتعليق الأستاذ يوسف العظم، ص٣٥٧.

(٣) خالد يونس الخالدي: اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٩، ص١١٩-١٢٠، ١٢٣.

وعن الإشارات حول دور اليهود وفشلهم في حماية إشبيلية تنظر المصادر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان. (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦) ١٠١/١، ٧١؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص١٤، ١٢، ١٨-١٦٢، ١٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢١/٢.

ذلك صحة لما يطرح في موضوع المساعدة التي قدمها يهود الأندلس للمسلمين الفاتحين[1].

عكست طبيعة القوة المشاركة في عملية العبور صفة الفتح، فهو فتح إسلامي شارك فيه بأكثرية ساحقة إلى جانب العرب، البربر وسكان شمال أفريقيا[2] تحدوهم الرغبة ويدفعهم الحماس من أجل نشر العقيدة الإسلامية.

وكانت عملية الامتداد مدروسة تماماً وينبغي التخلي تماماً عن الفكرة التي ترجع نجاح فتح الأندلس إلى الصنعة أو الاتفاق، فكان كل إجراء يؤدي إلى الذي يليه بكل أحكام وتأني، فالعمل العسكري سبقه إرسال سرية طريق بن مالك الاستطلاعية (٩١هـ) وكانت مهمتها دراسة أحوال المنطقة والتعرف على مواقعها الحساسة والستراتيجية[3]، وبهذا لم تعتمد عملية العبور على الحماس والاندفاع الإسلامي فقط، ولم يكن هذا الحماس يغلب جانب التدبير العسكري المحكم لا سيما وأن القوات الإسلامية تجتاز المضيق نحو أرض جديدة ومفاصل طبيعية لم تعهدها من قبل.

جاءت عملية الامتداد الإسلامي نتيجة للجهد العسكري الذي قام به طارق ابن زياد وموسى بن نصير[4] ومعهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي كان له إسهامه الفعال في فتح المدن الأندلسية وعقد معاهدات الصلح واستعادة إشبيلية للسيطرة الإسلامية[5] وعبر تلك الجهود الحثيثة تواصلت الفتوحات والعمليات العسكرية، وخلال

---

(١) الخالدي، مصدر سابق، ١٢٠-١٢٦، حيث يفند الروايات المبالغة في دور اليهود في الفتح الإسلامي للأندلس.

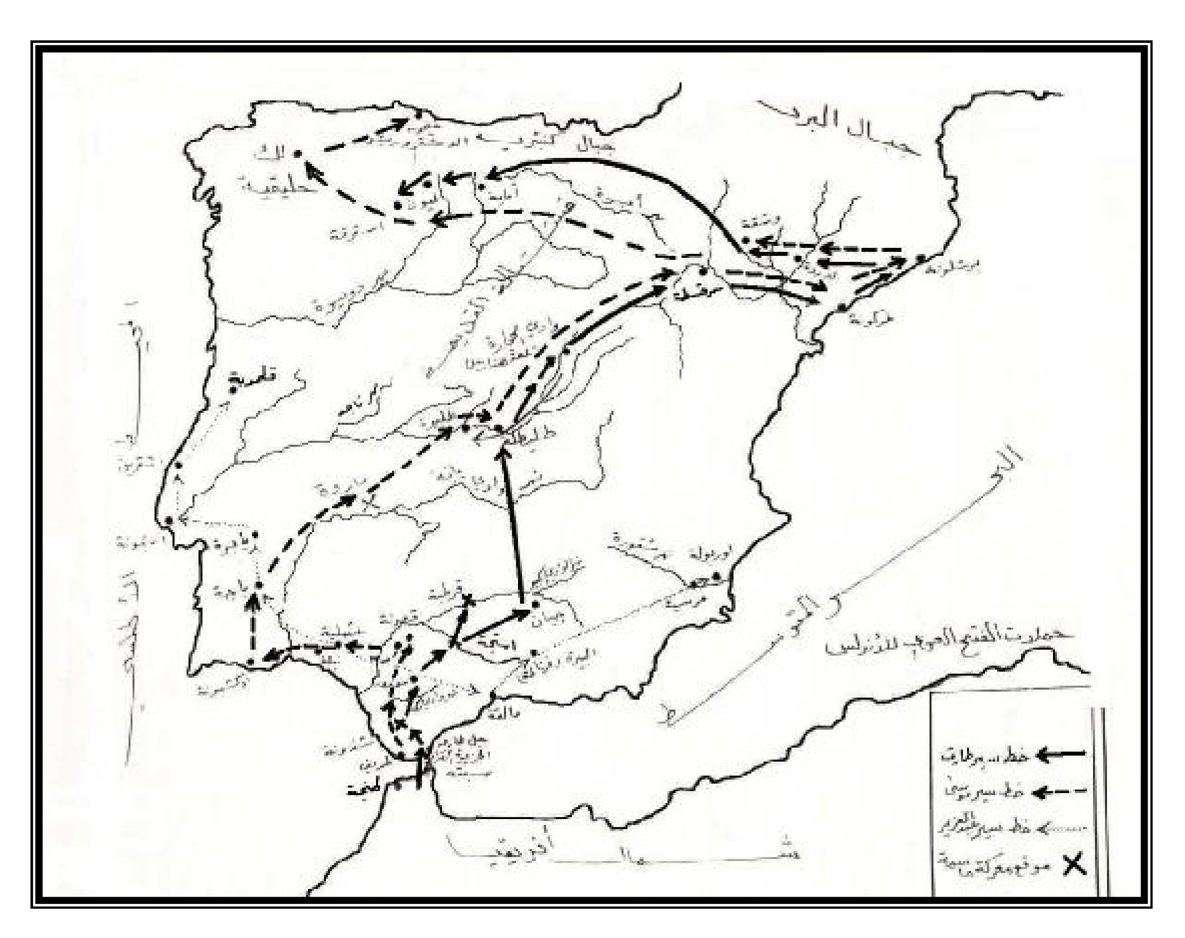
(٢) أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت) ٢٣٩/١، ٢٣١، ٢٥٤؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٦/٢، الحميري: صفة جزيرة، ص٩-١٠.

(٣) المقري، مصدر سابق، ٢٥٣/١؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ٢/ص٥؛ مجهول، مصدر سابق، ص٥-٦؛ الحميري، مصدر سابق، ص٨، ١٢٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٦.

(٤) عن مسار حملة طارق بن زياد وموسى بن نصير ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥١-٥٧، ص٦٣-٨٥ حيث يستعرض الروايات المختلفة ويجتمع ويقارن بينهما.

(٥) من أبرز محطات جهد عبد العزيز بن موسى عقده للصلح مع تدمير سنة ٩٤هـ/٧١٣م واستعادة السيطرة الإسلامية على إشبيلية وفتح عدد مهم من المدن الأندلسية، عن هذه الأعمال ينظر أحمد بن عمر بن أنس العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني (مدريد: مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥) ص٤-٥، الحميري، مصدر سابق، ٦٢-٢٦٣، ابن عذاري، مصدر سابق، ٢/ص١٥؛ مجهول، مصدر سابق؛ الحجي، مصدر سابق، ص٧٨-٨٣.

أربع سنوات فقط تمكن المسلمون من السيطرة على أغلب أراضي شبه الجزيرة الايبيرية.



المصدر: طه وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص٢٩.

ورغم السرعة التي أنجز بها المسلمون تقدمهم في الأندلس، فإن القوات الإسلامية لم تتقدم بسهولة ودون مقاومة من قبل القوط، بل واجه المسلمون صداً عنيفاً عدة مرات وفي معارك كان بعضها شديداً جداً ولم تخلو عملية العبور من مقاومة فقد (وجد طارق بعض الروم وقوفاً في موضع وطئ كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ونزل منه في البر وهم لا يعلمون فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم)[1].

---

(١) أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس: كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، قطعة منه بعنوان (تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (نصان جديدان) تحقيق أحمد مختار العبادي (مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١) ص٤٦.

وكانت المعركة الفاصلة (شذونة) ٢٨-رمضان-٩٢هـ[١] من الشدة والقوة بحيث استمرت ثمانية أيام كما تذهب إلى ذلك الروايات التاريخية[٢]، وقدم لوذريق ومعه القوط وإحساس التفوق والغلبة يجتاحهم حتى أنهم جلبوا معهم أعداد من الدواب لا تحمل غير الحبال لاستخدامها في ربط أسرى المسلمين[٣]، وقد انعكس كل ذلك على تفاصيل المعركة فبدت غاية في الضراوة والشدة والاقتتال المحموم[٤] الذي انتهى بالانتصار الحاسم للمسلمين على قوات القوط[٥].

وتجمعت فلول القوط في استجة من جديد حيث خاض العرب المسلمون عندها معركة أخرى، وقد وصف ابن الشباط حال المسلمين فيها بأنهم (لم يلقوا حرباً مثلها)[٦] كما اضطر المسلمون إلى العودة مرة أخرى لفتح إشبيلية بعدما انقلب سكانها عليهم، وقتلوا المتواجدين فيها منهم، فاستشهد في هذه المواجهات نحو ثمانين مسلماً[٧]، ولذلك اضطر موسى بن نصير إلى بعث ابنه عبد العزيز ومعه جيش إلى المدينة من جديد لبسط السيطرة عليها وكل ذلك يوضح المقاومة التي واجهتها القوة العربية الإسلامية الفاتحة من قبل القوط[٨]، وتقف وراء سرعة الامتداد العربي الإسلامي في أرض

---

(١) م. ن من المقدمة (ص١٢).

(٢) عن موقعة شذونة ينظر: أبو الحسن عز الدين بن الأثير: التاريخ الأندلسي عند ابن الأثير وابن خلكان، تحقيق تقي الدين الدوري (بغداد: مطبعة الرشاد، ١٩٩٠) ص٤٣، ابن عبد الحكم فتوح أفريقيا، ص ٧٨، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٧-٨، مجهول، أخبار مجموعة ص٧-٨.

(٣) ابن الكردبوس: مصدر سابق، ص٤٧.

(٤) يلخص موسى بن نصير طبيعة الفتح الإسلامي بكتابه إلى الوليد بن عبد الملك ((أنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر)) ينظر: ابن عبد الحكم، فتوح أفريقيا، ص٧٨.

(٥) مما يلاحظ أن جيش القوط لم يتميز بالقوة العددية حسب إنما بالتوحد إلى حد كبير فيؤشر الحميري على أن في شقندة (اجتمع وجوه العجم يتشاورون في حرب العرب ويحذرونهم من القعود عنهم ويحضون بعضهم بعضاً على أن يكونوا يداً واحدة وقدموا على لذريق بقرطبة بسبب ذلك) صفة جزيرة الأندلس، ص١٠٤.

(٦) محمد بن علي بن الشباط، صلة السمط وسمة المرط في سمط الهدى في الفخر المحمدي، نشر مع كتاب الاكتفاء بعنوان (تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط) تحقيق أحمد مختار العبادي (مدريد: ١٩٧١) ص١٢-١١٣؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٩.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص١٥؛ مجهول، مصدر سابق، ص١٨.

(٨) تشير المصادر دائماً إلى استعجال لوذريق وعدم تمكنه من حشد قواته، ليظهر الفتح وكأنه مباغتة والحقيقة أننا إذا اعتمدنا ذات المصادر نجد أن ثمة ٤٩ يوماً بين رسو السفن الإسلامية وحدوث المعركة لذلك لا يمكن الحديث هنا عن مباغتة أو اكتساح سريع من أي نوع، يضاف إلى ذلك ما ذكرناه عن استمرار المعركة ثمانية أيام مما يعني تعادل الخصمين في البداية عن هذا ينظر، عادل سعيد بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠) ص٤٦هـ(١).

الأندلس عوامل متعددة سوف نعرض لبعض منها مما يمت بصلة لهذا الموضوع ويتعلق أهمها دون شك بأوضاع المنطقة الداخلية.

١. أحوال شبه الجزيرة الايبيرية الداخلية:

تحدثنا المصادر الأولية والحديثة في عرضها لأحوال المنطقة الداخلية عن ملك غير شرعي مغتصب لسدة الحكم يعتمد على القوة في حكم المملكة[١]، وعن خلافات داخلية بين القوط أنفسهم، واستبداد شديد القسوة، وتشوش واضح في اللوحة السياسية لإسبانيا القوطية[٢]، وسيادة الاضطهادات العرقية والدينية ضمن نظام الطبقات الذي لم يوفر في يوم ما استقرار ولا عدالة اجتماعية[٣].

مثلت المنطقة بذلك أرضاً خصبة لتثمر دعوة الإسلام وحركته ولتقبل نظام جديد وعقلية جديدة تخاطب طبقات المجتمع المختلفة والتي كان أغلبها يعاني ويرنو بشدة نحو خلاص يحقق الحرية والرفاه لا سيما وأن الإسلام يحمل من الخصوصية والتفرد الشيء الكثير بهذا الخصوص، ولم يكن هذا كله ليوجد حالة استسلام مباشر وترك للمقاومة والانضواء مباشرة تحت سيطرة وقيادة الدولة الجديدة، لذلك ظهرت صور عديدة للمقاومة أشرنا على بعض منها وقادتها السلطة السياسية وكل من ارتبط بها وبوجودها، ومن له فائدة تتحقق ببقاء النظام القائم[٤]، كما لم يمنع هذا الوضع المضطرب فئات المجتمع القوطي من دفاعها عن بلدها من أي قوة تحاول السيطرة على الرغم من سوء أحوال بعضها[٥].

---

(١) عن اغتصاب لوذريق للحكم ينظر: الحميري، صفة، ص٦، ابن عذاري،مصدر سابق، ص٢-٣.

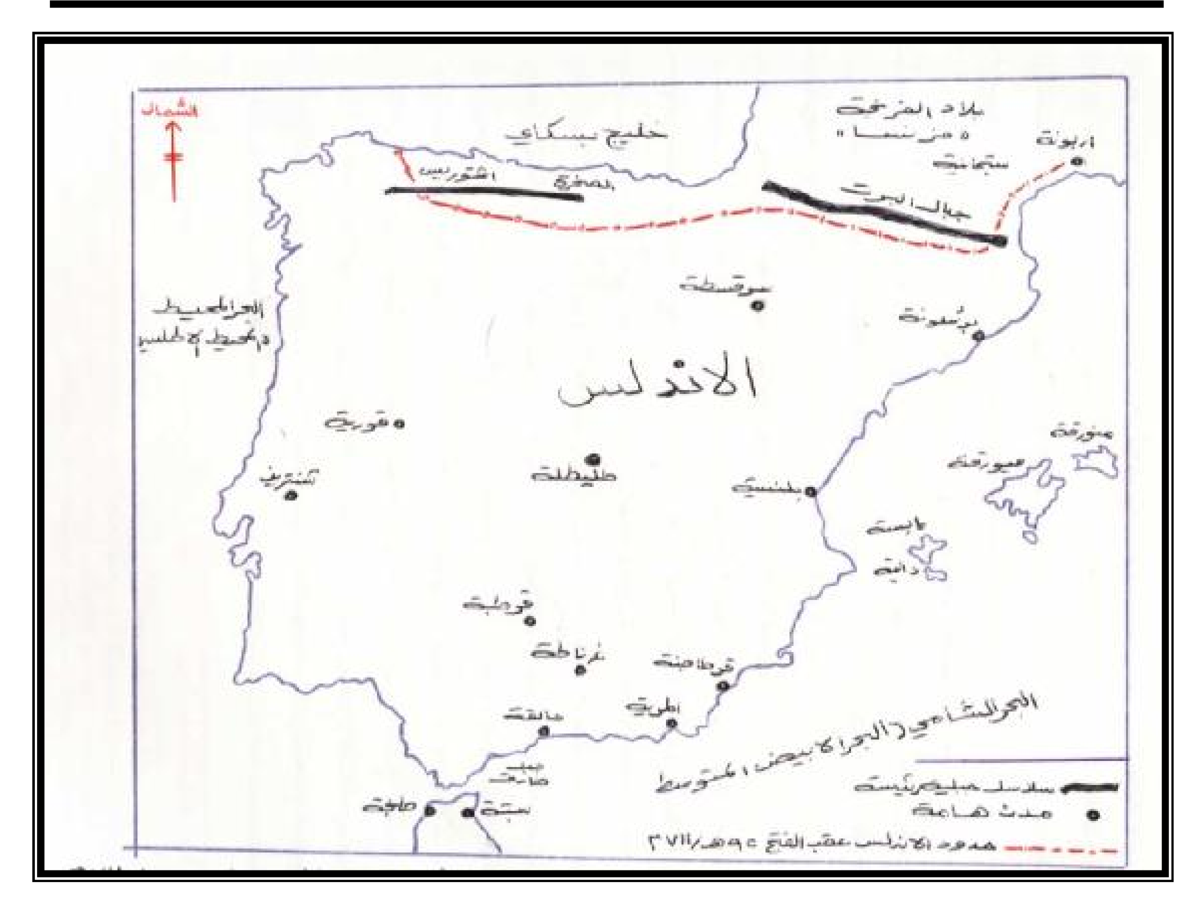
(٢) بيضون، تاريخ الدولة، ص٦٢.

(٣) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ط١ (بيروت: دار المعارف، ١٩٦٢) ص٦٤-٦٥؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٠.

(٤) لم تكن إسبانيا كما يذهب أحد الباحثين حينذاك ثمرة ناضجة تنتظر من يقطفها فإن الفتح الإسلامي كما رأينا لم يخل من مشاق وصعوبات، عن هذا ينظر روم لاندو: الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١، ص١٧-١٧١؛ عبد الحكيم الذنون، آفاق غرناطة، (دمشق: مطبعة الصباح، ١٩٨٨) ص١٨.

(٥) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٠.

لم يكن هذا التقدم السريع في شبه الجزيرة الايبيرية إلا بإسلام الجيش الفاتح وبه كان انتصاره، ولو كان الجيش الإسلامي بغير هذه العقيدة وأعداءهم بهذا التفوق العددي والمادي ما كان لمثل هذا الفتح أن يتم، فالمسلمون مطالبون قبل إعداد القوة أن يعمقوا إيمانهم ويرسخوا عقيدتهم ويلتزموا بتعاليم دينهم ولذلك لم تكن مسألة التساوي في القوى المادية بين الجيشين المتحاربين قانوناً معتبراً عند الفاتحين المسلمين، عن هذا ينظر: م. ن ص١٢٢؛ وكذلك الخالدي، اليهود، ص١٢٤-١٢٦.



حدود الأندلس عقب الفتح عام ٩٢هـ/ ٧١١م

المصدر: رجب محمود عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية عصر بني أمية وملوك الطوائف، ص٥١٥، نقلا عن خالد محمود: معاهدات الصلح ص٥٢.

٢. خطوات التأسيس:

حين وصل أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك[1] إلى موسى بن نصير وطارق ابن زياد بالعودة إلى دمشق عين موسى ولده عبد العزيز والياً على الأندلس فابتدأ بذلك عصر الولاة الذي استمر من (٩٥-١٣٨هـ) وكانت هذه المرحلة تؤشر بقاء ارتباط الأندلس الرسمي بالخلافة الأموية وعدم استقلالها عنها بالرغم الخصوصية التي بدت عليها علاقة الأندلس بالخلافة.

تعاقب على الأندلس في هذا العصر عشرون والياً في ٤٢ سنة فقط، كما أن مدة ولاية بعضهم لم تتجاوز عدة أشهر، كما اختلفت جهة تعيينهم. واتسم الوجود الإسلامي في هذا العصر بالامتداد الجهادي في الأراضي الواقعة خلف جبال البرت ومحاولة اتمام

---

(١) عن قرار الخليفة الوليد وأثره ينظر: عنان، دولة ١/ص٤٥؛ بيضون، الدولة، ص٨٠؛ ص١٤٤.

فتح الأراضي الشمالية، وفيما يخص المحور الأول فإنه عبر عن قوة المـد الإسـلامي حينذاك والذي تجاوز حدود شبه الجزيرة الايبيرية إلى ما ورائها[١] ولعل ذلك يتصل بما ذكر عن رغبة موسى بن نصير فتح القسطنطينية والوصول إلى دمشق عـن طريـق الأندلس والربط بين المغرب والمشرق عبر البر دون ركوب البحر[٢] وبالرغم مـن أن الروايات التاريخية لا تؤكد ذلك بصورة مطلقة إلا أنه غير بعيد تفكير موسى بن نصير يمثل هذا المشروع أو جزءاً منه ولعل السرايا التي وصلت إلى أربونة أو حولهـا فـي جنوب فرنسا خلال وجود موسى تقوي واقعية هذه الفكرة وتؤكد توثيقها.

تصاعد الجهاد خلف جبال البرت في عصر الولاة وبشـكل متواصـل وكانـت سنوات الامتداد الواسعة تنحصر بين استشهاد السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠٢هـ و استشهاد الغافقي سنة ١١٤هـ حيث بلغت الجيوش العربية آخر انتشار لها فـي ذلـك الحين ومن ثم أخذت تتراجع وتفقد ما ظفرت به وراء هذه الجبال[٣].

أما المحور الثاني فإن الأندلس لم يتم فتحها بالكامل ولم تنته قضية مصير البلاد بمجرد الفتح العربي كما انتهت قضايا كل البلاد التي دخلها العرب كفـاتحين وتقـرر مصيرها[٤]، وشهدت هذه السنوات محاولات عديدة لتحقيق ذلك فلم تتم المهمة بأكملهـا وبقيت المناطق الشمالية ثغرة خطيرة في كيان الوجود الإسلامي وكانت نهايته على يد قواتها.

- وواجه الوجود العربي الإسلامي في عصر الولاة التعثر في حالتين الأولـى: الصد الأوربي للمد العربي الإسلامي في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ[٥] والتـي

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص١٧٣.

(٢) عنان، مصدر سابق ١/ص٥٣؛ وعن الروايات الخاصة بمشـروع القسـطنطينية ينظـر: عبـد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والبربـر ومـن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بيروت: دار الكتاب اللبنـاني، ١٩٥٩) م٤، ق٢، ص٢٥٥؛ ابن الشباط، تاريخ الأندلس، ص١٥١؛ الحميري، صفة جزيرة، ص٢٧؛ وعن الروايات المتعددة ومقارنتها وتدقيقها ينظر: الحجي: مصدر سابق، ص١٣٣-١١٧.

(٣) بيضون، الدولة، ص٩٣.

(٤) الطباع، مقدمة كتاب ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص١٥.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ص٢٨؛ المقري، نفح الطيب ١/ص٢٣٦.

ترتب عليها عدم تحقيق تقدم يقود إلى استقرار الإسلام خلف جبال البـــرت[1]، وتمثـــل التعثر الثاني بالنزاع الداخلي بين أبناء المجتمع الأندلسي والذي أصبح ظاهرة ملازمـــة للوجود العربي حتى الانحسار النهائي في ظل غياب القيم والمبادئ الإســـلامية علـــى مستوى التعامل والحوار وغلبة قيم القبيلة والتعصب لها والمصلحة عليها[2].

سهل هذا النزاع مهمة عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨-١٧٢هـ) لإقامة دولتـــه من خلال استغلال التناقض الداخلي لإحياء دولة الأمويين من جديـــد فـــي الأنـــدلس[3] فتهيأت له الأرضية الملائمة لإقامة دولته والقضاء على آخر الولاة (يوســـف الفهـــري ١٢٩-١٣٨هـ) في موقعة المسارة[4].

دخلت الأندلس سنة ١٣٨هـ عصراً مهماً من عصور الامتداد الإسلامي متمثلاً بدولة الأمويين بقسميها (عهد الإمارة والخلافة)، وقامت في عهد الإمـــارة لأول مـــرة الدولة المستقلة بعد ما انقطعت الروابط الرسمية بين الأندلس ودولة الخلافـــة الجامعـــة للتضاد الحاد مع الدولة العباسية[5].

---

(١) نؤكد على ذلك بالرغم من تواصل النشاط الجهادي بعدها والذي تمثل بجهود عبد الملك بن قطن خلال ولايته الأولى (ولايته ١١٤-١١٦هـ) وعقبة بن الحجاج (١١٦-١٢١هـ) وذلك لأن هذا النشاط لم يكن حاسماً ولم يوجد مناطق استقرار متقدمة وثابتة كما أنه لم يســـتمر طـــويلاً حتـــى انتهى، عن هذا ينظر: ابن عذاري، مصدر سابق ٢/ص٢٩؛ المقري، مصدر سابق، ١/ص٢٧٤؛ الحجي، التاريخ، ص٢٠٣-٢٠٦.

(٢) عن هذه النزاعات ينظر: ابن عذاري، مصـــدر ســـابق ٢/ص٢٣-٢٤، ٣١؛ مجهـــول، أخبـــار مجموعة ص٤٠.

(٣) كان للعامل الاجتماعي دور كبير في تسهيل مهمة الداخل فضلاً عن أن ســـوء الأوضـــاع هـــذه دفعت مسلمي الأندلس للوقوف إلى جانبه رغبة في القضاء على الفتنة وإصلاح الأوضاع ووقف خطر الشمال. عن هذه العوامل المساعدة ينظر: فريدة رؤوف الأنصاري: الإمارة الأمويـــة فـــي الأندلس على عهد عبد الرحمن الداخل، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعـــة بغـــداد، كليـــة الآداب، ١٩٧٦، ص٩٠-١١٨.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ٢/ص٤٦-٤٧؛ المقري، مصدر سابق، ١/ص٣٠٠.

(٥) كان الداخل قد نجا بأعجوبة من السلطات العباسية في قصة مشهورة لها طابعهـــا الـــدراماتيكي المثير، عنها ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٢/٤١-٤٤؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٥١-٥٢، ٥٤-٥٥؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح ص٢١، ٢٣-٢٤؛ لاندو، الإسلام والغرب، ص١٧٤.

واتسم هذا العصر بتراجع النشاط الجهادي خلف جبال البرت وبشكل كبير جداً، وكان سقوط اربونة سنة ١٤١هـ/٧٥٩م إعلاناً رسمياً بانتهاء النفوذ العربي الإسلامي هناك واتخاذ العرب المسلمين موقف الدفاع خاصة بعد قيام شارلمان بالتوغل إلى داخل أراضي أندلس ومهاجمة سرقسطة[١]، ولا يعني هذا خلو عهد الإمارة من أعمال جهادية داخل حدود شبه الجزيرة الايبيرية، فقد واجه الأمويون هجوم شارلمان المذكور، وصدوا غزوات النورمان المتكررة[٢]، ولا ننسى جهدهم المتواصل في رد اعتداءات إسبانيا الشمالية المتوصلة.

كما اتسم بتثبيت الوحدة الداخلية وذلك بالقضاء على الفتن والنزعات الانفصالية وقطع كل آمال الخلافة العباسية في استعادة السيطرة على الأندلس[٣]، وعمل عبد الرحمن الداخل على الارتقاء بالأندلس إلى أجواء الدولة المستقلة بعيداً عن صفات وخصائص الحياة القبلية ومهد بذلك الأرض لمن جاء بعده، وظهرت نتائج الاستقرار السياسي في العهود التالية مثل عهد هشام الرضا (١٧٢-١٨٠هـ) والحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ).

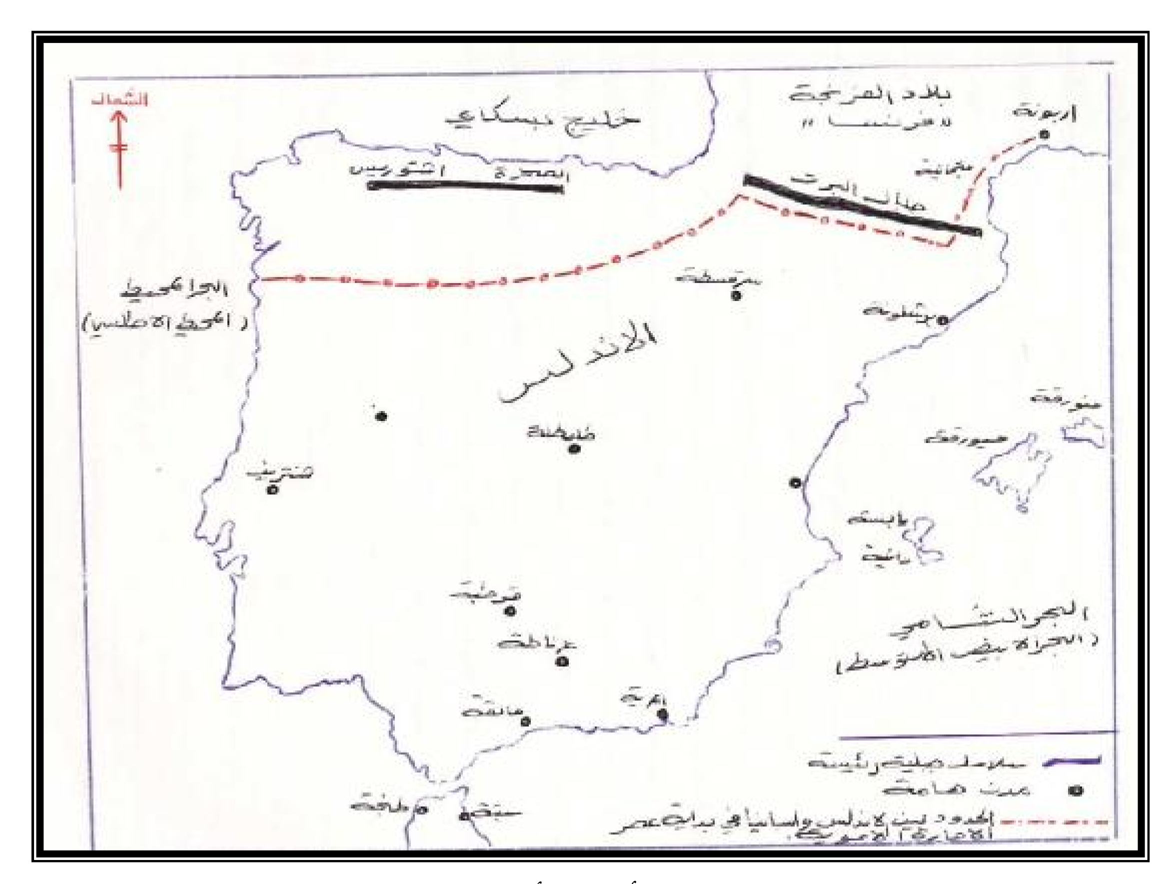
---

(١) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية ٩٥-٣١٦هـ (بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٧٦) ص١٤٩-١٥٤.

(٢) عن هجمات النورمان ينظر: العذري، نصوص عن الأندلس ٣١، ٧٢، ٩٨-١٠٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ٢،ص٨٧-٨٨، ٩٦؛ الحميري، صفة، ص٢٠، ٢٨، ٧٣، ٧٥، ١٥٠، ١٨٣.

(٣) إذا لم تكن ثورة العلاء بن مغيث الجذامي سنة (١٤٦هـ) بتدبير من الخليفة أبو جعفر المنصور فإنه على الأقل لم يعارض توجهاتها وكان بدون شك مؤيد لها، عنها ينظر ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٢-٣٣؛ مجهول، مصدر سابق، ص١٠١-١٢٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق ٢/ص٥٢.

وتؤكد إحدى الدراسات خطر قيام الإمارة الأموية على مصير ومستقبل الخلافة العباسية فهي تنازعها السيطرة والسيادة على العالم الإسلامي وقد تشجع أطراف أخرى على الانفصال عنها ينظر: فريدة الأنصاري، الإمارة الأموية، ص١٥٩.



خارطة توضح الحدود بين الأندلس وأسبانيا في بداية عصر الإمارة

المصدر: رجب، العلاقات، ص٥١٥، نقلا عن خالد، معاهدات الصلح، ص٥٤.

وكان طبيعياً أن يقود الاستقرار إلى الازدهار الثقافي والحضاري الذي عززه التواصل مع بغداد مقر الخلافة العباسية رغم التضاد السياسي وغياب الاتصال الرسمي فعوامل الانتماء العقيدي والالتزام الإيماني والعطاء الثقافي عادت إلى التواصل من جديد[١]، وكان للنهضة الحضارية في بغداد أثر كبير في ذلك فقد غدت مركز إشعاع حضاري وملتقى ثر للثقافات والحضارات المتعددة والمتنوعة، فرأى عبد الرحمن

---

(١) كان موضوع التأثير الحضاري العراقي في الأندلس محل اهتمام عدد من الباحثين والدارسين منهم: حسين أمين "العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد في العصر العباسي" مجلة المؤرخ العربي ع٢٤ (بغداد: ١٩٨٤، ص١١-١٧، تركي حسون نضيف الخفاجي: الدولة العربية، ص١٧٩.

الأوسط حينها بعين المثقف المسلم أنه من الخير لامته أن يترك سياسة الانعـزال عـن العراق التي سار عليها آباؤه[١].

لذلك فتحت أبواب الأندلس وابتداءاً من هذا العهد لدور العـراقيين الحضـاري وسمح له بالدخول والتأثير من عدة طرق أولها التجارة التي عملت على إدخال التجـار العراقيين والبضائع العراقية من الملابس وأدوات الزينة إلى الأندلس[٢]، كما ازدهـرت الرحلات العلمية المتبادلة[٣] ونشطت حركة تبادل الكتب جمعها ونشرها حتى امتد الأمر إلى النواحي الفنية والاجتماعية كما فعل أبو الحسن علي بن نافع الملقب (زرياب) حتى يخيل للقارئ والباحث أنه حمل بغداد ووضعها في قرطبة[٤] وفي ذلك تأكيد على وحدة الأمة وتواصلها الثقافي والشخصية العلمية للأمراء الأمويين.

- واجه الوجود العربي الإسلامي بعد عبد الرحمن الأوسط حالة تراجع خطيرة وقد أفاد الآخر من حالة الانقسام السياسي التي شهدتها الأندلس في عهود (محمد عبـد الرحمن ٢٣٨-٢٧٣هـ) وولديه (المنذر ٢٧٣-٢٧٥هـ) وعبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) [٥]

---

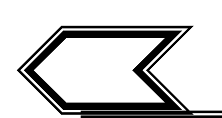
(١) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس (بيـروت: دار النهضـة العربيـة، ١٩٧٨)، ص١٣٠-١٣١.

(٢) م. ن/ ص١٣٠؛ الخفاجي، الدولة العربية، ص١٧٩.

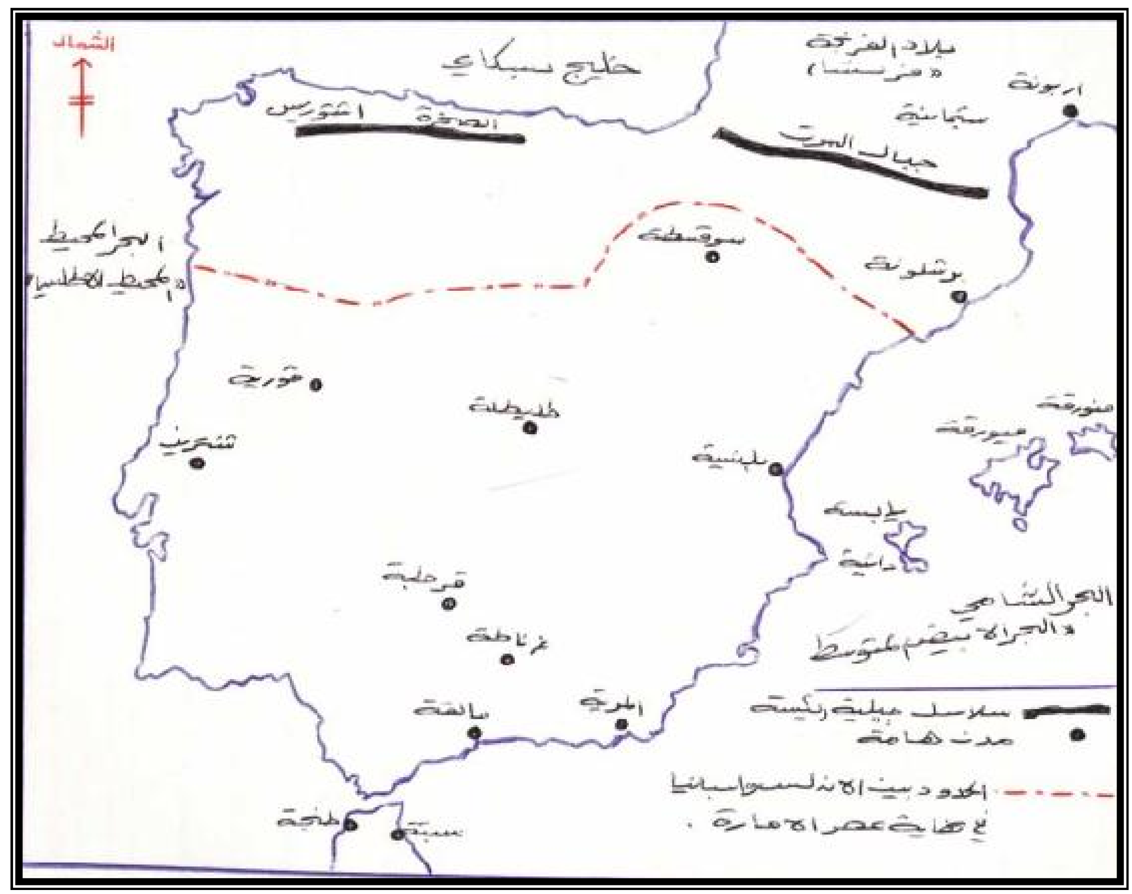
(٣) عن موضوع الرحلات العلمية المتبادلة ينظر ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلـى المغـرب، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٤، ١/٤٥؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بـن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة: مطابع هيئة التأليف والترجمـة، ١٩٦٤)، ص١١٦؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٣١٩-٣٢٢؛ وعن استعراض بعض العلماء ينظـر: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي: تاريخ علمـاء الأنـدلس (القـاهرة: الـدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦) ١/ص٢١٥، ٢١٩، ٢٤٧، ٣٠٧، ٢/٣٧، ٤٦، ٥٨، ١٢٩؛ أمين، مصدر سابق، ص١٢/١٤-١٦؛ الخفاجي، مصدر سابق، ص١٧٧-١٧٩.

(٤) ترك زرياب أثره في ميادين الموسيقى والفن وأدخل طرقاً جديدة في الطهي واستعمال الأوانـي وتصفيف الشعور وطرق ارتداء الملابس وما عرف آنذاك بـ (مراسيم زرياب) لم يكن إلا رمزاً للحضارة العراقية التي غمرت الأندلس في ذلك الوقت، عن أثر زرياب: المقري، نفـح الطيـب ٤/ص١٢٠-١٢٤؛ عبد الرحمن الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، ط١ (بيروت: دار الإرشاد، ١٩٦٩) ص٢٧٠ وبعدها؛ العبادي، مصدر سابق ص١٣٠-١٣٣؛ أمين، مصدر سابق ص١١-١٢؛ الخفاجي، ص١٧٦.

(٥) انتشرت في الأندلس خلال هذه العهد الثورات والفتن الداخلية الكثيرة، والتي امتـازت بالإتسـاع والانتشار وتنوع قواعدها وأصولها، فمن العرب خرج بنو حجاج الذين استقلوا بإشبيلية وغيرهم، ومن البربر ظهر بنو موسى بن ذي النون في الثغر الأعلى، ومن المولـدين بـرز عمـر بـن حفصون في أخطر محاولات التمرد والانفصال عن السلطة الأموية ولم يتبق بيد الأمراء الثلاثـة إلا مناطق معدودة يفرضون عليها سلطتهم حول هذه الحركات الانفصالية ينظر:



وما ترتب عليها من تدهور اجتماعي واقتصادي مؤثر، وبدأ بتحويـــل هـــذه الظـــروف لصالحه من أجل إضعاف الوجود العربي الإسلامي وإنهائه.



خارطة توضح الحدود بين الأندلس وأسبانيا في نهاية عصر الإمارة

المصدر: رجب، العلاقات، ص٥١٥، نقلا عن خالد، معاهدات الصلح، ص٥٧.

إلا أن حالة التراجع في الوجود العربي الإسلامي تغيرت في عهد عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) ٣٠٠-٣٥٠هـــ، حيث ارتقـــت الـــبلاد حينـــذاك سياســـياً وحضارياً بعد جهد كبير بذله الناصر فمثل بذلك الرجل الذي تتطلبه المرحلة التاريخية التي وجد فيها.

أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي: المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، ج٣، نشر ملشـــورم. أنطونيـــة (بـــاريس: ١٩٣٧) ص١١-١٢، ١٩، ٢٠-٢١، ٢٩-٣١، ٢٥، ٢١، ١٣٨، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٩٠-٩٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب ١٠٦/٢.

بدأ الناصر عمله في عدة اتجاهات: أعاد الوحدة الداخلية، وقضى على حركات التمرد والانفصال[١]، امتد بنفوذه إلى شمالي أفريقية وبسط سيطرته على المغرب الأقصى، وحقق انتصارات متتالية على القوى الإسبانية حتى انكفأت وتراجعت.

شهدت هذه المدة إضافة إلى شخصية الناصر أموراً عديدة في مقدمتها ضعف الخلافة العباسية واستلاب سلطانها الفعلي، وقيام الدولة الفاطمية فدفعت كل تلك الظروف عبد الرحمن الناصر إلى إعلان الخلافة عام ٣١٦هـ والتلقب بأمير المؤمنين والناصر لدين الله[٢]، وبذلك دخلت الأندلس عهد الخلافة الأموية، وجاء قرار إعلان الخلافة تعزيز للاستقلال السياسي والخصوصية التي تمتعت بها الأندلس بين أقطار الدولة الإسلامية وأن ظهر أثره معنوياً أكثر منه مادياً.

وكان عهد الحكم المستنصر امتداداً لعهد أبيه سياسياً وثقافياً مع إعطاء الجانب العلمي اهتماماً أكبر فحقق إنجازات عديدة وكان عالماً حيث اقتضى العلم، سياسيا مسالما حيث حضرت السياسة، شجاعاً قوياً مهاباً حين تدق طبول الحرب ردا لاعتداء وتلقيناً لأعداء الدولة دروساً في الشجاعة[٣].

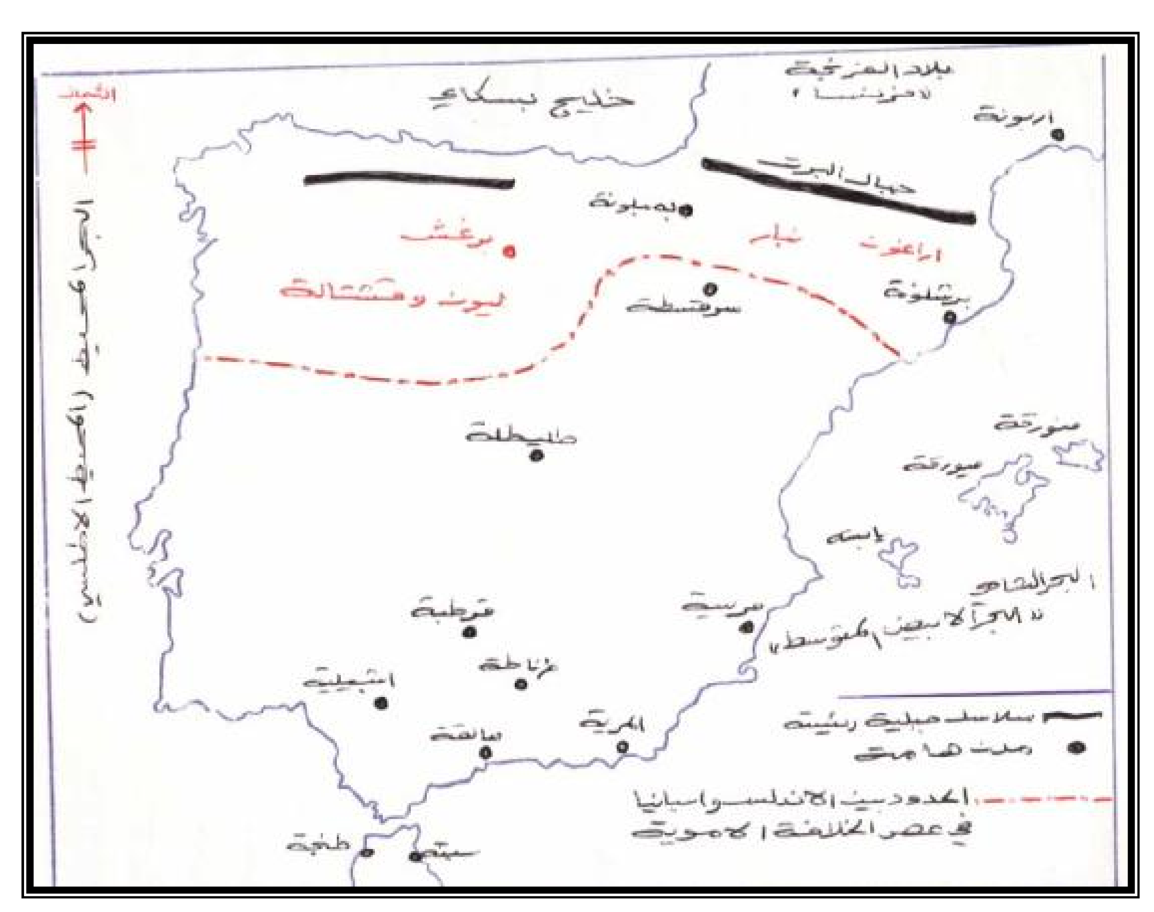
---

(١) ابن حيان القرطبي، المقتبس، ج٥، نشرب، شالميا (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩). صفحات متعددة منها، ٥٥-٦٠، ٦٢، ١٦٤، ١١٥، ١٣٨؛ لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط٢ (بيروت: دار المكشوف، ١٩٥٦) ص٣١؛ ابن عذاري، االبيان المغرب ٢/١٦١-١٦٣.

(٢) ابن عذاري، م. ن-٢٥، ص١٩٨؛ ابن حيان، مصدر سابق، ص٢٤١.

(٣) سار الحكم المستنصر مسيرة والده في التعامل مع أعداء الدولة وخصومها، وفي إطار ذلك توجهت حملاته إلى المغرب وبصورة خاصة ضد الحسن بن كنون زعيم الأدارسة وإخضاعه للسيطرة الأموية في الأندلس، عن هذا يراجع: مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: ليفي بروفنسال، (الدار البيضاء: المطبعة الجديدة)، ١٩٣٤، ص٨-٩؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ٢/ص٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٨؛ وكذلك عن دوره في مواجهة الخطر النورماندي ص٢٣٨، ٢٣٩.

ولم يخل هذا العهد من السفارات التي نجد تفاصيلها عند: ابن حيان القرطبي المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي (بيروت: دار الثقافة، د. ت) ص٢٠-٢٢، ٦٣-٦٤، ٧١-٧٢، ١٣٨-٢١٤١، ١٦٨-١٦٩.



خارطة توضح الحدود بين الأندلس وأسبانيا في عصر الخلافة

المصدر: رجب، العلاقات، ص٥١٦، نقلا عن خالد، معاهدات الصلح، ص٦٠.

٣. خطوات التراجع

أ- **عهد الحاجب المنصور**: لم تستمر الصحوة التي مثلها عهد الناصر وابنه إذ منذ وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦هـ) بدأت المشاكل الكبيرة تواجه الوجود العربي بتولي

هشام المؤيد[1] السلطة في الأندلس، فقد أغرى صغر سن الخليفة أطرافاً عدة للسيطرة عليه وحكم الأندلس من خلاله.

أدى تنافس هذه الأطراف إلى تثبيت هشام المؤيد في منصبه غير أن صراعها مع بعضها على الحكم أسفر عن بروز شخصية قوية سيطرت على مقاليد السلطة وحجرت على الخليفة هشام وجعلت الأمر وراثياً في عائلتها، وتمثل ذلك بشخص الحاجب المنصور بن أبي عامر، الذي حقق بعد استيلائه على الحكم إنجازات عديدة، وخاض غمار حروب واسعة انتصر في جميعها[2]، وبالرغم من ذلك كله ظل يؤثر في حكمه مسألتان أساسيتان:

الأولى: عدم شرعيته، فمهما حقق من إنجازات ومهما كان المنصور متميزاً فهو لا يطمع إن كان سليم الوطنية باغتصاب المُلك فيزج بالبلاد في غمرة من الفوضى تفضي إلى الانحلال والاضمحلال[3]، وعلى الرغم من شجاعة المنصور وتقواه إلا أن حبه للسلطة كان هو الغالب وكان حكمه بالتالي غير شرعي ومستبد ومغتصب للسلطة الشرعية، ولا يمكن لدارس التاريخ الأندلسي أن يتجاوز الكيفية التي وصل بها الحاجب المنصور إلى السلطة وقضائه على خصومه بقسوة أو يجد عذراً أو تأويلاً لهذا الاستيلاء غير الشرعي على السلطة في الأندلس.

الثاني: أن النظام الذي أوجده المنصور له ولعائلته ارتبط بشخصه قبل كل شيء، ودولة تقوم على عمود واحد لابد أن تنهار عندما يزول هذا العمود الواحد، وهذا هو ما حدث فعلاً[4]، فإذا كان ولده عبد الملك المظفر تمكن بصفاته وشخصيته من إبقاء

---

(١) من الملفت للنظر أن هشاماً المؤيد وبعد سنوات طويلة من الحجر عليه لم يجرؤ على التفكير بفعل شيئاً أو استغلال شرعية سلطته لممارسة القليل من صلاحياته رغم كبر سنه وبلوغه الأربعين، بل أن حياته ومماته ظلت وسيلة يستخدمها كل من يحاول الاستئثار بالسلطة مثلما حصل في عصر الطوائف من قبل المعتمد بن عباد، كما أن الروايات تذكر قصصاً عنه قد تبدوا خيالية وغير واقعية لكنها تؤشر دون شك على عدم كفاءته وضعفه عنها ينظر: ابن سعيد، المغرب، ١/ص١٩٣-١٩٦.

(٢) عن هذه الغزوات ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٣٠١؛ المقري، نفح الطيب، ١/ص٤٠٠؛ بيضون، الدولة العربية، ص٣٤٠؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص١٩٢-١٩٥.

(٣) أمين الريحاني، نور الأندلس، ط٢ (بيروت: دار الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٦٩) ص١٥٨.

(٤) مؤنس، رحلة الأندلس، ص١٠٣-١٠٤.

السيطرة على السلطة كما فعل والده[1]، فإن عبد الرحمن الملقب (شنجول) كـان علـى النقيض فتمادى في إجراءاته باستخفاف بالغ بالخليفة وجهـاز الإدارة فـي الأنـدلس[2] فخلعه أهل البلاد وكأنهم يلقون بحمل ثقيل لطالما أتعب كـواهلهم اسـتبداده واحتكـاره للسلطة كل ذلك الوقت[3]، وسرعان ما تهاوى النظام الذي فرضه المنصور بالقوة على أرض الأندلس.

دخلت البلاد بعد خلع عبد الرحمن في سلسلة من الصراعات الداخليـة كانـت بمثابة تمهيد لعصر الطوائف، واتسم الوضع في الأندلس خلال الفترة الممتدة منذ خلـع شنجول (٣٣٩هـ) وحتى إلغاء الخلافة سنة ٤٢٢هـ بصورة رسمية[4] بالآتي:

١. كثرة الانقلابات والمؤامرات السياسية، وتصـفية عـدد كبيـر مـن القـادة والزعماء[5].
٢. وضوح دور الصقالبة المتنامي وكذلك البربر وإسهامهم بشكل سلبي مؤثر في الأحداث[6].
٣. سيادة أعمال الشغب التي امتدت إلى الجهاز الخدمي للدولة ومنازل الأندلسيين أنفسهم[7].
٤. الركون إلى شخص هشام المؤيد لإضفاء شرعية الحكم لكل واحد من القـادة المتنازعين[1].

---

(١) عن شخصية وإجراءات المظفر ينظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، نشر ليفي بروفنسـال، (باريس: ١٩٣٠) ص٣٠ وما بعدها:

(٢) م. ن، ٣/ص٤٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٩١.

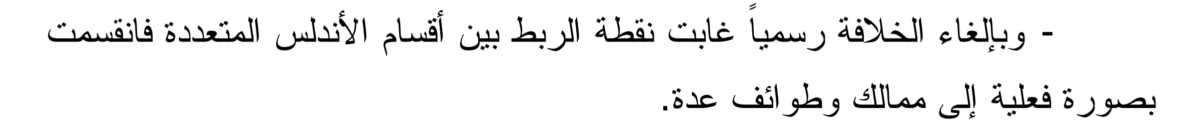
(٣) اتسم عبد الرحمن هذا بالطيش والانحراف عن القيم والثوابت الأخلاقية كمـا كانـت إجراءاتـه المتهورة تعكس صفاته تلك وغدا نشاطه العسكري تقليداً مصطنعاً لمعارك والده لذلك كانت نهاية حكم العامريين على يده بصورة سريعة ينظر ابن عذاري، مصدر سابق ٣/ص١٤٩؛

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣، ص١٥٠-١٥٢؛ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص١٣٩.

(٥) من ذلك الانقلاب الذي قام به هشام بن سليمان بن الناصر سنة ٣٩٩ ضد محمد بن هشام المهدي والذي أحبط، ابن عذاري ٨١/٣، كما تم إعدام عبد الرحمن نفسه وهشام بن سليمان وولده وأخيه أبي بكر وآخرين من الزعماء.

(٦) تجلى هذا الدور فيما بعد باقتسام الأندلس بينهم وبين الأندلسيين.

(٧) شهدت قرطبة أعمال مدمرة استهدفت سكاناً أبرياء دون تمييز، وفي ذلك تفاصيل مبثوثة في كتب عديدة منها البيان المغرب ٣/ص٨١ وما بعدها.



- وبإلغاء الخلافة رسمياً غابت نقطة الربط بين أقسام الأندلس المتعددة فانقسمت بصورة فعلية إلى ممالك وطوائف عدة.

ب- عصر الطوائف:

مثل عصر الطوائف تراجعاً سياسياً كبيراً وفوضى إدارية، وانقسام فعلي، وضياع لعدد مهم من مدن الأندلس الإسلامية لصالح العدو وانسياق رموز العمل السياسي وراء رغبة التوسع والسيطرة والنزاع السياسي، وتميز الوجود الإسلامي في هذا العصر بـ:

١. **انعدام الوحدة السياسية**: حيث انقسمت فيه الأندلس إلى عدة ممالك وإمارات مختلفة[٢] قامت على أساس التكتل العددي للقبيلة أو الجماعة والقوة التي تمتلكها فأعلنت انفصالها تحت قيادة مستقلة وتحت ألقاب فخمة لا تعكس حقيقة وضعها وموقعها مفيدة من الاكتفاء الاقتصادي والانقسام الطبيعي في إعلان استقلالها الرسمي عن كيان الدولة الموحدة.
٢. تعمقت في عصر الطوائف النزاعات الداخلية والصراع من أجل السلطة، وشهدت تلك السنوات أسوء نزاع إسلامي – إسلامي بين فئات ثلاث بارزة

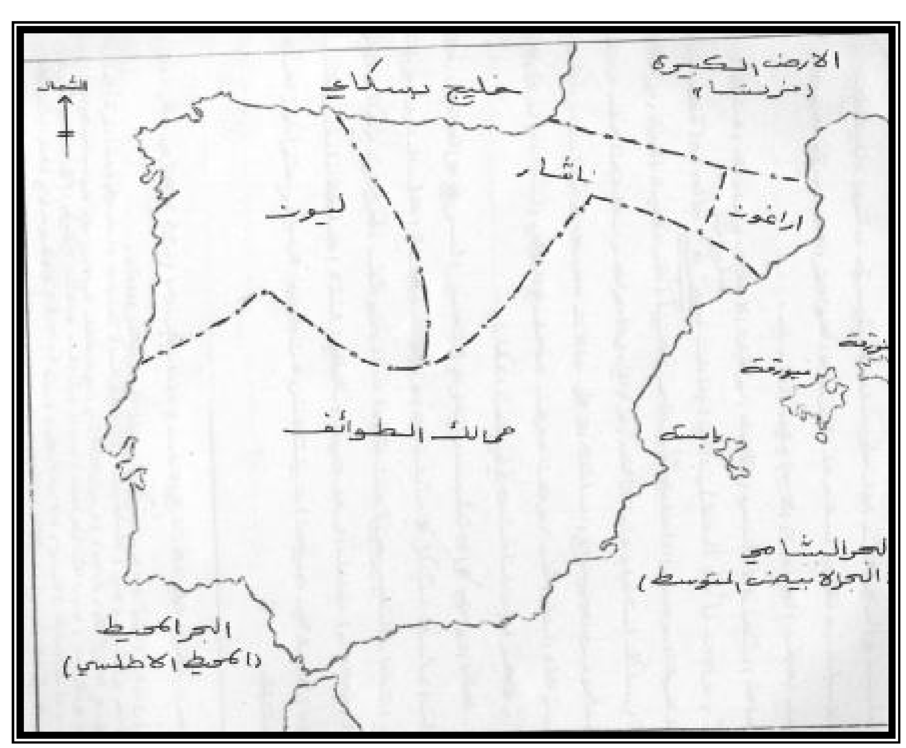
---

(١) مثلما فعل علي بن حمود بركونه إلى كتاب لهشام المؤيد لإضفاء شرعية على خروجه ومطالبته بالخلافة، م. ن ص١١٦.

(٢) استقل بنو جهور بقرطبة وبنو عباد بإشبيلية، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة والتفاصيل منتشرة في المصادر المختلفة تشير إلى أسمائها ولصعوبة التفصيل في هذا الموضوع نحيل إلى بعض أماكنها:
مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا (مدريد: ١٩٨٣)، ج١، ص٢١٥-٢١٨؛ أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدري ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ج٣، ص٣-١٣، ج٤، ص٩٢-١٠٤؛ ابن الخطيب، أعمال، ص١٤٧-١٦٤، ٢٢٧-٢٤١؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص١٥٥-٢٥٨؛ المقري، نفح الطيب، ١، ص٤١٣-٤٢٧.

(أهل الأندلس، البربر، الصقالبة) وانعكس هذا في زيادة جو الاضطراب وعدم الاستقرار وفقدان الأمن[1].

٣. اتجه زعماء الطوائف في محاولة إمداد النزاع مع جيرانهم نحو العدو المتربص بالأندلس وأهلها منذ سنة الفتح الأولى، فشاعت سياسة التعاون مع العدو بصورة سافرة حيث فتح هؤلاء أبواب الأندلس للآخر الذي وجد فرصة سانحة للتعامل مع جميع الأطراف وتحقيق مصالحه من خلال ذلك ودفعت أموال المسلمين تباعاً من أجل الحصول على إمداد العدو[2].



الوضع السياسي في الأندلس (حوالي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)

المصدر: عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون، ص٥٠، نقلا عن خالد: معاهدات الصلح، ص٦٧.

---

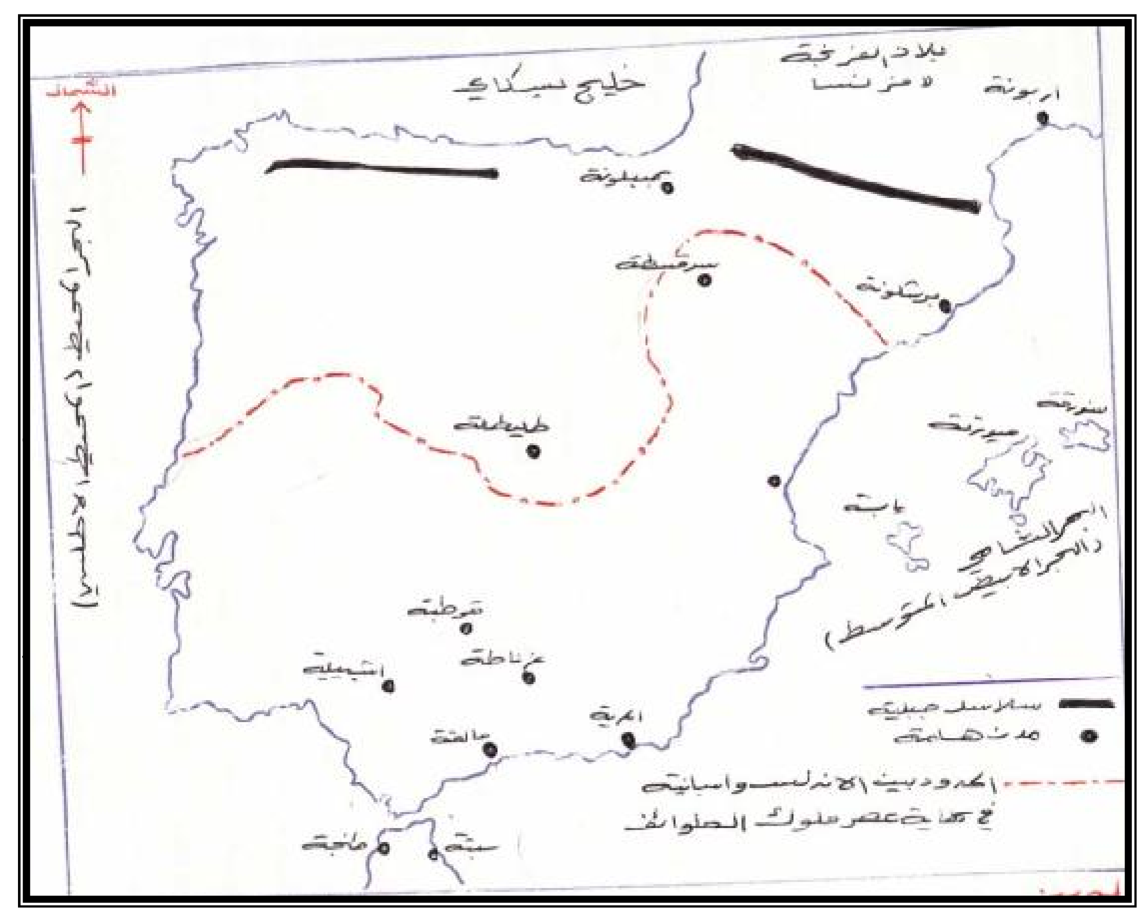
(١) يسمى عصر الطوائف أيضاً بأيام الفرق (أي الخوف) ودولة القيام بالأندلس لما ساده من ظواهر النزاع وعدم الاستقرار، ينظر: ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، (تونس: المكتبة العتيقة، د. ت) ص١١٠؛ ابن الكردبوس: تاريخ، ص٧٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط١ (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠) ص٤٢١.

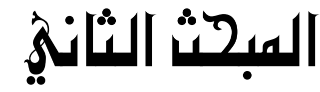
لم يك لهذا الوضع المتردي من نتيجة سوى التراجع المستمر للوجود الإسلامي في الأندلس والذي كان أول فواصله الرئيسية سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ[١] بيد الأسبان، وتوالي سقوط المدن والحواضر الإسلامية بعدها، رغم ظهور بعض النماذج الإيجابية الفردية.

وعانى الشعب الأندلسي (قاعدة الوجود الإسلامي ومادته) من هذه الأحداث كثيراً، وكان يأسى للمصائب التي أحاطت به وسلبيات حاله وواقعه، يعكسها حيناً دعوة للوحدة الداخلية[٢]، ينظمها حيناً أخر قصيدة باكية، يرسلها مراراً رسائل استنجاد واستغاثة، ولم يك يظهر له وسط هذا كله دور تغييري إيجابي ملموس للأوضاع السائدة إلا في حالات معدودة تمثلت برفض بعض مطالب زعماء الطوائف، وهذا عبر عن ضعف في الوعي السياسي لدى الأندلسيين عموماً، وهو أمر سنناقشه في غير هذا المكان.

- كل الوضع في الأندلس يستلزم التغيير السريع والعاجل، فقد استفحلت المأساة بشكل لا مثيل له، وزادت معاناة أهل البلاد، وبات الجميع في انتظار التغيير بعيداً عن قيادات الطوائف الهزيلة، فكان المرابطون[٣] الذين اضطلعوا بذلك الدور حين استجابوا لنداء أهل الأندلس، وقدر للوجود الإسلامي حينها أن ينتعش من جديد ويستمر متواصلاً لعدة قرون مقبلة.



خارطة توضح الحدود بين الأندلس وأسبانيا في نهاية عصر ملوك الطوائف
المصدر: رجب: العلاقات، ص٥١٦، نقلا عن خالد، معاهدات، ص٧١



المبحث الثاني
الانتعاش والانحسار

ترك سقوط طليطلة (٤٧٨هـ) أثراً عميقاً في نفوس أهل الأندلس جميعاً ففضلاً عن ضياع هذه المدينة المهمة والحساسة نبه هذا الحدث إلى الخطر الذي يتهدد المسلمين هناك حتى أن الفونسو السادس (٤٦٥-٥٠٥هـ) ذاته حين استولى على طليطلة أحس في داخله أنه لم يعد هناك الكثير من الوقت ليجهز على الأندلس بأكملها وغدت تصرفاته تجاه زعماء الطوائف تعكس وتمهد لذلك.

احتاج إحداث تغيير في طبيعة الوجود العربي الإسلامي المتراجع قوة جديدة تعززه وتقوي اتجاهات الإصلاح، فتوجهت الأنظار نحو المرابطين المسيطرين على المغرب وكانوا يمثلون دولة إسلامية ناشئة ولكنها قوية ومتينة(١) وكان الاستنجاد بهم يدور ضمن العلاقة بين الموقع المتقدم (الأندلس) والخلف الذي يستند عليه (المغرب) وهي علاقة في طابعها العام ليست إيجابية ففي أغلب الوقت الذي قضاه الوجود العربي بالأندلس بدا هذا الخلف طامعاً بالموقع المتقدم وليس سانداً له مما ترك أثره عميقاً على الكيان العربي الإسلامي في مواجهة إشكاليات وجوده على أرض شبه الجزيرة الايبيرية.

١. الانتعاش الأول:

استجاب المرابطون بسرعة لنداء إخوانهم في الأندلس وعبر ذلك عن روح الجهاد التي تتملكهم وحرصهم الشديد على الأراضي الإسلامية الأندلسية، لذا عبر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٦٣-٥٠٠هـ) إلى الأندلس في ربيع الأول من عام ٤٧٩هـ نصرة لأهله في الأندلس(٢).

وأظهر زعماء الطوائف موقفاً إيجابياً وأعلنوا استعدادهم للمشاركة في الجهاد، وبدوا أمام ابن تاشفين قوة موحدة متعاونة إلا أن هذا لم يعكس دواخلهم الميالة نحو النزاع والفرقة فهم أحسوا أن مراكزهم باتت مهددة بخطر الزوال سواء كان من قبل

---

(١) عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار ص٢٧٩.

(٢) تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٩٠؛ ابن الآبار، الحلة السيراء ٢/ص١٠٠؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٤٩.

الفونسو السادس أو ابن تاشفين ولم يمنع هذا من وجـود روح الحماس من جديد والخوف على مصير الأندلس ولو بصورة نسبية.

ظهرت نتيجة التعاون الإسلامي هذا بصورة جلية في موقعة الزلاقة (١٢-رجب ٤٧٩هـ)[١] التي أعادت للوجود الإسلامي في الأندلس انتعاشه من جديد دون أن يشكل ذلك عنصر مد إسلامي وإنما بقي يمثل انتعاشاً ضمن حدوده[٢]، فالعديد من الحواضر الإسلامية كانت قد ضاعت، والجهاد المرابطي رغم إخلاصه لم يحقق امتداداً جديداً ولم تسترجع أية مدينة أندلسية مهمة مثل طليطلة ومن بعدها سرقسطة[٣]، كما أن طبيعة الجهاد حينها اختلفت عن سابقتها، وغدا المسلم الأندلسي ينطلق في جهاده من منطلق الدفاع والحفاظ على ما تبقى، وكانت الزلاقة نفسها رداً على التوسع الإسباني، وثمة فرق بين نفسية المهاجم والمدافع، وفرق بين من يندفع من أجل الامتداد والتوسع وبين من يجاهد وبشدة من أجل البقاء[٤].

ولم يك المرابطون ينوون أبداً إخضاع الأندلس لسيطرتهم، وكان عملهم آنف الذكر في نظرهم على الأقل، أداء الواجب في نصرة إخوانهم في العقيدة وهذا الأمر يختلف عما تركته سيطرة المرابطين على الأندلس من أثر سلبي في نفوس أهلها، وينبغي علينا إدراك ذلك لأنه يعنينا في التعامل مع كم الروايات التي تتحدث عن إطماع المرابطين بخيرات الأندلس وأثر ذلك في إنهاء عصر الطوائف، فلم يك المرابطون يخططون لذلك وكان ابن تاشفين في عمله يستجيب لطلب أهل الأندلس والاستغاثات التي كانوا يسمعونها إياه[٥].

---

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (منسوب خطأ لابن الخطيب)، (تونس: مطبعة التقدم الإسلامية، ١٩١١) ص٥٢-٥٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، قطعة من تاريخ المرابطين، تحقيق إحسان عباس (بيروت: ١٩٦٧)، ص١٣٠؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان (القاهرة: ١٩٦٣)، ص١٩٥.

(٢) على الرغم من عودة الوحدة إلى الأندلس زمن الانتعاش إلا أنها لم تسترد وحدتها الإقليمية القديمة ولا تماسكها القديم بل لثبت تفقد قوتها تدريجياً وتنكمش رقعتها إزاء التفوق الإسباني، ينظر عنان، دول الطوائف، ص١٦.

(٣) طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٦٠.

(٤) التواتي، مأساة، ص٢٧٧.

(٥) من أبرز صور الإخلاص الذي أبداه المرابطون ما قام به زعيمهم من نصح لزعماء الطوائف بترك ونبذ الخلاف والشقاق والتوحد من أجل مواجهة الخطر الخارجي، ولدينا كتاب مهم يمثل وثيقة صادقة على هذه الحقيقة ينظر: التبيان ((مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨) ص٨٩، ١٠٦، وينظر كذلك مجهول، الحلل، ص٥٤-٥٥، ابن الكردبوس، ص١٠٦-١٩٧.

ومن أجل الوقوف على مغزى فعل ابن تاشفين، ينظر: التواتي، مأساة، ص٢٧٢-٢٧٣، ٣١٣.

تعود دوافع فعل يوسف بن تاشفين بالدرجة الأولى إلى وضع زعماء الطوائف أنفسهم، فقد عادت حالة الفرقة والتنازع بينهم وظهر أن ما ساد وقت معركة الزلاقة لم يك إلا توحداً ظاهرياً أخفى في ثناياه حالة التمزق والتفرق أو على الأقل كانت الوحدة التي ظهر بها زعماء الطوائف خياراً لابد منه درءاً للخطر الخارجي المحدق بهم وسلطاتهم الموهومة.

شعر زعيم المرابطين بخطورة تسلم هؤلاء مقاليد الأمور وتردي مستوياتهم وخطورة بقاء الفرقة والتنازع والطمع في الحكم في تصرفاتهم فتمت سيطرة المرابطين على الأندلس بالتتابع(1) بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر الأسباني المساعد لملوك الطوائف أولاً(2) وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدوا للقوات المرابطية ثانياً.

إلا أن عبور المرابطين إلى الأندلس وجهادهم ومن ثم السيطرة على السلطة فيها والتداخل مع المجتمع الأندلسي آثار مشكلة جوهرية وهي كما أسميها مشكلة (المغربي) و(الأندلسي) فبقي الكثير من زعماء الطوائف والفئات المرتبطة بهم ينظرون إلى المرابطين بوصفهم وافد غريب يطمع في أرضهم وخيراتها(3)، ومن الملفت للنظر أن هذه النظرة تتقاطع مع النظرة إلى العدو الأوروبي حيث كانت التعاملات معه متواصلة ولم ينظر إليه على أنه وافد غريب ولعل ذلك يعود إلى القناعة بأنهم أهل البلاد

---

(1) لم يكن القضاء على ملوك الطوائف عملاً ارتجالياً أو فردياً بل صاحبه تأييد فقهاء المسلمين المشارقة أمثال الغزالي والطرطوشي وتأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الساخطين على زعماء الطوائف، ينظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ط1 (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤) ١/٤١-٤٤؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٥١.

(2) كان من أبرز الأمور التي دفعت ابن تاشفين لإجرائه هذا هو التعاون السري بين بعض ملوك الطوائف والفونسو السادس ملك قشتالة أملاً في التمكن من طردهم بمعونته فكان على يوسف بن تاشفين أن ينسحب من ميدان المعركة ويترك الأندلس فريسة للأسبان أو أن يعتمد على نفسه قواته فقط لمواصلة الجهاد وتطلب هذا خلع ملوك الطوائف) ينظر: يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠) ١/ص٩٧؛ طه وآخرون، مصدر سابق، ص٢٥٠.

(3) يمكننا أن نضع في هذا المجال الاتهامات التي وجهت إلى المرابطين بعدم الذوق الأدبي وتراجع الأدب والثقافة في عصرهم وهذا يمثل بعض وجوه العصبية الأندلسية في النظر إلى المرابطين خاصة والمغرب عامة وبأنهم أقل حضارة وثقافة/ ينظر عن هذا: خليل السامرائي علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٦) ص٣٦٠.

الأصليين كما وأن قروناً متواصلة من التجاور وسلسلة العلاقات القائمة على أساس الشد والجذب أوجدت نوعاً من التكيف المحلي والاقتناع بالوجود الإسباني الذي لا سبيل للقضاء عليه، كما أن زعماء الأندلس نظروا إلى المرابطين بمنظار الحاكم الخائف على سلطته وليس بمنظار المسلم المتعاون مع أخيه المسلم.

انقلب المرابطون بعد القضاء على ملوك الطوائف في نظر الكثيرين من منقذين متعاونين إلى فاتحين سيطروا على أجزاء منها بالقوة بعد خوض عدة معارك شديدة في إحداثها مما أدى إلى رد فعل عنيف، فلم تمضي خمسة عشر عاماً فقط على وفاة عاهل المرابطين ابن تاشفين حتى اندلعت الثورة في قرطبة ضدهم سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ولم تكن هذه الثورات وأمثالها سوى محاولات للتنفيس من حكم المرابطين ولم تقو الفكرة الوطنية والقومية الأندلسية إلا فيما بعد في أواخر عهد المرابطين حينما اضطرمت الأندلس كلها من شرقها إلى غربها بالثورة ضدهم[١].

ويذكر البعض أن أسباب ثورة الأندلسيين على المرابطين تعود إلى ضعفهم وعدم قدرتهم على الدفاع عن أرض الأندلس ولا يمكن التسليم بهذه لأنه لو كان السبب الحقيقي لدفع الأندلسيين للتكاتف معهم من أجل تقوية مركزهم لا الثورة على كيانهم السياسي من أجل إنهائه وطردهم وهم الذين أنجدوهم وأنقذوهم من قبل، أن هذه الصورة تلمح إلى نكران الجميل والتنكر لكل ما قدمه المرابطون لهذه البقعة المسلمة.

تعني الثورة في أكثر من وجه الرفض الداخلي للقوة الثائر عليها، الرفض النابع من التضاد سواء السياسي أو الفكري لا الضعف، وقد نسلم بما يقال عن حداثة تبلور القومية كمفهوم ومصطلح في الوقت الحاضر[٢] وعدم تبلورها حينذاك، لكن دون شك الشعور بالانتماء إلى الوطن والأرض هو شعور فطري وجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض ودفاعه عنها ضد أي قوة مسيطرة، وقد لا يكون للتسمية المحددة (قومية) وجود حينذاك ولكن الاستشعار لمعناها ومدلولها كان موجوداً منذ وقت مبكر.

---

(١) يذهب إلى هذا الرأي عنان، عصر المرابطين ٣٠٦/١-٣٠٦ ويتابعه عدد من المحدثين.

(٢) يطرح هشام أبو رميلة هذا الرأي في مناقشته لتوجهات عنان بهذا الصدد، للوقوف على هذا الموضوع والمناقشات المتعلقة به ينظر: هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط١ (عمان: دار الفرقان، ١٩٨٤) ص٦٩ و هـ (١١٢).

- أثبت المرابطون طوال عهدهم في الأندلس صدق عـزيمتهم وحسـن نيـتهم واندفاعهم الحماسي والقوي دفاعاً عنها، ولذلك خاضوا معارك عديدة ومتواصلة ومهمة إلى حد كبير كإنقاذ بلنسية من أيدي الكمبيطور والقشتاليين سنة ٤٩٥هـ، وموقعة اقليش سنة ٥٠١هـ وغيرها[١]، ولكن هذه التجربة الجهادية أصابها الضعف لعدة أسباب، فقوة التحدي الخارجي، والروح الصليبية المستعرة ضد الوجود المرابطي خاصة والإسلامي عامة، والثورات المضادة في الأندلس، وقوة الموحدين في المغرب، انعكس على أرض الأندلس من خلال التراجع الإسلامي المتسارع حينها[٢]، ولا ننسى أن نؤكد علـى دور الانغماس في الترف في إضعاف اتباع المرابطين وميلهم إلى حياة الراحة والدعة ثم أثر السلطة الداخلية للفقهاء ضمن مذهبية المرابطين الدينية التي أوجدت نوعاً من التوجـه المتشدد وسلطة داخلية ضمن سلطة المرابطين الرسمية فاضعف بناء دولـتهم الفكـري والسياسي[٣]، ودورهم في إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي دليل على ذلك وعلى سلطتهم[٤] وبين ضعف المرابطين والانتقال إلى سلطة الموحـدين اجتـازت الأنـدلس سنوات صعبة كالتي تشهدها حين تغيب السلطة المركزية أو تضعف، تكرر هذا عـدة مرات فغرقت في أتون الفتن والاضطرابات، وظهرت زعامات محلية تسـتقل بمـدنها حتى أصبح في الأندلس من الحكام بعدد ما فيها من المدن كما قيل[٥] وانعكس هذا على اشتداد قوة الجانب الأسباني إزاء انعدام القوة الأندلسية الموحدة وكـان يلـزم الوجـود الإسلامي أن يدخل في طور انتعاش ثانٍ يعاود به مسيرته ويحاول البقاء علـى هـذه

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن القطان الكتامي: نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د. ت) ج٦، ص٥-٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٤/ص٤٢-٥٠، تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص١١٤.

(٢) ابن الآبار، الحلة ٢/ص٢٤٨؛ المقري، نفح الطيب ٤/ص٢٦١-٢٦٣، ابن الخطيـب، الإحاطـة ٢/ص١٢٦ ابن الكردبوس ص١٠٠ (هـ ١).

(٣) يتحدث الحجي عن هذه الناحية وأثرها ينظر التاريخ الأندلسي، ص٤٥٥-٤٥٦؛ عنـان، ينظـر: عصر المرابطين ص٤١١-٤١٢.

(٤) العبادي، المجمل، ص١٦٣-١٦٤، السامرائي، علاقات، ص٣٧١.

(٥) خليل السامرائي، علاقات، ص٢٨٨-٢٨٣، وعن هذه الفترة الحرجة ينظـر: أشـباخ، تـاريخ ٢٧٧/١؛ مؤنس، رحلة الأندلس، ص٤٠٥-٤٠٦. ويفيدنا المراكشي بوصف تـام لهـذه الفتـرة يراجع المعجب، ص٢٧٧-٢٨١.

الأرض ولو بخطى وئيدة وتحمل الموحدون هذه المرة المهمة، وهذا التبدل في الكيانات السياسية على أرض الأندلس له مدلول مهم يعبر عن إمداد الوجود الإسلامي بكل طاقة وقوة إسلامية جديدة(١)، وليس لأحد أن ينكر دور هذه القوى في استمرار بقاء الوجود الإسلامي رغم التراجع الحاد الذي اعتراه من عصر الطوائف.

٢. الانتعاش الثاني

مثلت دولة الموحدين قوة إسلامية ليست جديدة حسب إنما وفق مفهومها مجددة لتعاليم الدين ومزيلة لكل الشوائب التي لحقت به فشعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهدفها تحقيق خلافة إسلامية شاملة للعودة بالمسلمين إلى نقاوتهم الأولى، كما كان عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين، ولذلك أسهموا في إنعاش الوجود العربي الإسلامي الأندلسي واستمراره(٢).

وتجمع حركتي المرابطين والموحدين نقاط شبه كثيرة(٣)، فالحركتان نبعتا من محيط وبيئة واحدة واستندتا إلى فكرة دينية في نشأتها فالمرابطة في سبيل الله وتنقية التوحيد مما لحق به كانتا فكرتي الحركتين، كما وأن القوتين قامتا بذات الدور على الساحة الأندلسية حيث امتلكتا ذات الإحساس بالمسؤولية والحماس للدفاع عن المسلمين في أرض الأندلس، لذا يدرس العهد الموحدي كأنه ممتد في كثير من الأحيان بانسيابية واحدة مع ما سبقه. ومع هذا قضى الموحدون على المرابطين بسبب نقاط الاختلاف بينهما والتي كانت تلغي وجود أي شكل من أشكال التعاون والاندماج على شتى الأصعدة السياسية والفكرية والاجتماعية، فعلى الرغم من المرجعية الدينية للحركتين إلا أن الفكرة التي اعتنقها الموحدون تتقاطع في جوهرها ومبادئها مع الفكرة المرابطية بل هي وجدت لنقضها، فالمنظومة الفكرية الموحدية جاءت خليطاً من أفكار إسلامية مختلفة من ناحية أصولها الفكرية والمذهبية كأفكار المعتزلة التي التزم بها الموحدون وفكرة المهدي المنتظر التي قامت دعوتهم على أساسها والركون إلى الكرامات والمعجزات المرتبطة بها(٤).

---

(١) الحجي، مصدر سابق، ص٥١١.

(٢) عن الطبيعة الدينية والإسلامية لدعوة الموحدين ينظر: أبو رميلة، علاقات، ص٥.

(٣) عن أوجه الشبه والتلاقي ينظر: مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٨) ص١١٥.

(٤) أوجد هذا الخليط غير المتجانس من الأفكار نوعاً من الاضطراب لدى معتنقي دعوة الموحدين، كما إن شخص المهدي وارتباط الدعوة به كان عامل ضعف ما لبث أن أوجد معارضة من أمراء الموحدين أنفسهم، كما أنه أدى إلى حدوث تضاد بين الفقهاء كمجموعة لها ثقلها السياسي في المجتمع الموحدي وبين السلطة مما يعني تحولهم إلى ما يمكن وصفه بأنه جبهة معارضة داخلية، عن التقاطع الديني والسياسي ينظر:

هذا فضلاً عن التنافر السياسي الذي لم يك غائباً عن حيثيات الصراع الهـادف في أحد أوجهه إلى توسيع رقعة السيطرة السياسية والقضاء على الخصم المقابل، ومـن خلال النشاط العسكري الواسع الذي خاضه الموحدون تمكنوا مـن بسـط سـيطرتهم والقضاء على دولة المرابطين في المغرب ومن ثم في الأندلس، فأصبحت شبه الجزيرة الايبيرية أو ما تبقى منها ولاية موحدية ابتداء من ٥٤٠هـ[١].

اتصف الوضع الإسلامي خلال مرحلة الانتعاش الثاني بالجهاد المستمر وامتـد نشاط الموحدين العسكري على الصعيد الداخلي في معارك عديدة وواسعة ضد الفئـات الرافضة لسلطتهم وزعماء الإمارات الأندلسية المستقلة[٢] وعملوا بكل جهـدهم علـى تحقيق أندلس موحدة سياسياً وموحدة فكرياً.

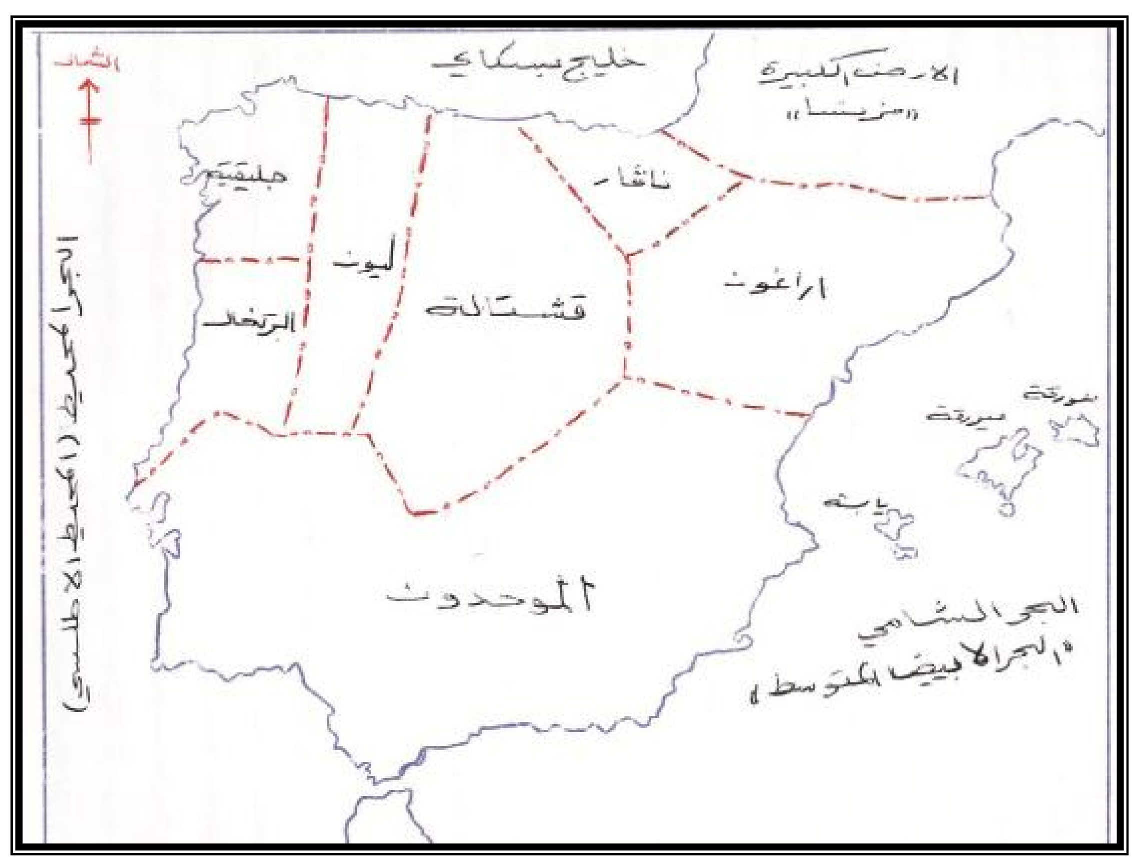
وخاض الموحدون على الصعيد الخارجي معارك شديدة ضد القوات الإسـبانية، ولابد من الإشارة إلى تزايد شدة الصراع الخارجي في هذه الفترة والذي أخذ صـورة الحملات الصليبية المنظمة السائرة بمباركة الكنيسة مما زاد من الضغط الموجه ضـد الموحدين فبمقابل الانتصارات التي حققوها كانت مرحلة التراجع الإسلامي الحاد الذي تحقق بسقوط عدد مهم من المراكز الإسلامية الكبرى والرئيسية، وإذا كان العـدو قـد

عنان، عصر المرابطين ١/ص١٥٧، وعن مآخذ المرابطين على الموحدين يتحدث ابن القطـان من وجهة نظر موحدية: نظم الجمان، ص١٠-١٢؛ وينظر في المزيج الفكري للموحـدي، أبـو رميلة، مصدر سابق، ص٥.

(١) عن موضوع إخضاع الأندلس لسيطرة الموحدين ينظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغـرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الخاص بتاريخ الموحدين) تحقيـق: ميرنـدة وآخرون (تطوان: ١٩٦٠) ص٢٢؛ المراكشي المعجب، ص٢١٠، ويؤشر أحد البـاحثين علـى عوامل إخضاع الأندلس للسيطرة الموحدية بأن الأندلس تمثل المجال الطبيعي لتوسع الموحـدين شمالاً والتناقض الجوهري مع المرابطين والرغبة في حماية الأندلس في فترة ضعف المرابطين، ينظر أبو رميلة، علاقات، ص٨٩-٩٠.

(٢) مثل هؤلاء ابن مردنيش في شرق الأندلس وبنو غانية أمراء الجزائر الشرقية وابن هـود وأبـي جميل زيان وابن نصر وتتحدث لنا المصادر كثيراً عن هذا الجانب أمثال البيان المغـرب لابـن عذاري (القسم الخاص بالموحدين) ابن الآبار، الحلـة، ج٢، أعمـال الأعـلام لابـن الخطيـب والمعجب للمراكشي.

لحقت به الهزيمة الماحقة في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ[١]، فإنه شتت القوة الإسلامية في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ[٢] وكان نذيراً ببدء الانحسار الشامل والتام.



الوضع السياسي في الأندلس (سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٧م)

المصدر: بشتاوي، الأندلسيون، ص٥٠، نقلا عن خالد: معاهدات الصلح، ص٧٤.

أصاب الضعف الموحدين بسبب الصراع الخارجي الشديد والذي استمر طويلا واستنزاف الطاقات في إنهاء حركات النزاع السياسي الداخلية وكثرة جبهات المواجهة حتى لم يعد بإمكانهم استيعاب فواصل الصدع بسبب ذلك الضعف الذي أصاب كيان الموحدين السياسي والعسكري فتراجعت دولتهم كقوة إسلامية مؤثرة في المنطقة ومن ثم سقطت وزال وجودهم السياسي.

---

(١) عن تفاصيل المعركة، المراكشي، المعجب، ص٣٥٢؛ الحجي؛ التاريخ الأندلسي، ص٤٨٤-٤٩٠.

(٢) عن موقعة العقاب: الحميري، صفة ص١٣٧؛ ابن الخطيب، الإحاطة ١/ص٣٨٣؛ المراكشي، المعجب ص٣٩٩؛ الحجي، مصدر سابق، ص٤٩٠-٤٩٧.

وأثر كل ذلك على الوجود الإسلامي في الأندلس والذي ظل يـنكمش[1] حتـى انزوى في مملكة غرناطة الصغيرة وتحت قيادة محمد بن يوسف بـن الأحمـر ٦٣٥-٦٧١هـ على أثر صراع داخلي مؤسف شهدته الأندلس وقتها من أجل السلطة الزائفـة والحكم الموهوم[2]- فتآكل الوجود الإسلامي بيد أبنائه بالإضـافة إلـى ضـغط القـوى الخارجية التي دفعت به إلى هذه الرقعة الصغيرة المحدودة. x

بات وجود المسلمين في الأندلس يعيش عقوده الأخيرة حينها وعلى الرغم مـن صمود مملكة غرناطة، حيث أضحت المسألة وقتاً قصيراً لابد له من الانتهاء مهما كان ذلك الوقت ظاهرياً وفي نظر الكثيرين طويلاً.

٣. الوجود الإسلامي في عصر الأفول والانحسار

شهد الوجود العربي الإسلامي في عصر مملكة غرناطة (الأنـدلس الصـغرى ٦٣٥-٨٩٧هـ) وفي ظل بني الأحمر آخر القرون والعقـود والسـنوات علـى أرض الأندلس، ولم يك تسلم مؤسس هذه المملكة محمد بن يوسف بن الأحمر للسـلطة شـيئاً غريباً في ظل ظروف البلاد وقتها، فهو أحد الزعماء المحليين الذين انتهـزوا فرصـة غياب سلطة مركزية موحدة لفرض سيطرته على عدة مدن أندلسية، ثم دخل في صراع مع منافسه محمد بن هود فالحق به الهزيمة، واتسعت سيطرته بعد وفاة ابن هود، ومـا أن حل عام ٦٤٧هـ حتى تسمى بأمير المسلمين[3].

وفي محاولة لإيجاد صيغة علاقة مع القوات الإسبانية عقد ابن الأحمر معاهـدة الصلح مع ملك قشتالة فرناند والثالث (عام ٦٤٣هـ) وتنازل فيها لملك قشتالة عن مدينة جيان وأحوازها فاعترف له بالطاعة ودفع مائة وخمسين ألف دينار كما وتعهد بمعاونته

---

(١) سقطت قرطبة وبلنسية وجزيرة شقر ودانية وجيان وشاطبة ومرسيه وإشبيلية عن هذه المرحلـة الخطرة ينظر: ابن الآبار، الحلة السيراء ١٢٧/٢، ٢٠٣، ٣٠٣؛ ابن الخطيب أعمـال ص٢٧٣، الإحاطة ٣٨٣/١؛ الحجي التاريخ الأندلسي ص٤٧٣-٤٧٩، ٤٨٣.

(٢) يتحدث لنا عن ذلك عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تحقيـق: محمد تاويت الطنجي (القاهرة: ١٩٥١م) ص٩-١١؛ التواتي، مأساة، ص٤٠٧.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة ٢/ص٩٤-٩٥، ٩٨-٩٩؛ أعمال ص٢٧٩، ابن عذاري (القسم الخـاص بالموحدين) ص٢٧٩، المقري، نفح الطيب ٩٧/٢.

في حروبه ضد أعداءه وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي بصفته تابعاً للملك الإسباني، وكان دور ابن الأحمر في سقوط إشبيلية ٦٤٦هـ التزاماً منه بهذا الاتفاق(١).

اتبع ابن الأحمر كل السبل والوسائل من أجل تحقيق السيطرة وبسط سلطانه على ما تبقى من أراضي الأندلس وبذلك فهو لا يختلف عن أي من زعماء الأندلس الذين ظهروا ومارسوا ذات الدور نفسه، ولكن الوقت الذي وجدت فيه مملكة غرناطة كونها آخر الممالك الإسلامية في الأندلس هو الذي أعطاه أهمية فائقة، وقد يعتذر لابن الأحمر عدد من المؤرخين والذين يرون كل ما تقدم أسلوباً دبلوماسياً ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه بأقل الخسائر، وقد يكون لذلك شيء من الصحة إلا أن المسألة تكمن كما أراها في المبدأ قبل أي شيء، فمن هانت عليه أرضه وأمته وسلّم أجزاء منها لمصيرها المؤسف وساعد عدوها على أهلها، وعمل على تفتيت الجهد والطاقة والقدرة الإسلامية في نزاعات داخلية من أجل السلطة، من فعل كل ذلك فلا يعذر في شيء مهما قيل عنه أو أنجز، ولم تك الوحدة والدبلوماسية والإنقاذ في يوم ما على حساب القيم والمبادئ الإسلامية واعتبارات الكرامة الوطنية.

- ناضل الوجد الإسلامي في هذه المملكة وجاهد كثيراً رغم النزاعات الداخلية التي اعترتها في أحيان عدة مستنزفة طاقات وقدرات ما تبقى(٢)ـ ورفع سكان غرناطة راية الجهاد(٣) متعاونين مع إخوانهم المغاربة الذين أمدوا الجهاد الأندلسي بتميز ملحوظ(٤).

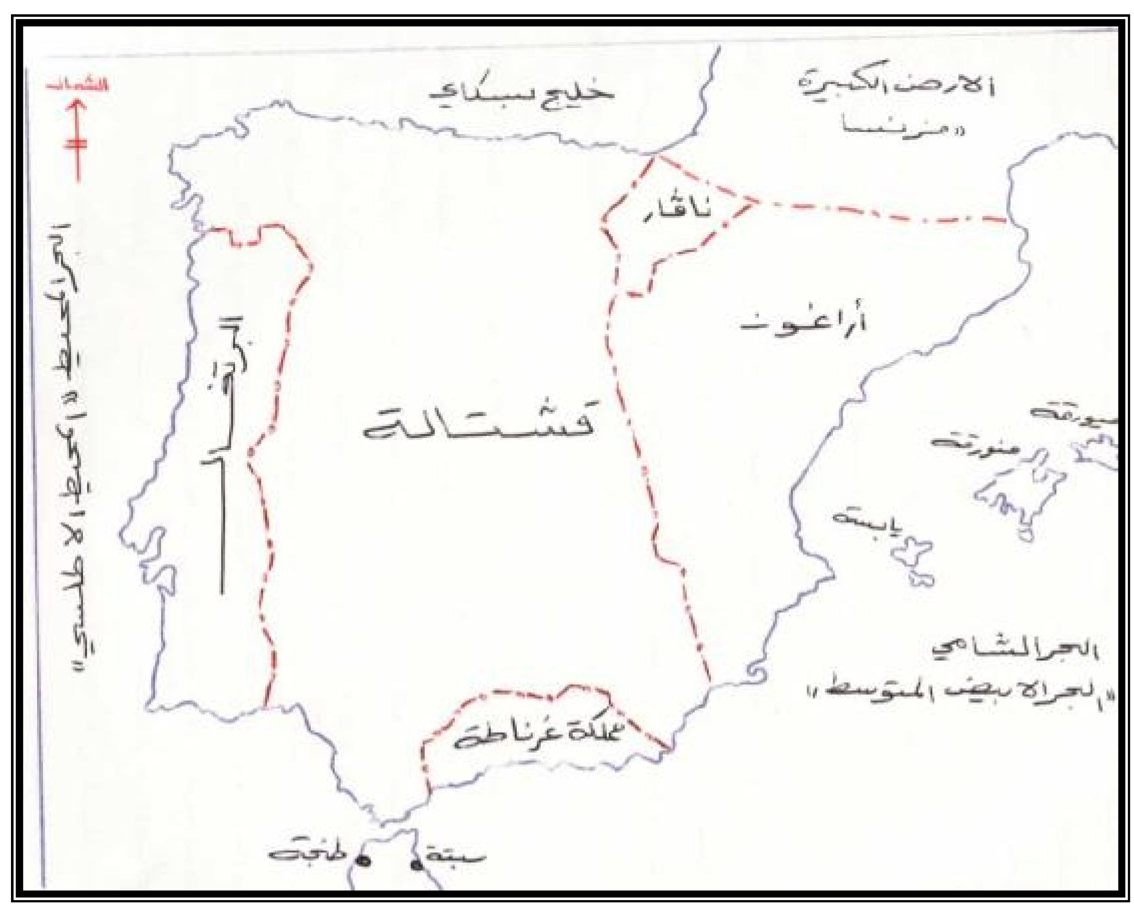
---

(١) طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٨١.

(٢) يكفي أن نشير إلى نزاع أبي عبد الله الصغير وعمه الزغل الذي قسم مملكة غرناطة وهي في الرمق الأخير، عن هذا ينظر المقري، نفح ٢٦٥/٦ وما بعدها؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ط١ (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٠) ص٦١-٦٢.

(٣) عن الجهاد في هذه الفترة ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٢٩-٥٥٩.

(٤) عن جهاد بني مرين ينظر: المقري، مصدر سابق ج٦، ص٣٨٥، ابن الخطيب، الإحاطة ١٦،٣٨/٢.



الوضع السياسي في الأندلس (نحو سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)

المصدر: بشتاوي، الأندلسيون، ص٥٠، تقلا عن خالد، معاهدات الصلح، ص٩١.

صمدت مملكة غرناطة طويلاً، ولكن ثمة عوامل عديدة دفعت بها إلى الضعف والانهيار، من بينها فقدان الدعم المريني، واتحاد مملكتي قشتالة وارغون عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م على أثر زواج فرناندو الخامس ملك ارغون وايزابيلا ملكة قشتالة[1] فتوحدت قدراتهم العسكرية وقواتهم البشرية، ووضع تبعاً لذلك مخطط محكم لإسقاط النظام السياسي الإسلامي بصورة نهائية، أخذت المواقع القليلة المتبقية بالسقوط فلم يبق سوى غرناطة التي ذاد المسلمون عنها وقاوموا ورفضوا الاستسلام بكل بسالة وإباء، حوصرت المدينة سبعة أشهر فقدت خلالها كل أمل بالمقاومة نتيجة الجوع والمرض

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٢٨؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٩٧؛ وعن أثر هذا الزواج ينظر: وات، في تاريخ أسبانية، ص١٥٩.

وأن ظلت بقايا من المقاومة تسري في نفوس بعض الأندلسيين[1]، وقعت معاهدة التسليم في عهد عبد الله الصغير سنة ٨٩٧هـ معلنة سقوط آخر المعاقل الإسلامية والانحسار النهائي للوجود الإسلامي في الأندلس.

وارتبط سقوط غرناطة بمشهد طالما ذكره المؤرخون وأكدوا عليه وهو مشهد مغادرة أبي عبد الله الصغير للمدينة ومقولة والدته:

((إبك كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال)) وليس الموقف الآن موقف المدافع عن أبي عبد الله المبرر لتصرفه ولكن هل يلقى اللوم عليه ويتحمل وحده تبعة مسؤولية الانحسار الإسلامي عن الأندلس كما يريد الكثير أن يقول ومثلما توصي بذلك الكثير من الكتابات التاريخية؟

وربما يكون أبو عبد الله ضعيفاً في موقفه انهزامياً في تصرفه لم يحافظ على ملكه كالرجال، إلا أنه كان يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الملوك والحكام الضعفاء والانهزاميين الذين ارتضوا لأنفسهم التحالف مع العدو ضد الصديق، واستنزفوا قدرات وطاقات وأموال الأندلس بمقاتلة إخوانهم، وتنازلوا عن كثير من الحصون والمعاقل بدون أي حرج بعد أن هانت عليهم أخوة العقيدة واللغة والمصير فهو وارث كل عهود الضعف قبله أما أهل غرناطة فقد أسقط في أيديهم وضاعت منهم كل الخيارات أمام أشهر الجوع والمرض والإنهاك القاسية[2].

---

(١) من هذه النماذج المصرة على المقاومة (موسى بن غسان) حيث نسجت حول بطولاته أخبار بلغ بعضها حد الأساطير، وكان رافضاً لتسليم غرناطة، واختار لنفسه المقاومة من أجل البقاء، وتذكر المصادر اختفائه بعد ذلك، عنه يتحدث فرحات، غرناطة، ص٦٣-٦٤.

(٢) يصف المقري الظروف التي واجهها أهل غرناطة قائلاً: ((ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار على المسلمين غير أن النصارى على بعد والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الحال وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة وطمع في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ففر ناس كثيرون من الجوع كالبشرات ثم اشتد الأمر في صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب.. فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين)) نفح الطيب، ٦/ص٢٧٥-٢٧٦. =

وحركة التاريخ لا تلقي باللوم عادة على من قاوم ورفض ولكنه لم يستطع الاستمرار ولكن التساؤل هنا عن موقع الزعامات الكثيرة والهزيلة من حركة التاريخ وهي تضعف أمر الأندلس بنزاعاتها وانقسامها وتسليمها للمدن طواعية مقابل تحقيق رغبة السيطرة والانتشار بالسلطة، وأعلنت بمحض إرادتها منذ وقت بعيد التراجع والانحسار الإسلامي عن الأندلس وقبل أن يوقع أبو عبد الله الصغير وثيقة التسليم الأخيرة عام ٨٩٧هـ.

=وفي تحديد مواقع المسؤولية في جريمة ضياع الأندلس-الأرض والدولة والإنسان والحضارة والتاريخ ينظر:

الذنون، آفاق غرناطة، ص١٢-١٣.

وبين ايدينا كتاب (آخر أيام غرناطة) لمؤلف مجهول يمثل تأليف سجله شاهد عيان شارك في بعض المعارك الأخيرة ويعد وثيقة تاريخية حية لنضال العرب المسلمين في الأندلس والذي كان (نضال المستميت).

ينظر الكتاب: تحقيق: محمد رمضان الداية، ط١ (دمشق: دار حسان) ١٩٨٤.



الفصل الثاني
إشكالية العائق الجغرافي
الأرض تقاتل عن أهلها

المبحث الأول
الجغرافية وتوقف الامتداد

ترتبط الجغرافية (المكان) بالتاريخ (الحدث) وبالإنسان (أداة الفعل) ارتباطاً عضوياً إذ ثمة علاقة متبادلة ومؤثرة بين التاريخ والجغرافية فالفعل التاريخي يستمد بعض مقوماته من مكان حدوثه ويرتبط بمجريات الأحداث إقليمياً[1] وأي إنجاز أو نشاط أو فعل لا يمكن له الانفصال عن جذور البيئة التي يتحقق فيها، ولم يك الإنسان المسلم الأندلسي وهو يتوغل بعيداً في عمق الأراضي الأوربية ويمارس فعله التاريخي بمنأى عن تأثير العامل الجغرافي والبيئة عليه.

كما أن أي عمل عسكري هو في أساسه حصيلة مجموعة عوامل معقدة ترتبط بأماكن معينة لها أهميتها وتأثيرها، وليس بالإمكان الفصل بين العمليات العسكرية وظروف البيئة طبيعية كانت أم بشرية ولعل نجاح أو فشل هذه العمليات يعتمد إلى حد كبير على درجة المرونة التي تتكيف فيها فنون القتال تبعاً للظروف الجغرافية، ولذلك فإن تحليل الظروف الجغرافية المحيطة وطبيعة تكوين الأرض يعد أمراً أساسياً لتبيان العوامل التي ساعدت أو حدت من حركة الجيش[2].

نستعرض في هذا المبحث العلاقة بين العامل الجغرافي وتوقف الامتداد في أوروبا حيث ظهرت الجغرافية عائقاً صعباً ساهم بشكل فعال في تقرير نتائج العديد من المعارك التي ترتبت على جهود المسلمين للتقدم.

وقد ظهر أثر الجغرافية في جانبين مهمين من جوانب بيئة العمليات العسكرية وهما: قسوة المناخ ووعورة المكان، حيث قيد هذان العاملان المقاتل المسلم الذي وجد

---

(١) علي المياح: "الصلة بين التاريخ والجغرافية" مجلة كلية الآداب، العدد ٥٣ (بغداد: ٢٠٠١م) عدد خاص بندوة حوار في التاريخ والحضارة) ص١٧.

(٢) علي المياح: ((العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا)) مجلة الجمعية الجغرافية العراقية) م٥، (بغداد: ١٩٦٩)، ص١٠٢-١٠٣.

نفسه مجبراً على مزاولة نشاطه الجهادي في أشهر معينة (قيد زماني) واختيار ساحات قتال معينة تتوافق وطبيعة قتاله والبيئة التي ينتمي إليها (قيد مكاني).

تقاطع هذا الأمر مع فنون العرب المسلمين العسكرية[٣] التي قامت على مبـدأي الهجوم غير المباشر والحركة السريعة المعتمدة على كتائـب الفرسـان[٤] ولـم يكـن باستطاعة الجيش المسلم تطبيق أسلوب الهجوم غير المباشر ما لم تتمتع جيوشهم بقابلية سريعة للحركة وهو ما حرمته الجغرافية منه في الوقت الذي كان اعتماد جيش الآخـر على المشاة، أكثر من اعتماده على الفرسان[٥]، وكانت قابلية الحركة بالنسبة له ضعيفة ويزداد هذا الضعف عندما يتسع ميدان المعركة وتمتد جبهة القتال وتتعدد طرق الحركة.

حرمت البيئة بما فرضته من قيد زماني ومكاني المقاتل المسلم مـن ممارسـة فنونه القتالية في حين وفرت للطرف المقابل ظروفاً سانحة للقتال وفق طريقتـه وبمـا يتلاءم مع إمكاناته المادية والمعنوية فضلاً عن طرقه القتالية[٦].

وواجه العرب المسلمون الضغط الذي مارسته البيئة عليهم من أولـى لحظـات عبورهم إلى الأندلس وبداية النشاط الامتدادي نحو أراضي القارة الأوربية[٧] وحـاولوا مرات عديدة خرق هذه القاعدة وتجاوز العائق الزماني من خلال خوض معارك أشبه ما تكون بالمجازفة الخطرة في فصل الشتاء، والمكاني من خلال اختراق المناطق الجبليـة الوعرة ومحاولة تذليل صعوباتها، ورغم كل الجهود ظل العائق الجغرافي هو الأقوى، ومما زاد من تأثيره أن العرب في الأندلس لم يطوروا الفن العسكري ليتلائم ويتكيف مع الظرف الجغرافي، بينما في المشرق نجد الصورة مختلفة حيث تطورت فنون العـرب القتالية لتلاءم متغيرات الزمان والمكان ولذلك بقي الجيش العربـي الأندلسـي يواجـه

---

(٣) يخصص علي المياح صفحات عدة لتبيان فنون العرب العسكرية ويحاول ربطها بنتائج عمليـات الامتداد الإسلامي فيما وراء البرت، ينظر: العوامل السوقية، ص١٠٧-١١٢.

(٤) يتساوى في ذلك العرب والبربر الذين قالوا للعرب زمن الداخل (إنا لا نحسن الحرب إلا فرسـاناً فاحملوا ما بقي منا على الخيل) ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٥٦.

(٥) لم يولي الآخر: اهتماماً بالخيل التي كانت مقتصرة على الطبقة الحاكمة وهي كما يقول المقـري (ضخمة الأجسام حصون للقتال لحملها الدروع ثقال السلاح) نفح الطيب، ص١٨٥.

(٦) المياح، ص١١٢.

(٧) أخبار مجموعة، ص١٥-١٦، طه وآخرون، ص٣٦.

مصاعب البيئة والمناخ دون محاولة التكيف والتلاؤم معها وظلت محاولات اختراق تلك المصاعب مجازفات متكررة لا تأت بنتيجة إيجابية ملموسة.

يعود تعثر الخطوات العربية الإسلامية فيما وراء البرت إلى حد كبير لتأثير الجغرافية القاسية، فقد تقاطعت الأراضي الواقعة خلف البرت الذي هو حاجز صعب قائم بذاته[٨] مع المقاتل العربي المسلم، ونلمس الأثر الجغرافي في ثلاث مواجهات أساسية وحاسمة في قليل أو كثير على مسارها ونتائجها:

جرت المواجهة الأولى عند مدينة طولوشة Toulouse حيث حاول السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ) أن يفتحها بعد فتح أربونة وطرسكونه[٩]، وبدأ باجتياز فواصل الأرض الكبيرة[١٠] الواحدة تلو الآخرى، وللمدينة أهمية ستراتيجية كبيرة من خلال موقعها عند مداخل ممرات جبال البرت مما له أهمية سوقية كبيرة ويهدد الثغور الأندلسية إن وقعت تحت سيطرة العدو[١١].

---

(٨) عن طبيعة جبال ألبرت وتكويناتها وأثر ذلك في صعوبة التوغل العربي الإسلامي إلى ما ورائها ينظر:

أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن الحجي (بيروت: دار الإرشاد، ١٩٦٨) ص٨٥؛ أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٥) ج٥، ص٢١٢؛ محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ط٤ (القاهرة، مؤسسة الخانجي، ١٩٦٢) ص٧٨؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١١٧-١٢٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٩٦-٩٨.

(٩) تمثل حملة السمح بن مالك أولى الجهود المنظمة لفتح ما وراء البرت وكانت إجراءتها تعكس طبيعة الحملة وأهميتها من خلال تحصين المدن المفتوحة وترك الحاميات فيها عنها نجد إشارات فحسب في مصادرنا الإسلامية مثل: ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٢٦؛ المقري، نفح الطيب ١/ص٢٣٥ بل أن مؤلف أخبار مجموعة يذكر أن والي أفريقية بشر بن صفوان عزل السمح عن ولاية الأندلس وولى عنبسة ولم يذكر استشهاده، السامرائي الثغر الأعلى، ص١٢٧، عنان، دولة ١/٧٩-٨٠.

(١٠) مصطلح الأرض الكبيرة مصطلح جغرافي أندلسي يطلق على الأرض الواقعة ما وراء جبال البرت وتشمل المنطقة خلف هذه الجبال حتى القسطنطينية ويعني أوروبا، ينظر لذلك: البكري، جغرافية الأندلس، ص٦٧ (هـ ١)؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١١٧ هـ (١).

(١١) المياح، العوامل، ص١٢٤ بتصرف.

تؤكد المصادر التاريخية توقف مسيرة السمح بالقرب من هـذه المدينـة سـنة (١٠٢هـ) [١٢] حيث استشهد ولما يتم فتح هذه المدينة المهمة، وحين نبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذا الإخفاق المبكر نجد أن طبيعة المدينة كانت حائلاً دون تحقيق النجاح في فتحها فهي تمتاز بحصانتها إذ تقع على هضبة قليلة الارتفـاع تطـل علـى نهـر الجارون من ضفته اليمنى حيث يجري النهر في وادٍ عميق لا يسهل عبوره مما أفسـح المجال أمام سكانها للمقاومة محتمين بحصونها فلم يجد السمح إزاء ذلك ملجأ له سـوى استخدام أسلوب الحصار ومحاولة افتتاحها بالقوة، ويبدو أن دخوله إلى هـذه المنـاطق لأول مرة كان يؤثر في عدم امتلاكه معرفة مسبقة مما حـال دون اسـتغلال ظـروف الموقع ولم يترك أمامه خيار سوى محاصرته وهو أسـلوب معـروف عنـد الجـيش الإسلامي[١٣].

أحاط المسلمون المدينة بالخنادق والمنجنيقات وسـائر أدوات الحصـار إلا أن مناعة المدينة ساهمت في صمودها رغم سوء أوضاع أهلها حتى وصل المقاومين مدد كبير من قبل الدوق أودو Eudo دوق اكيتانية[١٤] الذي ما أن سمع بهذا الحصار حتـى سار نحو المدينة واشتبك مع الجيش العربي الإسلامي في معركة شديدة أسـفرت عـن هزيمة جيش السمح الذي استشهد مع عدد كبيـر مـن المسـلمين يـوم عرفـة سـنة ١٠٢هـ/١٠ حزيران ٧٢١م[١٥]، وبعد المعركة تمكن القائد عبد الرحمن الغافقي مـن

---

(١٢) يؤكد باحث معاصر في ميدان الجغرافية على حصانة موقع طولوشة تميـزه بحمايـة دفاعيـة ينظر: محمد سامي عسل: أوروبا (دراسة في جغرافية القارة الطبيعية البشرية) (القاهرة: مكتبـة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥) ص٢٥٨.

(١٣) يذهب بعض الباحثين كذلك إلى اعتبار الحملة ذات صفة دفاعية وليسـت هجوميـة وغايتهـا السيطرة على مواقع سوقية مهمة عند خط الدفاع الأمامي لمواطن المسلمين الجديـدة، الميـاح، مصدر سابق، ص١١٥.

(١٤) وكان دور هذه الإمدادات فعالاً دون شك في إنهاء المعركة لصـالحهم إلـى جانـب العامـل الجغرافي، عن أثر الإمدادات العسكرية لدوق اكيتانية ينظر: السامرائي الثغر الأعلى، ص١٢٧؛ طه وأخرون، تاريخ العرب، ص٤٧؛ وحول مقارنة الروايات المختلفة ينظر: الحجـي، التـاريخ الأندلسي، ص١٨٥-١٨٧.

(١٥) السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٢٧؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٤٧.

جمع شتات الجيش[١٦] وعاد به إلى أربونة[١٧] التي مثلت القاعدة العسكرية الإسلامية هناك.

وتمثلت المواجهة الثانية فيما وراء البرت بحملة عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣-١٠٧هـ) التي انتهت عند بلدة سانس sens سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م. وكان عنبسة قد وجه اهتمامه الكبير للفتوح فيما وراء البرت[١٨] بعد أن تمكن من تهدئة البلاد وإنهاء حالة الاضطراب الداخلي التي عانت منها وقتذاك[١٩].

قاد الوالي عنبسة الجيش الإسلامي على وفق مسيرة القادة السابقين انطلاقاً من قاعدة برشلونة وعبر ممر بارينيان واستقر في القاعدة الثانية (أربونة) وعمل على تدعيم خط الدفاع أمامها كي يتسنى له فتح المناطق المجاورة.

---

(١٦) جوزيف رينو، تاريخ العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتسط، ترجمه وعلق عليه شكيب ارسلان (بيروت: دار ومكتبة الحياة، ١٩٦٦) ص٩٦.

(١٧) تكتسب أربونة أهمية خاصة بالنسبة للقادة العرب في الأندلس الذي وضعوا نصب أعينهم حماية الثغور الأندلسية فهي تمتعت بموقع سوقي ستراتيجي، ولذلك عمد السمح بن مالك إلى تحصينها وتزويدها بالمؤن، وقد كان اختياره إياها لتكون قاعدة عسكرية لفتوحاته موفقاً وللعامل الجغرافي دور كبير في ذلك من خلال:

أ- قربها من البحر مما يجعلها قاعدة برية مهمة للمسلمين يتلقون الإمدادات عبر الأساطيل بدلاً من اجتياز جبال البرت المليئة بالمخاطر والممرات الضيقة فضلاً عن التخلص من القبائل المنتشرة هناك ولا عمل لها سوى السلب والنهب.

ب- يتميز مناخ أربونة بأنه يشبه مناخ مدن العالم الإسلامي وخاصة مدن بلاد المغرب والأندلس وبالتالي فهي تصلح أن تكون قاعدة عسكرية للمسلمين تنطلق منها الجيوش لفتح بقية المدن الفرنسية واستمرت لذلك تقوم بدورها الفعال حتى سقوطها النهائي بيد القوات الفرنسية سنة ١٤١هـ/٧٥٩م في عصر الإمارة الأموية؛ عن أهمية أربونة وموقعها ينظر: المياح، العوامل، ص١١٣-١١٤؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٢٦؛ رينو، غزوات، ص٦٤-٦٥، ٨٦؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٤٧-٤٨.

(١٨) امتاز عنبسة بحماس كبير للفتوح والسير في طريق أسلافه، وكان يرمي للحفاظ على منطقة غالة وحماية خطوط مواصلات العرب مع أربونة ولذلك سارع في الخروج لحملته، ينظر: عن موضوع حماس عنبسة، طه وآخرون، مصدر سابق، ص٤٨.

(١٩) يؤكد ابن عذاري أن عنبسة انفق حوالي سنتين قبل خروجه للجهاد في رعاية شؤون الأندلس بنفسه ووجه كذلك جهوده للقضاء على التمرد في جليقية، ينظر: البيان المغرب ٢/ص٢٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص١٩١.

توجه عنبسة نحو قرقشونة كما فعل من قبل السمح بن مالك وفتحها عنوة إلا أنه لم يواصل السير في ذات الاتجاه داخل الأراضي الفرنسية نحو طولوشة ولعله حاول تجنب مصير سلفه القائد السمح الذي استشهد وهو يحاول اقتحامها[٢٠]، ولذلك سار إلى الشرق من اتجاه سلفه مع ساحل البحر حتى وصل إلى نهر الرون، فاستولى على مدينة نيم Nimes دون مقاومة وأخذ من أهلها رهائن نقلهم إلى برشلونة، ثم انساحت القوات الإسلامية بعد ذلك دون أي مقاومة ابتداء من مدينة نيم فتوغل عنبسة في إقليم برغندية Bargundia وتم فتح مدينة اوتون Autun، ثم مدن اوزة Uzes وشالون chalon ومن هناك تفرعت الحملة إلى فرعين سار الأول إلى ديجون Dijon وبيزة beza ولانجر Langres، واتجه الثاني إلى حد اوتون Autun مرة أخرى، ولكن هذا التقدم السريع توقف بالقرب من بلدة سانس Sens على بعد ثلاثين كيلو متر إلى الجنوب الشرقي من باريس[٢١].

---

(٢٠) ألا يبدو من الغريب أن الرواية التاريخية المتداولة تربط أحداث الامتداد وأسباب بعض توجهاته بالدوق أودو حاكم اكيتانية فهي تشير إلى أن عنبسة لم يستمر بالاتجاه إلى طولوشة في مقاطعة اكيتانية بل عدل إلى إقليم بروفانس وبرغندية لأن علاقات صداقة قامت بين المسلمين وبين الدوق أودو الذي كان في ذلك الوقت يخشى بأس الدولة الميروفنجية وحاجب ملوكها شارل مارتل صاحب الأمر في هذه الدولة آنذاك، وكان هذا الأخير ينفس على الدوق مكانته ويتمنى إزالته عن ولاية اكيتانية، كما إن قصة منوسة مع الدوق نفسه ترتبط بهذه الرواية.

ثم نجد أنه وبعد سنوات قليلة تتوجه حملة الغافقي – كما سنعرض لاحقاً – نحو بوردو عاصمة اكيتانتية ذاتها وعند هزيمة الدوق حين حاول أن يوقف الجيش عبثا وخاض معركة خاسرة وانسحب إلى الشمال استنجد بشارل مارتل حاجب الدولة الميروفنجية ذاته وطلب مصالحته ضد المسلمين وقد أدرك شارل الخطر فاستجاب إلى طلبه.

والدوق أودو نفسه مر بنا في حملة السمح فهو حين سمع بحصاره لطولوشة سار مسرعاً لصده في المعركة التي أسفرت عن استشهاد السمح والكثير من رجاله) عن هذا ينظر: رينو، غزوات، ص٦٤، ٨٨، ٩٧-٩٨؛ حسين مؤنس، فجر الأندلس (القاهرة: ١٩٥٩)، ص٢٥٣؛ طه وآخرون، تاريخ العرب ص٥٠-٥٤.

(٢١) عن مسيرة حملة عنبسة هذه يراجع، مؤنس، مصدر ستبق، ص٢٤٦-٢٤٧؛ طه وآخرون مصدر سابق، ص٤٨-٤٩/ سالم، تاريخ المسلمين، ص١٣٩، السامرائي، الثغر، ص١٢٨-١٣٠؛ ١/ص٨٠. وعن مواقع المدن أعلاه تنظر الخارطة المثبتة ضمن هذا المبحث.

تعزو المصادر التاريخية سبب توقف الحملة إلى تصدي أسقف مدينة سانس المدعو ايبون Ebbin عندما سمع باتجاهها صوب مدينته، فبدأ بتحصينها وهيأ أسباب الدفاع عنها مما ساعده على صد القوات العربية وإيقافها[٢٢]، ومن أجل تدقيق هذه الرواية يجب علينا معرفة طاقات وقدرات مدينة سانس العسكرية وغيرها والتي تمكنت من إيقاف العرب المسلمين بهذه القوة، ونلمس من متابعة ذلك عدم قدرة المدينة على امتلاك قدرات تصد جيشاً قوياً وكبيراً أجتاح دلتا ووادي رودونة والسأون بسهولة مع ما يعرف عن غنى هذه المناطق وكثرة سكانها، والمدينة في حاضر يومها لا تعدو أن تكون مدينة سوق Market - City للمنطقة الريفية التي تحيط بها، وتدفعنا محدودية قدرات المدينة إلى إعادة النظر فيما هو مطروح من أسباب وعوامل[٢٣].

وتضعنا متابعة ظروف البيئة المحيطة بالجيش العربي الإسلامي أمام عوامل أخرى أدت إلى هذا التوقف[٢٤]، فتحليل منطقة العمليات يكشف لنا أن خط تقدم قوات المسلمين كان بمحاذاة نهريون حيث يمر الطريق الذي يربط بين اوتون وسانس، ويقطع النهر في هذه المنطقة حافات جيرية تنحدر انحداراً شديداً نحو الجنوب مكونة سلاسل بارزة، ويتسم واديه بالضيق والعمق حيث ينحدر انحداراً فجائياً إلى الجنوب حيث تغطي أشجار الغابة جوانبه.

شلت طبيعة هذا الوادي الوعرة، والصعوبة في تكوينات المنطقة قابلية قطعات الجيش وضيعت عليه براعته في المناورة، ولم يفسح ضيق الجبهة المجال إلا لعدد قليل من الجيش بمجابهة حصون المدينة من جهة واحدة، إذ تحمي بقية جبهاتها مثل هذه الأودية.

جعل كل هذا بقاء الجيش العربي في هذه المنطقة عرضة للإبادة إذا تهيأت للعدو فرصة الإيقاع به، ولذلك قرر عنبسة بن سحيم العودة عن هذه المدينة، وحدث ما كان متوقعاً إذ تعرض لهجوم كبير من الفرنج وهو في طريق رجوعه فاستشهد نتيجة للمعركة التي حدثت بين الطرفين في شعبان ١٠٧هـ/٧٢٥م[٢٥].

---

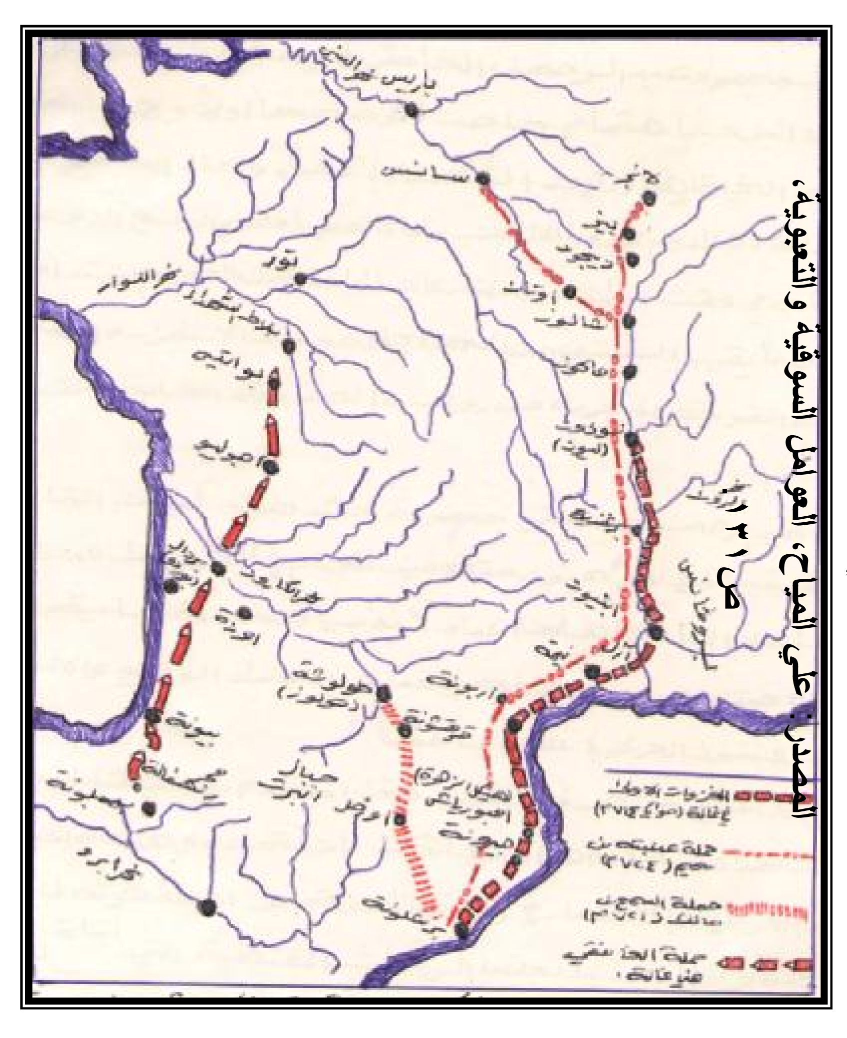
(٢٢) رينو غزوات العرب، ص١٠٦.

(٢٣) المياح، العوامل السوقية، ص١١٦.

(٢٤) المياح، الغوامل السوقية، ص١١٦ (بتصرف بسيط).

(٢٥) يذكر المقري وفاة عنبسة شهيداً في حين أن ابن عذاري (البيان المغرب ٢/ص١٢٧) يذكر وفاته دون استشهاده، عن هذه المعركة ونتائجها وآثارها ينظر: السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٣٠، طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٤٩؛ سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧، ص١٤٦؛ مؤنس، فجر، ص٢٥٤.

أن هذا التوغل البعيد عن المناطق الإسلامية[٢٦] دون تقدير العواقب أو دون دراسة شاملة تأخذ جميع حساباتها وفي مقدمتها طبيعة المنطقة الجغرافية، جعل الجيش العربي المسلم يجابه خيارات صعبة ويطأ مناطق يحتاج فتحها إلى دراسة متعمقة للإفادة من تكوينها لصالح الأهداف الإسلامية.



محاور الحركة التي اتبعتها الجيوش العربية الإسلامية في فتوحات فرنسا

المصدر: علي الصباغ، العوامل السوقية والتعبوية، ص٣١١

---

(٢٦) يتحدث مؤنس عن حملة عنبسة بأنها لم تكن حملة الفتح المنظم الثابت ولا الاستقرار في هذا المدى، إنما حملة بعيدة تستهدف دراسة البيئة الجديدة التي تجاور إقليم سبتمانية وأشعار الأعداء بقوة المسلمين.

والدليل على هذا أنه لم يضع الحاميات إلا في بعض المدن التي افتتحها ولو أنه استقر في ليون مثلا أو أحد مراكز غالة الوسطى لأمكننا القول انه فتح جنوبي غالة ووسطها أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة:

عن هذا الرأي ينظر: فجر الأندلس، ص٢٤٨؛ وفي محاولة لاستكمال الصورة عن جهود عنبسة ينظر:

صفاء خلوصي: "عنبسة قاهر وفاتح فرنسا" مجلة العربي، ع ١٤٠ (الكويت: ١٩٧٠). ص٢٩.

- **بلاط الشهداء: الصد الأوربي والعائق الجغرافي**

تحظى جهود عبد الرحمن الغافقي في ولايته الثانية (١١٢-١١٤هـ) فيما وراء البرت باهتمام خاص لتوجهها أولاً ولارتباطها بالموقعة الشهيرة التي قادها (بلاط الشهداء) ثانياً، وكان الغافقي من طراز الفاتحين الأوائل والقادة الذين تميزوا إلى جانب شجاعتهم بأفقهم الواسع الذي غدت الأندلس بحاجة إلى أصحابه في وقت بدأت فيه المنازعات الداخلية تظهر ويشتد أوارها شيئاً فشيئاً لذا تمكن بعدما يقرب السنتين من الجهد إيجاد جو من الاستقرار والهدوء وذلك بتأثير شخصيته القوية المتحررة من رواسب العصبية القبلية وشدة إيمانه وحسن سيرته(٢٧).

كرس عبد الرحمن الغافقي جهوده لحشد جيش كبير من المقاتلين واستنجد بأمير إفريقية الذي أمده بجنود متلهفين للجهاد فكان بذلك مدركاً لأبعاد السوق العامة بإعداد البلاد وأهلها إعداداً نفسياً كخطوة أساسية تكفل له نجاح مهمته الامتدادية وحدد هدفه في تحقيق الامتداد الواسع والاستقرار الإسلامي وتثبيت النفوذ العربي في تلك المناطق(٢٨).

تقدم الغافقي نحو هدفه المحدد حتى اصطدم بقوات شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء سنة (١١٤هـ) والتي انتهت باستشهاده وهزيمة الجيش العربي وتتسم الرواية العربية بالاختصار في روايتها للمعركة بل أن ما ذكرته كان معلومات غامضة أو خاطئة(٢٩) وإذا استثنينا بعض الروايات المقتضبة التي أشارت للمعركة والتي كتبت في وقت متأخر فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً في هذا الصمت والتحفظ.

---

(٢٧) عن شخصية الغافقي ينظر: أحمد بن يحيى الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (مجريط: ١٨٨٢) طبع بالأوفسيت (بغداد: مكتبة المثنى/ القاهرة: مكتبة الخانجي) رقم ١٠٢١؛ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الآبياري، ط (القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩)، ص٢٧٤؛ ابن الفرضي، تاريخ علماء، ص٢٥٦؛ ابن عبد الحكم، تاريخ، ص٢١٦-٢١٧؛ رينو، غزوات، ص٩٧، الخفاجي، الدولة، ص٤٢-٤٣، ٥٤-٥٦، بيضون، تاريخ الدولة، ص١٥٣.

(٢٨) المياح، العوامل السوقية، ص١١٧.

(٢٩) عن المعلومات في مصادرنا القديمة ينظر: مجهول، أخبار، مجموعة، ص٢٤-٢٥، ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص٩٢-٩٣؛ ابن الاثير، التاريخ، ص٥١؛ ابن عذاري البيان، ٢/ص٢٨، الحميري، ص٤٧٥، ابن الفرضي، ص٢٥٦، بل أن ابن خلدون يجعل محمد بن عبيد الله بن الحبحاب قائدا للمعركة (العبر ٢٥٨/٢/٤) وفي هذا خطأ بين لأنه كان عامل مصر ولم يندب لولاية أفريقية إلا سنة ١١٦ ولم يل هو وولده الأندلس، ينظر عنان، دولة ١/ص٥٠١ هـ (٢).

وتقف عوامل نفسية معنوية شديدة التأثير وراء ذلك(٣٠)، فقد أظهرت هذه المسألة معرفة العديد من المؤرخين لقيمة المعركة التي كانت تسميتها (بلاط الشهداء) بحد ذاتها تعبر عن تقدير المؤرخين العرب خطورة هذا اللقاء بالنسبة للامتداد العربي الإسلامي عند هذه البقعة من الأرض الأوربية.

واختلفت نظرة المحدثين لهذه الموقعة وكانت آراؤهم عنها متباينة ومختلفة وحاول الكثير التقليل من أهميتها ومن أثرها حيث اعتبروها نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي محفوف بالمخاطر(٣١)، وأنها وضعت الحد الواقعي لتوجهات حماسية أكثر منها واقعية(٣٢)، وعند جانب آخر تمثل المعركة أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية وأقصى توغل عربي في أراضي أوروبا(٣٣).

---

(٣٠) عنان، دولة الإسلام، ص١٠٤.

(٣١) العبادي، من تاريخ، ص٨٥، ويضيف: إن العمليات العسكرية وراء البرت مجرد غارات انتحارية أو فدائية بدليل أنهم توغلوا في قلب البلاد وبدافع الحماس الديني دون أن يعملوا حساباً لحالة التقهقر)).

(٣٢) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٦٨، ص٢٢٧-٢٢٨؛ ويرى لاندوفي توقف الامتداد عند بلاط الشهداء أقصى صوره الطبيعة، ينظر الإسلام والعرب، ص١٧٣.

(٣٣) عنان، دولة الإسلام، ص١٠٩؛ التواتي، مأساة، ص١٤١، عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨) ص٤٨، ويرى بيضون أن المعركة أنقذت أوروبا من خطر الإسلام!! تاريخ الدولة ص١٥٥.

ويربط سيد أمير علي بين أهمية المعركة وقائدها، فالغافقي القائد الوحيد الذي استطاع توحيد المضريين والحميريين فاستشهاده كان خسارة لا تعوض ذلك لأنه لم يستطع أحد من بعده أحداث التأثير نفسه، في هذا المجال ويكون له النفوذ الذي كان للغافقي) مختصر تاريخ ص١٥١ هـ (١).

وعاد المسلمون في الحقيقة إلى الغزو في جنوب فرنسا واجتياح المناطق الواقعة على الناحية الأخرى من جبال البرنييه إلا أن هذه العودة كانت موقوتة وأثرها باهتاً في إمكان تثبيت إقدام المسلمين في تلك الجهات ومتابعة نشاطهم فيها/ ينظر عن هذا:

محمد محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي (د. م/ مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨١)، ص١٣٥.

شكلت بلاط الشهداء ذروة التقدم الإسلامي من جهة، وصداً حقيقياً وقوياً من جهة ثانية، ومثلت نقطة توقف بدأت على أثرها القوة الإسلامية بالتراجع عن أراضي فرنسا لتتراجع بها السيادة العربية شيئاً فشيئاً وتتكمش في بلاد الأندلس وترتد ما وراء البرنييه فعلياً، فكان من أبرز أثار ذلك تبني دولة الفرنج على عهد (ببين القصير) سياسة جديدة ترمي إلى تعضيد روح الثورة والفتنة في إسبانيا المسلمة ذاتها تهيئة للانقضاض عليها وطرد المسلمين منها بعد انهيار سيادتهم في جنوب فرنسا فأصبح بالإمكان إحداث ذلك أيضاً في إسبانيا(٣٤).

ويكثر الحديث عن افتراضات النصر وأثر الهزيمة في بلاط الشهداء، ففي الأدبيات المختلفة كلام كثير عن الفرصة التي ضاعت على الإسلام لأن الفتح لم يطل سائر غالة إذ ذاك وإلا لكانت أوروبا كلها تدين بالإسلام والقرآن والسنة يدرسان في جامعات أوروبا ومعاهدها(٣٥).

وقبل الدخول في تعليل نتيجة معركة بلاط الشهداء لابد لنا من الإلمام ولو قليلاً بتفاصيلها اعتماداً على المصادر المسيحية نظراً لندرة المعلومات عنها في مصادرنا الإسلامية متجاوزين التفاصيل والمبالغات وصور التحامل على الوجود الإسلامي مما يلمس جلياً من خلال تلك الروايات.

---

(٣٤) محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط١ (تونس: دار الكتب الشرقية، ١٩٥٤) ص١٣٧؛ الشيخ، دولة، ص١٣٥؛ بيضون، تاريخ الدولة، ص٩٣، مختار العبادي، في تاريخ المغرب، ص٨٥-٨٦.

(٣٥) هل هذا صحيح؟! ربما، لا أحد يستطيع أن يجزم، الإجابة عن هذا السؤال ليس من اختصاص المؤرخ الذي يدرس الماضي كما حدث لا كما هو مفترض، والحديث عن بلاط الشهداء مرتبط بصورة دائمة بهذا الجانب حيث يستعرض أقوال بعض الأوربيين الذين اعتبروا المعركة ونتائجها إنقاذا للنصرانية من خطر الإسلام وحفاظا على الحضارة القديمة، وهناك رغم ذلك عدد من المنصفين اعتبروا النتيجة هذه خسارة ونكبة كبيرة حرمت أوربا من الحضارة وقتا طويلا، وحتى لو انتصر المسلمون –يعلق فشر- لظل بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام عقبات دونها عقبات مادية وجغرافية وبشرية، عن هذه الآراء ينظر: هربرت فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني (القاهرة: ١٩٦٦) ص٦٨-٦٩، ص٧٨؛ عنان، دولة الإسلام، ١/ص١٠٧-١٠٩، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٠١-٢٠٢؛ ويفيدنا في ذلك: أحمد إبراهيم الشعراوي: الأمويون أمراء الأندلس الأول (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٩) ص٢٦، شيتاوي، الأمة الأندلسية، ص٦٢، هـ (١).

تجمع الغافقي (سنة ١١٤هـ) أولاً في مدينة بنبلونة قاعدة البشكنس ثم عبر جبال البرت من ممرات رونشفالة Rehgesvalles فلم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية بل سلك طريقاً في وسط الجبال يؤدي مباشرة إلى قلب دوقية اكيتانيـة[٣٦] فخالف بذلك أسلافه، وكان هذا الطريق يحقق له النجاح في الوصول إلى مدينة باريس ماراً بأراضي تعد سهلة وميسورة فلا توجد الأودية الضيقة والحافات شديدة الانحـدار التي أوقفت زحف عنبسة الكلبي من قبل، وقد يكون الغافقي متوقعاً عدم قدرة العدو على ملاقاته إلا وقد وطأت أقدام جيشه سهل باريس فيتسع ميدان القتال وقتها أو يطبق فنون المباغتة المعروفة ويشغل قابلية الجيش للحركة والـردود السـريعة لإحـراز النصـر النهائي[٣٧].

سار عبد الرحمن الغافقي شمالاً ودحر قوات اودو دوق اكيتانية سنة (١١٤هـ) ودخل مدينة برديل (بوردو) ثم توجه الجيش بعدها إلى مدينة تـور tour[٣٨]، وحـين أدرك دوق اكيتانية عجزه عن صد المسلمين بعد هزيمته استنجد بشارل مارتل (قارلة) متناسياً ما بينهما من أحقاد أضغان فاستجاب له لدوافع عدة[٣٩].

جمع شارل مارتل المقاتلة من سائر أنحاء فرنسا وحدود الراين في جيش بـدت عليه الصبغة الصليبية، وكان اللقاء بين تور Touras وبواتييه foltiers بـالقرب مـن موضع يطلق عليه اليوم (موسيه لاباتاي) وذلك في رمضان سنة ١١٤هـ/تشرين الأول ٧٣٢م[٤٠]، وجرت مناوشات عديدة استمرت لمدة سبعة أيام ثم تحول القتال إلى صـدام

(٣٦) كان الغافقي يبغي كذلك الانتقام من دوقية اكيتانية وهو لا يزال يحز في نفسه مرارة استشـهاد السمح ورفاقه كما إن فيها تعزيزاً للفتح الإسلامي في هذه المنطقة وضـربة قاضـية لتجمعـات البشكنس، عن هذا ينظر: السامرائي، الثغر، ص١٣٣-١٣٤ ومؤنس، فجر ص٢٦٥.

(٣٧) المياح، العوامل، ص١١٩.

(٣٨) رينو، غزوات، ص٩٩، وعللت المراجع الأوربية اتجاه الغافقي هذا بأنه من أجل كنـوز ديـر سان مارتن في حين أن هذا التوجه كان جزءا من اتباع أسلوب الهجوم غير المباشر الذي طبقـه الغافقي منذ غزوة ارل لمباغتة العدو فلم تك هذه سوى خدعة لصرف أنظار الفرنجة عن وجهـة الحقيقة وهي دوقية اكيتانية، ينظر: رينو، مصدر سابق ص٩٩-١٠٠، طـه وآخـرون، تـاريخ العرب، ص٥٣-٥٤؛ المياح، مصدر سابق، ص١٢٠.

(٣٩) اضطلع شارل مارتل بدرء التقدم الإسلامي إحساساً بخطره على سلطاته رغم كونـه حاجـب القصر لأن ملوك الفرنج يومئذ لم يكونوا سوى أشباح وأمور الدولة كلها بيـده، ينظـر: عنـان، دولة، ص٩٥؛ مؤنس، فخر ص٢٦٧، سالم تـاريخ، ص٢٤٢؛ السـامرائي، مصـدر سـابق، ص١٣٦، رينو، مصدر سابق، ص١١٨.

(٤٠) يذكر المؤرخون حدوث المعركة بالقرب مكن مكان يدعى (بلاط الشهداء) مما يفهـم منـه أن مكان الموقعة بجوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة بحوادث المعركة التـي عكسـت

مروع استبسل فيه المسلمون حتى كادت كفتهم ترجح إلا أن مسيرة المعركة أخذت منحى آخر انتهت به لا سيما بعد استشهاد قائد الجيش عبد الرحمن الغافقي، الذي يبدو أنه لم يكن على معرفة كافية بإمكانيات الآخر.

هذا هو التصور العام لأحداث المعركة وكما تطرحه أقرب الروايات الأوروبية إلى الدقة، وتركن تلك الرواية في تعليل ما ألم بالجيش الإسلامي في بلاط الشهداء إلى عاملين اثنين مرتبطين بمجرياتها ونتائجها[٤١]:

أ. الخلاف بين أفراد الجيش الإسلامي (العرب والبربر).

ب. الغنائم التي أثقلت الحركة القوات المسلحة وكان التفاف العدو حولها أدى إلى اختلال تماسك الجيش بسبب حرص أفراده عليها فتراجع يحميها واستشهد الغافقي وخسر المسلمون المعركة.

وصحيح أن الخلافات بين العرب والبربر بدأت تظهر على أرض الأندلس وقتذاك ولكن ليس ثمة دليل يشير إلى ظهورها في ساحة المعركة فقد أسهبت المصادر الأوربية في عرض تفاصيلها دون تقديم شيء يشين مواقف هؤلاء أو يدل على تفريطهم في حقوق أخوتهم أبان المعركة، على العكس فإن الغافقي كما ذكرنا تمكن من إنهاء هذه الخلافات وأن الإشارات التاريخية تؤكد لنا حماس الجيش وتوثبه لتحقيق النصر وعلو همته لخوض المعركة بكل طاقاته القتالية[٤٢].

وتفتقر قصة الغنائم التي ارتكزت عليها الرواية التاريخية في تعليلها وبنى الكثير من الدارسين استنتاجات ودروساً وعبراً مستخلصة من خلالها[٤٣] إلى المصداقية

كلمة (الشهداء) مكانتها وطبيعتها، ينظر، مجهول، أخبار مجموعة، ص٢٥؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٧١ هـ (١).

(٤١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص١٩٧.

(٤٢) م. ن؛ بيضون، تاريخ الدولة ص١٥٣؛ المياح، العوامل السوقية، ص١٣٠؛ ويمكن القبول جزئياً بما أورده مؤنس من أن هذه الخلافات بعد أن أنهاها الغافقي مدة ما لبثت أن ظهرت بعد استشهاده حتى أنه توقف الجهاد وراء البرت متأثرا في أحد أسبابه بهذا الخلاف، ينظر فجر الأندلس، ص٢٦٩.

(٤٣) بلغ التركيز على قصة الغنائم هذه إلى درجة أن الباحثين يؤكد على أن أولى هزائمنا وآخرها كانت بسبب الغنيمة التي هي قصة الهزيمة في تاريخنا، وإن المد الإسلامي توقف لأن بريق المادة غلب على إشعاعات الإيمان والذين يسقطون في هاوية البحث عن الغنائم لا يمكن أن ينجحوا في رفع راية عقيدة، أو حضارة، ينظر: عبد الحليم عويس: الصفحات الأخيرة في حضارتنا (القاهرة: المختار الإسلامي، ١٩٧٩)، ص١٠، ١٢؛ ونتائج في مثل هذه الخطورة عند تقييم حركة التاريخ الإسلامي في الأندلس لم تقم على أدلة سوى ما قدمه لنا أعداء هذا الوجود المتصفة رواياته بالتحيز والخيالية، وهو أمر لا ينفرد به عويس بل تتوجه معظم الدراسات

والإقناع وتتعارض مع بديهيات عدة، فمن الغريب تأكيد الرواية على كثرة الغنائم التي كسبها جيش الغافقي رغم فقر المنطقة التي سار فيها بمصادر ثروتها، قليلة السكان بالنسبة لمناطق فرنسا الأخرى، سيئة الأحوال بالنسبة لسكانها المعدمين الذين عانوا قبل سنوات قلائل من الحملات المستهلكة لكل قوتهم وطاقاتهم(٤٤)، كما وأن جيش الغافقي لم يحمل معه سوى الضروري من متاع وعدة وخيل ونزر يسير من الغنائم(٤٥) وكل ذلك ضروري لهم في تلك الغزوات المتواصلة، كما وتتقاطع صورة حمل هذه الغنائم مع أسلوب الجيش الإسلامي فكيف يحمل هذه الغنائم الثقيلة المفترضة وهو يعلم مقدماً أنه ذاهب للقاء حاسم ومصيري ولو حدث اجتماع مثل هذه الغنائم لأودعها مدناً سبق له فتحها(٤٦).

وبعيداً عما تطرحه الرواية التاريخية التقليدية من أسباب لإخفاق القوات المسلمة في بلاط الشهداء نحاول التركيز هنا على عوامل أخرى ساهمت بشكل فعال ومؤثر في سير المعركة وتوجيهها نحو ما انتهت إليه، وذلك عن طريق الإلمام بظروف البيئة التي تكون منطقة الصدام من خلال مكوناتها المتعددة (المساحة، السطح، المناخ) وعلاقة كل واحدة منها بفنون العرب العسكرية(٤٧).

قاتل الجيش المسلم في بلاط الشهداء وعوامل البيئة تحد من حركته وتشده إلى الأرض وتقيده، فقد كانت مساحة المعركة من الضيق بحيث لا تتسع لحركات جيشين كبيرين(٤٨)، بعبارة أخرى كانت كثافة المقاتلين بالنسبة لمساحة المنطقة عالية جداً بحيث

الحديثة هذا التوجه ينظر: نور الدين محمود حيث يصف معركة بلاط الشهداء بأنها معركة الفيء والأسلاب، ((فتح العرب فرنسا وما وراء جبال البرانس)) مجلة العربي، العدد ١٢٢ (الكويت: ١٩٦٦) ص٧٦، مؤنس، فجر، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٤٤) المياح، العوامل، ص١٢٥.

(٤٥) رينو، غزوات، ص٥١-٥٢.

(٤٦) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص١٩٨.

(٤٧) تعتمد في عرض الأسباب هنا بصورة شبه تامة على مقالة علي المياح، العوامل السوقية، ص١٢٦-١٣٠ فهي المصدر الوحيد الذي يعرض بالتفصيل والتحليل الدقيق تأثير الجغرافية على الامتداد الإسلامي في الأراضي الأوروبية مع عدم إغفال إشارات الآخرين ومنها العبادي، المجمل، ص٤٦؛ بشتاوي، الأمة، ص٦٢ هـ (١).

(٤٨) اختلفت الروايات التاريخية في تقدير عدد مقاتلي جيش الغافقي إذ تذكر المراجع المسيحية أنه كان على رأس أربعمائة ألف مقاتل والرواية الإسلامية تختزل العدد إلى ما بين سبعين إلى مائة

تصبح هذه الكثافة في حد ذاتها من معوقات الحركة التعبوية ولا سيما بالنسبة لكتائب الفرسان، هذا فضلاً عن دور الأنهار المحيطة بالمنطقة بأوديتها العميقة وأشجار الغابة التي تكتنف ضفافها في جعل الحركة عبرها أمراً عسيراً، فرضت هذه الحيثيات قيوداً على حركة الجيش المسلم الذي يعتمد قبل كل شيء على المساحات المفتوحة في القتال من خلال تحجيم قوته ضمن منطقة محددة له بحدود قاسية لا يمكن له تخطيها.

ومارست التلال الوعرة والمنخفضات المنغمرة بالمياه تأثيراً مباشراً على طبيعة المعركة في هذه المنطقة التي صنفتها خارطة السوق الحديثة للقارة الأوربية بكونها منطقة تلال، عمل سطح المنطقة ونباتها على تحويل ميدان الصدام على صغر مساحته إلى جيوب صغيرة تفصل بينها هذه التلال فوجد الجيش الفارس نفسه ضعيف الحركة إلى حد كبير على عكس جيش الخصم المعتمد على المشاة الراجلة حيث أفاد من تقطيع ساحة المعركة إلى جيوب صغيرة مما سهل عليه تكديس مشاته في الفجوات والثغرات الفاصلة بين التلال حتى ظهرت كراد يسهم في إطار مربع الشكل، ولم يكن شارل مارتل لينجح في عمله هذا لولا صغر مساحة منطقة الصدام وطبيعة سطحها.

ومما زاد من سوء الظروف الجغرافية وقت الحملة الذي كان في أواخر تشرين الأول، أي خلال فصل الشتاء وهو ليس فصل الغزوات العادي[٤٩] حيث يمتاز ببرودة نسبية كما يعد من أكثر شهور السنة مطراً، مما تسبب في زيادة مساحة المناطق المغمورة بالماء من ناحية وطغيان الوحل وعرقلة حركة الخيل من ناحية أخرى، وامتد تأثير هذه الظروف على ملابس الجيش وأسلحته فقد كان العرب والبربر ينتمون إلى بلاد صحراوية حارة وطبيعة ملابسهم واسعة فضفاضة وأسلحتهم خفيفة وأهمها القوس والسيف، عكس الجرمان الذين هم أهل مناطق باردة فلذا يلبسون ملابس سميكة للجو الذي يعيشون فيه وأسلحتهم كذلك مستمدة من بيئتهم حين يعيشون وسط الغابات فهم يتسلحون بالأسلحة الثقيلة وسيوفهم عريضة طويلة[٥٠].

ألف مقاتل وهو أقرب إلى المنطق والواقع من حيث إمكانية تجميعهم وتوفير الميرة اللازمة لهم، تنظر الآراء عند: رينو، تاريخ غزوات، ص١٠٢-١٠٢؛ عنان، دولة، ١/ص٩٥.

(٤٩) بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص٦٢ هـ (١)، ويؤشر عبد العزيز سالم على دور الاختلاف الجغرافي في هزيمة جيش الغافقي، ينظر تاريخ المسلمين،ص١٤٣.

(٥٠) العبادي، المجمل، ص٤٦.

إذن ضيق مساحة المعركة، تلالها الوعرة، غاباتها الكثيفة، غزارة المطر ووحل الأرض، قابلية قطعات جيش العدو السريعة، حرمان الجيش المسلم من المناورة والمباغتة وسط هذه الظروف، كل ذلك أدى دوره المؤثر والفعال في تقييد حركة الجيش وفقدانه للقدرة على مواصلة القتال والمبادرة.

وجد العرب المسلمون أنفسهم يخوضون معركة تمليها عليهم ظروف الموقع الذي كانوا فيه وليس حسب مفهوم المعركة الذي اعتادوا عليه مما أفقدهم التوازن المادي لا سيما أن الجيش الإسلامي توغل في حركته هذه بعيداً جداً عن أراضي الدولة الإسلامية مما حرمه الاستعانة باخوته والحصول على الإمدادات المطلوبة[٥١].

لم يظهر العرب اية بادرة للتراجع، واستمر الجيش المسلم يواصل القتال أملاً في التغلب على ما أحيط به من ظروف، واشتدت المعركة لذلك التصميم ودلل استشهاد عبد الرحمن الغافقي على ضراوة القتال واستبسال المسلمين في خضم المعركة[٥٢]، وعلى الرغم من الارتباك الذي حدث باستشهاد قائد الجيش إلا أن المقاتلين صمدوا إلى أن أقبل الليل وأفسد على العدو استغلال حركته فحجز بين الفريقين، ثم تشاور قادة الجيش وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة إذ ليس ثمة فائدة في معركة يسقط فيها العديد من القتلى ولا يحرز فيها نصراً نهائياً، بل أن حركة الانسحاب السريع في ظرف ساعات قلائل كانت بحد ذاتها نصراً عسكرياً سنحت فيه للقوات الإسلامية إظهار قابليتها السريعة على الحركة.

---

(٥١) توغل جيش الغافقي في مساحات شاسعة من أرض العدو وبعد بذلك عن قلب الدولة الإسلامية ولم يكن بمقدوره الحصول على إمدادات من مركز الخلافة أو حتى من قرطبة مركز ولاية الأندلس لبعد المسافة وتفرق عرب الأندلس في نواحيها المختلفة نتيجة لاستقرارهم فيها، أما قواعد المسلمين خلف البرت فلم تكن في وضع يسمح لها بإرسال الإمدادات لحاجتها إليها في الدفاع عن نفسها.

في مقابل ذلك كانت سهولة حصول العدو على الإمدادات من أرضه التي يقاتل عليها ومن كل نوع، وهذه أمور أساسية حرم منها جيش الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا، عن هذا ينظر:

عبد الواحد ذنون طه: الفتح والاستقرار الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس (بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢)، ص٣٤٦-٣٤٧؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٥٥،٥٦؛ بيضون، تاريخ الدولة، ص١٥٣؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٦٨-٢٦٩؛ رحلة الأندلس، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٥٢) حول الجانب المعنوي للجيش الإسلامي ينظر: مؤنس، فجر، ص٢٦٨.

انتهز المسلمون فرصة حلول الظلام فانسحبوا نحو الجنوب تاركين خيامهم وغنائمهم وتوجهوا نحو أربونة، وعندما لاحظ الفرنجة في صباح اليوم التالي خلو معسكر المسلمين ظنوا أن في الأمر مكيدة وتريثوا في دخوله ولم يلاحقوهم أما خوفا من أن يكون انسحابهم شركاً، أو اقتناعهم بنتيجة المعركة هذه(٥٣)، ومهما يكن من أمر فقد شهدت تلك الأيام دور العائق الجغرافي في وضع حد للجهود العربية الإسلامية الواسعة المنظمة فيما وراء البرت(٥٤).

---

(٥٣) من الملاحظ أن الجيش المسلم لم يرجع عن طريق ممر الشيرزي خشية قبائل البشكنس وغيرها من القبائل الجبلية أن تهاجمها في هذه الشعاب الضيقة مما يدل على وعي القوات الإسلامية الواسع في خضم عملية الانسحاب وعدم ارتجاليتها عن عملية الانسحاب ينظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧١-٢٧٤، السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٣٩؛ رينو، تاريخ غزوات، ص١٠١-١٠٢، طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٥٤-٥٥.

(٥٤) المياح، العوامل السوقية، ص١٢٠، ١٢٩.

المبحث الثاني

الجغرافية . . . وجيوب المقاومة

واجه العرب المسلمون ندا صلباً في امتدادهم نحو الأراضي الأوروبية فيما وراء البرت وكانت وعورة الأرض وقسوة المناخ وراء توقفهم، وإذا كان التأثير خارج الأرض الأندلسية بهذه الصورة الفعالة، فإن الجغرافية لم يقل أثرها في داخل الأندلس عما في خارجها، وغدت من الأسباب الفعالة في عدم استكمال وحدة الأندلس وسيادة السلطة الإسلامية بصورة تامة فيها.

وتتمثل نقطة البحث الأولى في هذا الموضوع بالطبيعة الجغرافية لشبه الجزيرة الايبيرية فالكثير من التصورات الموجودة عنها تتسم بالخيالية وغير الواقعية، والتي أظهرتها وكأنها جنان وبساتين وحدائق غناء، ثمار وأشجار، وعززت تلك النظرة أقوال الشعراء والقصاص التي اتسمت بالأحادية، فبلاد الأندلس سهول وهضاب، جبال وأودية، فيها المناطق الخصبة السهلة، مثلما فيها المناطق الجدبة الشقية[٥٥]، وليس هناك أرض متناقضة في تكويناتها كشبه الجزيرة الايبيرية[٥٦].

ومن خلال عملية الجمع والتنسيق بين المعلومات المختلفة الخاصة بالمنطقة تتكون لنا معرفة مهمة[٥٧] عن موقع الأندلس وظواهر السطح فيها وطبيعة مناخها، فالأندلس عبارة عن كتلة جسيمة داخلة في البحر تقع جنوبي غربي أوربا، وهي تكاد تكون خماسية الشكل، وتصلها بالقارة سلسلة جبال البرت أما الجوانب الباقية فتحف بها مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط في حين لا يفصلها عن أفريقية إلا مضيق جبل طارق.

جعل هذا التكوين لشبه الجزيرة الايبيرية طابعا جزريا وغدت منعزلة إلى حد ما عما وراء جبال البرت بسبب إحاطة المياه وهذه الجبال بها فلم تمثل في نظر الكثيرين

---

(٥٥) أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠) ص٢٦؛ ويبدو من صحيح القول أن توزيع القبائل المسلمة في أرض الأندلس عكس التباين الجغرافي هذا بتركزها في جوانب معينة دون غيرها لخصبها وسهولها.

(٥٦) مؤنس، رحلة، ص٩.

(٥٧) نستقي معظم المادة الجغرافية هذه وبصورة متتابعة من:

دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة، كتاب الشعب، د. ت)، م٥، ص١٨-٢٠.

جزءاً من جسم القارة الأوربية بل هي ناتئة منها نحو الجنوب الغربي من جبال البرت التي ترتفع حصوناً منعية بينها وبين فرنسا[٥٨].

كان من المنتظر أن تصلح شبه الجزيرة الايبيرية لجمع شمل الشعب الذي ينزل بها من خلال التكوين الجغرافي هذا ولكن حال دون هذه الوحدة المرجوة تنوع السطح واختلاف طبيعة المناخ بين أجزائها الواسعة[٥٩].

لم يظهر سطح المنطقة على صورة واحدة فتتكون شبه الجزيرة الايبيرية من هضبة قديمة عالية (المسيتا) تقطع السلاسل والمنحدرات الجبلية العالية، وتضم شبه الجزيرة الايبيرية عدة سلاسل جبلية[٦٠] منها جبال كانتبريه في الشمال وجبال شارات مورينا في الجنوب، وهضاب جليقية المرتفعة إلى الغرب وتخترقها أنهار عدة ذات مجارٍ عميقة.

وتختلف أجزاء الأندلس في مناخها، على الرغم من الطبيعة العامة له (جاف معتدل) [٦١] إلا أنه يعاني من تغيرات حادة في درجات الحرارة، ويصاحب ذلك اختلاف معدلات سقوط الأمطار بين أجزاء شبه الجزيرة الايبيرية، فإسبانيا المطيرة تبدأ من الشعبة الغربية لجبال البرت (إقليم الباسك والساحل الكانتبري) والبرتغال الحديثة، أما إسبانيا الجافة فتشغل ما يقرب من ثلثي الجزيرة.

تعد إسبانيا بهذا التنوع غير المألوف بلداً يجمع أكبر قدر من المتناقضات جعلها عالما بحد ذاته[٦٢]، ومن شأن البلاد التي تكون كذلك أن تميل إلى الحكم اللامركزي، وخاصة إذا أخذنا وسائل المواصلات وقتذاك بنظر الاعتبار.

---

(٥٨) دوروثي لورد: إسبانيا: شعبها وأرضها، ترجمة: طارق فودة، مراجعة وتقديم: عز الدين فريد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦)، ص٢١.

(٥٩) علي حمودة: تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط١ (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٧) ص٢٤.

(٦٠) حول الجبال الأسبانية وتكويناتها وامتدادها ينظر عسل، أوربا ص١٩٠-٢٠٤.

(٦١) ميز المناخ أقسام الجزيرة، فالشمال بطبيعته موحش معرض للرياح الهوج والأمطار الهاطلة والبرد الشديد، أما الجنوب فرغم تهديده برياح أفريقيا الحارة فمزدهر، ينظر: استانلي لين بول: العرب في أسبانيا، ترجمة علي الجارم (القاهرة: ١٩٦٠) ص٣٦.

(٦٢) حمودة، تاريخ، ص٢٤، ٢٥، ص١٠٤؛ وفي التأكيد على أثر التنوع الجغرافي في الانقسام الداخلي ينظر: =

ولم يغب الأثر الجغرافي والبشري عن مؤرخينا المسلمين، فيوضح ابن الخطيب أن من أسباب كثرة الثوار والمتمردين في الأندلس منعة البلاد وحصانة المعاقل[٦٣] وهذا ما سهل للكثيرين القيام والخروج على الحكومة المركزية في قرطبة، وليس في هذا خطأ، إذ أن مناعة العديد من المدن والقرى والحصانة الطبيعية التي انطوت عليها جعل منها ملجأً لكل الفارين والمناهضين للسلطة المركزية أيا كانت أصولهم أو توجهاتهم وبذلك أدت جغرافية الأندلس دوراً مؤثراً في تكوين جيوب المقاومة الداخلية حين منحتها الحياة والقدرة على الاستمرار لسنوات طويلة حتى لو هزمت في المواجهات العسكرية المباشرة.

عرقلت طبيعة الأرض بذلك تحقيق الوحدة السياسة الشاملة للأندلس ليس في الماضي حسب ولكن حتى في التاريخ الحديث[٦٤]، ومتابعة التمردات الداخلية الكثيرة يؤكد لنا هذا الأمر، ونحن هنا لا نؤرخ لتلك الثورات وتفاصيلها الواسعة المبثوثة في المصادر إنما نحاول ربط مركز المقاومة بطبيعة الجغرافية وثمة أمثلة عديدة نجتزئ القليل منها للدلالة على ذلك[٦٥].

نلمس ابتداء العلاقة بين مدينة طليطلة والجغرافية، حيث كانت المدينة على امتداد تاريخ الوجود الإسلامي الطويل مركزاً ملتهباً بالحركات الانفصالية عن السلطة المركزية، وشهدت العديد من التمردات زمن الأمراء الأمويين.

= عواد صالح محمد: الأندلس في عهد الطوائف الأولى (٢٣٨-٣٠٠هـ) رسالة ماجستير (غير منشورة). جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٨٣) ص٤٤-٤٧؛ حكمت الآوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٦) ص٦٢؛ عسل، أوربا، ص٢٢٢.

(٦٣) أعمال الأعلام، ص٣٦.

(٦٤) كنجز بري وباوندز: أطلس أوروبا، ترجمة: محمد فاتح عقيل (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٦٦) ص١٧٩؛ وحتى في عصرنا هذا فإن أقاليم أسبانيا تتميز كل واحدة منها بمميزات خاصة بشيء يعرفه كل من له إطلاع على الشؤون الأسبانية فلكل إقليم زيه الخاص به وموسيقاه وعاداته التي قلما يشاركه فيها إقليم آخر) الآوسي، الأدب الأندلسي، ص٣٠؛ مؤنس، رحلة، ص٩١-٩٢.

(٦٥) لكل واحدة من هذه الحركات أبعادها السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية ولكن ما يربط بينها استفادتها من جغرافية المنطقة من أجل استمرارها وتواصلها.

وكان التمرد والعصيان ديدن أهلها فما يكادون يحسون بقليل من التنفيس حتى يخلعوا سلطة الدولة(٦٦) ولم يك المتمردون فيها. يراهنون على شيء قدر مراهنتهم على مناعة المدينة الطبيعية.

وأكد ابن خلدون ذلك حين علق على نزعة التمرد لدى أهل طليطلة بقوله ((كان أهل طليطلة يكثرون الخلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم فكانت طاعتهم ملتاثة))(٦٧) وهذا واضح من متابعة طبيعة المدينة الجغرافية التي انطوت على حصانة طبيعية وموقع صخري منيع وسفح جبلي وعر ساعدهم على إعلان تمردهم وتزعم الحركات الانفصالية(٦٨)، الأمر الذي فرض على السلطة اللجوء إلى اغتيال المتمردين وتجاوز أسلوب الحملات العسكرية والمواجهات المباشرة التي لم تأت يوماً بطائل.

وزاد من صعوبة وضع السلطة في مواجهة تلك الحركات العقبات الطبيعية الكثيرة التي كان على الجيش المرسل اجتيازها لتمكين وصوله إلى مكان التمرد مما يعطي زعمائه الفرصة لتقوية أنفسهم ومحاولة بسط سيطرتهم على مناطق جديدة وتحصين أنفسهم تحصيناً منيعاً ريثما تصل قوات الحكومة التي كانت تجد نفسها عاجزة عن إخماد تلك التمردات بالسرعة المطلوبة(٦٩).

وتجلى أثر الجغرافية بشكل بارز في تمرد عمر بن حفصون، فكان التجاؤه إلى منطقة حصينة منيعة في كورة رية (حصن ببشتر) عاملاً كافياً لاستمرار تمرده ما يقارب نصف قرن، فامتد منذ نشوبها سنة ٢٦٧هـ في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وحتى انتهائها سنة ٣٠٣هـ في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر.

عُرفت المنطقة التي التجأ إليها ابن حفصون بأنها مأوى الأشقياء والعصاة فكانت تضم تجمعات خارجة عن الطاعة من المولدين في مناطق الجبال دون أن تكون هناك قيادة تحرك هؤلاء نحو هدف محدد ضمن حركة منظمة ومنسقة حتى ظهر ابن حفصون(٧٠).

---

(٦٦) حمودة، تاريخ، ص١٤٥.

(٦٧) العبر ٢/٤/ص٢٧٥؛ ويضيف في موضع آخر: ((لم تزل طليطلة دار فتنة وعصبية ومنعة)) ص٣٠٥.

(٦٨) التواتي، مأساة، ص٢١٦-٢١٧.

(٦٩) خالد الصوفي؛ تاريخ العرب في الأندلس (نهاية الخلافة الأموية) ط١ (حلب: مكتبة، دار الشرق، د. ت) ص٩٦.

(٧٠) ابن حفصون نفسه فرّ من حريمه قتل إلى المغرب ثم عاد إلى الأندلس والتجأ إلى حصن ببشتر وأعلن تمرده، ينظر عن ذلك: ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص١٠٩-١١٢؛ محمد عيسى الحريري: حركات المولدين في الجنوب الأندلسي في عصر الإمارة الأموية بالأندلس (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥) ص٤٤.

ويعد اختيار عمر بن حفصون هذه المنطقة ممتازاً من الناحية العسكرية وكان ذلك عاملاً هاماً من عوامل استمرار حركته الانفصالية كل الوقت الذي بقيته، وصلابتها، والمحافظة عليها في حالات الهزيمة إذ كان يبادر في ذلك الوقت إلى الانكماش داخل هذه القلعة الحصينة(٧١)، وهو ما أكد عليه العديد من المؤرخين والجغرافيين(٧٢).

وامتازت القلعة التي اتخذها ابن حفصون مقراً بوقوعها في منطقة موغلة في داخل الجبال ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر خوانق ومضايق جبلية غاية في الوعورة فلا يسمح بعض هذه الخوانق بمرور أكثر من اثنين أو ثلاثة معاً، أما القلعة نفسها فكانت على صخرة صماء عالية تنحدر انحداراً عمودياً فلا يمكن الوصول إليها إليها الأمن خلال ممرين يوصل إليهما من خلال شعب لا يستطيع أن يسلكها إلا راجل واحد خفيف(٧٣)، وهذا ما أشار إليه الشريف الإدريسي حيث قال أنها في ((نهاية الامتناع

---

(٧١) الحريري، حركات المولدين، ص٤٥؛ العبادي، المجمل، ص١٠٦-١٠٧؛ علي، مختصر، ص٤٠٤؛ وفي وصف حصن ببشتر والربط بينه وبين بقاء ابن حفصون مدة طويلة: عواد، الأندلس ص١٤٤-١١٥.

(٧٢) من أبرز من قدم وصفاً للحصن وأكد على مناعته وطبيعته القاسية: ياقوت الحموي: من كتاب معجم البلدان، أختار النصوص وقدم لها وعلق عليها عبد الإله نبهان (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد والقومي، ١٩٨٣).

السفر الثاني (البلدان الأندلسية) ص١٠٥.؛ وأبو عبد الله محمد بن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٦) ص٢٦، الحميري، صفة جزيرة، ص٣٧؛ وكذلك تفيدنا إشارة الظبي عن ابن حفصون بأنه أتعب السلاطين وفي تعليل طول تمرده بمناعة مركزه، ينظر بغية الملتمس، ترجمة رقم ١١٦١؛ وكذلك أدهم: عبد الرحمن الناصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢) ص٢٠.

(٧٣) ابن حيان، المقتبس ٣/ ص٩٩؛ الحريري، حركات، ص٤٥؛ ولم تقتصر قواعد ابن حفصون على ببشتر فاتخذ ارشذونة كذلك وكانت ذات موقع صعب يأخذ البصر بمناعته ووعورته إذ تقع في بطن وادي سحيق تحيط به الجبال من كل ناحية، ينظر: محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ط٢ (القاهرة: مؤسسة الخانجي، ١٩٦١) ص٢٣٨ وفي المصادر الأولية، ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص١٦٢-١٦٣.

والتحصين والصعود إليها على طريق صعب)) (٧٤) ولذا غدت ((أمنع قلاع الأندلس قاطبة)) (٧٥).

استمر تمرد ابن حفصون لذلك وقتاً طويلاً جداً وقد يعجب الإنسان وهو يقرأ في حوليات الأندلس عن ثورة عمر بن حفصون وعجز أمراء قرطبة عن القضاء عليه وعلى تمرده رغم هزائمه المتكررة والعديدة وبالرغم من قرب معقله من دار الإمارة الأموية في قرطبة، ولكن طبيعة المنطقة القاسية والمتنوعة في تضاريسها وفرت أماكن فريدة للاختباء بحيث لو اختبأ فيها اليوم قاطع طريق فلا سبيل إلى إدراكه فكيف وقد كان جند الخلافة ورجال أمنها يقطعون هذه المنطقة على الظهر والقدم (٧٦).

وعلى الرغم من طول المدة التي قضاها ابن حفصون متمرداً وناقضا لكل صلح أو اتفاق إلا أنه ركن أخيراً إلى الاتفاق مع الخليفة الناصر سنة ٣٠٣هـ والتزم به بعد أن أوهنت السنوات قوته وهذا ما دفع الناصر إلى قبول الصلح معه حيث أدرك أن ابن حفصون أصبح شيخاً هرماً فت الزمن في عضده واستهلكته الأحداث وأن المسألة مسألة وقت فقط(٧٧).

صدق حدس الناصر فلم تمض سنتان طبقاً لرواية ابن عذاري وابن حيان حتى توفي ابن حفصون سنة ٣٠٥هـ(٧٨)، ولعل الناصر استوعب من حركة ابن حفصون درساً مهماً حول أهمية العامل الجغرافي ومناعة حصن ببشر لذلك نجده يقوم بتقوية قصبة ببشتر وهدم جميع الحصون والمعاقل القريبة منها وهو إجراء عللّه صاحب الأخبار المجموعة بإبقائه ملجأ له ولأولاده من بعده إذا ما تعرضوا لأية مشكلات أو فتن تهيج بهم في بلاد الأندلس(٧٩).

---

(٧٤) الشريف الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (أمستردام: ١٩٦٩) ص٣٠٤.

(٧٥) ابن عذاري، مصدر سابق، ٢/ص١٠٦.

(٧٦) مؤنس، رحلة، ص٥٤٩.

(٧٧) الحريري، حركات، ص١٠٩.

(٧٨) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص١٧١.

(٧٩) مجهول، أخبار مجموعة ص١٥٤؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ص١٩٦؛ ابن حيان، المقتبس، ص١٣٥-١٣٧.

خارطة توضح مواقع بعض مراكز المقاومة في الأندلس

المصدر: عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، ص٤٥٢

- الجغرافية والمقاومة الإسبانية

وفرت الجغرافية الأندلسية بتكوينها المعقد والمتنوع والمتناقض أماكن عدة لتكوين جيوب مقاومة للوجود العربي الإسلامي، ولما كان الأسبان من القوط هم أهل البلاد ويمتلكون معرفة تامة بتضاريس المنطقة وظروفها المناخية فقد عمدت فلول هؤلاء إلى استغلال هذه الناحية المهمة في عدم الرضوخ للسلطة الجديدة وقدر لها أن تكون نواة الممالك الأسبانية التي قادت حركة المقاومة ضد الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

التجأت بقية جيش القوط إلى مناطق الشمال بعد مطاردة القوات العربية لها، وكان الخطر الكبير الذي واجهته القوات العربية يتمثل بالفلول التي لاذت بهضاب اشتوريس حيث نبتت فيها جذور المقاومة الأسبانية[٨٠]، فقد اكتسبت خطرها من الطبيعة

(٨٠) إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦) ص٢٩١؛ عنان، دولة ١/ص٢١٠؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٠٢.

الوعرة والمناخ القاسي للمنطقة التي لاذت بها، واحتمى هؤلاء بمغارة تدعى كوفادونجا Covadenhia في أعلى قمم جبال كانتبريه المنيعة التي أطلق عليها الأسبان اسم قمم أوروبا pioos de Europa وسماها المسلمون (الصخرة).

تجمعت فلول القوط هذه تحت أمرة بلاي(٨١)، ومن بين الغموض والخيالية التي تحيط بهذا القائد ودوره يمكننا القول أن القوات العربية وجدت نفسها مرة أخرى مقيدة مكانياً وزمانياً، فالمكان وعر صخري شديد البرودة، ومرتفع نحو مائتي متر ونظرة واحدة إلى المغارة وشكلها وتكوينها تجعلنا ندرك وعورتها وصعوبتها، فظهرت على شكل صخرة شاهقة هائلة ذات آكام مدببة ومرتفعة لا يمكن الصعود إليها إلا بواسطة نفق أو سلم طويل منحدر(٨٢)، ويصعب الوصول إليها وسط الجبال المحيطة بها،

---

(٨١) تذكر لنا المصادر الإسلامية هذا دون تفصيل واف وتذكر بلاي وتنوه بتفاقم أمره وقوته كما أشار إلى ذلك صاحب الأخبار المجموعة ص٢٨، ٦١-٦٢؛ وأشار المقري إلى أنه أول من جمع فلول النصارى، نفح الطيب ٦/ص٨٢-٨٣.

وثمة آراء مختلفة حول شخصيته وأصولها، ونرى أن بلاي سواء كان من عامة الناس كما يقول البعض أو من زعماء المنطقة أو سليل البيت القوطي كما يحدد آخرين فإنه قام بدور كبير في تثبيت جذور المقاومة النصرانية، ينظر: حسين مؤنس: ((بلاي وميلاد اشتريس)) مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مج١١، ج١ (القاهرة: ١٩٤٩) ص٨١؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٠٣-١٠٥ لمناقشة الآراء المختلفة ينظر: الحجي، أندلسيات، ٢/ص٣٩-٤١؛ عبد الحميد العبادي، المجمل، ص٣٩، ١١٥-١١٧، حمودة، تاريخ الأندلس، ص٩٨.

(٨٢) عنان، الآثار الأندلسية، ص٢٦٨؛ مؤنس، رحلة، ص٣٥٧-٣٥٨.

واحدث من قدم لنا وصفاً لهذه المغارة هو عادل بشتاوي في كتابه الأمة الأندلسية حيث قارن بين ما أوردته الروايات وبين مشاهداته فيقول:

((الكهف كبير ويكاد يكون فريداً في موقعه إلا أنني زرته مرتين ولم أجده مناسباً لاستيعاب ٣٠٠ شخص لفترة طويلة . . . أما بقية الروايات التي تذكر أن بلايو صمد مع ٣٠ من اتباعه بينهم عشر نساء فيسوغها الموقع الستراتيجي الذي يحتله الكهف إذ يتعذر الوصول إليه لانقطاع الطريق يمين الفجوة.

وتحت الصخرة بركة كبيرة يستطيع الموجود فيها انتشال الماء منها بدلو مربوط بحبل وربما وجد العصاة في خروق الصخرة عسلاً إلا أن موقعها في منطقة جبلية مرتفعة شديدة البرودة ليس فيها بساتين ولا أزهار يجمع النحل رحيقها وربما كانت الطبيعة حينذاك غير ما هي عليه الآن)) ص٥٠ هـ (١).

والمضايق الواجب اجتيازها، فضلاً عن أن معظم المناطق المؤدية إلى الشمال كانت أيام العرب مغطاة بالغابات

خارطة توضح موقع صخرة بلاي (كوفادونجا)

المصدر: الحجي، عبد الرحمن، تاريخ الأندلس، ص٢٤-٢٥.

التي لم يستريحوا إليها أبداً فلا هم سكنوها ولا اطمأنوا إلى الميسر فيها، وكانوا يخشون الكمائن التي تترصدهم خلف الأشجار، وهم ينفرون من ذلك الأسلوب الذي يحرمهم القتال في الأرض المكشوفة واستخدام أسلوب الكر والفر الذي يجيدونه[٨٣].

وقيدت القوات المسلمة بوقت المعارك القتال الذي انحصر في مدة محددة يجب عدم تجاوزها وإلا كانت الظروف المناخية فيها صداً منيعاً أمامهم[٨٤] حيث تسقط الثلوج

ولكن هل يمكننا هنا الربط بين تمكن هؤلاء من العيش في هذه الظروف القاسية وبين ما يذكره مؤنس عن خيرات شمال إسبانيا حتى خليج بسكاي)) رحلة الأندلس ص٣١٥.

(٨٣) مؤنس، المصدر نفسه، ص٣٤٨.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٣٥٣، ٣٥٤.

وتنسد منافذ الجبال وتصبح العودة شقاءاً عظيماً[٨٥]، واستغل أهل الشمال الإسباني هذه المسألة في ممارسة نشاطاتهم الحياتية طيلة الوقت الذي يستغرقه العرب المسلمون فـــي السير إليهم ثم يصعدون إلى أعالي الجبال حيث لا يدركهم أحد، ولم يكن العرب يجدون وقتها سوى حاميات تعتصم بالحصن ومعها مؤونة الشهر والشهرين والوقت لا يتســع لحصارها بينما يستخدم الآخر أسلوب حرب العصابات ضد القوات المسلمة.

---

(٨٥) تؤشر المصادر على حملتين كان حلول الشتاء سبباً في نتيجتها السلبية زمن الحاجب المنصور وابنه عبد الرحمن (شنجول) ينظر: الصوفي تاريخ (نهاية الخلافــة) ص١٢٩-١٣٠، (عصـــر المنصور) ص٥٧٦؛ وعن المصادر، ابن عذاري، البيان المغرب ج٣، ص٦٥. =

= فضلاً عن مسألة الوقت لابد من إدراك وسيلة الانتقال التي كانت تتم على القدم والخيل والبغال وكلما وصل الجيش نهراً أو مجرى ماء كان لابد من بحثهم عن مخاضة، وأي مكان ضحل مـــن مجرى النهر لتعبر الدواب خوضاً في الماء وكانت هناك دائماً فـــي جيـــوش المســـلمين فـــرق متخصصة في فتح الطرق وتوسيع مخارم الجبال بالمعاول، مؤنس، مصـــدر ســـابق، ص٣٥٣-٣٥٤.

ووفقاً لهذا فإن القوات العربية قاتلت على أرض غير أرضها جغرافياً في ظروف حدت من حركتها مكانياً وزمانياً فلا تلبث حين تذهب حتى تبدأ تفكر كيف تعود، والقلق يشل كل التحركات في أرض الشمال الوعرة.

وتسجل لنا المصادر اصطدام العرب بقوات بلاي في معركة (كوفا دونجا) التي انتهت بتغلب قوات بلاي على الجيش الأندلسي زمن ولاية عنبسة(*) (١٠٣-١٠٧هـ) وسواء كانت المعركة كما صورت في المصادر المسيحية ملحمة اسطورية أو مناوشة بسيطة، فإنها أعلنت عن قيام نواة الممالك الأسبانية(٨٦)، والعبرة في أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا الأرقام الصغيرة أو الكبيرة بل بالمعنى التاريخي الذي يستتر خلفه، فنجاح قوات بلاي وانصراف العرب عن القضاء عليها(٨٧) أنشأ في شبه

(*) السامرائي، مصدر سابق، ص١٠٤-١٠٥، لورد، أسبانيا، ص٥٩-٦٠.

(٨٦) بالرغم من أن هذا النصر يبدو ضئيلاً من حيث عدد المقاتلين الذين اشتركوا في المعركة فإنه آثار حماسة المسيحين لمواصلة الكفاح ولذلك تعتبر موقعة كوفادونجا عام ٧١٨م في نظر الإسبان بداية استردادهم لبلادهم إذ بدأت ممالكهم بالنمو من جديد حتى تقوت فحركة الاسترداد هي حلقة متصلة من تاريخهم القومي.

ويعد الدكتور مؤنس أن إطلاق هذه التسمية على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها وربطها بحركة الاسترداد الحقيقي التي بدأت بعد سقوط الخلافة في قرطبة الامر لا يخلو من الخطأ لأن بعض مناطق أشترياس لم يفتحها المسلمون، فهذه الحركة لا تعتبر بداية الاسترداد إنما تعتبر ميلاداً لحركة المقاومة النصرانية للسيادة الإسلامية، ينظر بلاي، ص٥٨-٥٩، السامرائي الثغر، ص٩٧-٩٨.

(٨٧) استمرت المحاولات الإسلامية في مهاجمة قواعد الشمال وخاصة زمن عقبة بن الحجاج (١١٦-١٢٣هـ) حيث استطاع افتتاح كل قرى جليقية ولكنه لم يستطع السيطرة على الصخرة التي امتنع فيها بلاي مع الناجين من أنصاره وكان هؤلاء نحو ٣٠٠ رجل حاصرهم المسلمون حتى هلك أكثرهم من الجوع وظل على قيد الحياة نحو ٣٠ رجلاً بينهم ١٠ نساء كما يحدثنا ابن عذاري وصاحب الأخبار المجموعة أن هؤلاء اقتاتوا فقط على العسل الذي كانوا يستخرجونه من بعض المناحل المتوفرة في شقوق الصخرة، وبعد أن أعيا المسلمون أمرهم وصعوبة الوصول

الجزيرة وضعاً جديداً شكل محوراً من محاور التاريخ الأندلسي كله وهو أن إسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً عربياً إسلامياً خالصاً وإنما قسمة بين الدولة الإسلامية والنصرانية، وأن هذا الانقسام أذكى الصراع والنزاع بين الدولتين حتى انتهائه بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والوجود العربي الإسلامي عن البلاد نهائياً.

شكلت ممالك الشمال خطراً بالغاً على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس إلى درجة أنه لم يخل عهد من حروب تشنها الأندلس على الشمال ويشنها عليها الشمال، وبقي الوجود الأسباني في تلك المناطق القاسية مصدر قلق لا سبيل إلى رده أو الانتهاء منه نهائياً[(٨٨)]، وعامل استنزاف لقوة وطاقة وموارد كان من الممكن أن تنهض بالواقع العربي الإسلامي في الأندلس[(٨٩)].

وتطالعنا الأخبار التاريخية بنشاطات الأمراء الأمويين والقادة في أراضي جليقية وأشتوريس وأنهم توغلوا وانتصروا ودمروا وخربوا، وبقي مع كل ذلك خطر الشمال ماثلاً، ورغم خسارة الجانب الإسباني مواجهات عدة إلا أنه كانت تتبقى لهم نواة كما بقيت بقيادة بلاي من قبل، هذه النواة تلوذ بالجبال معتصمة بها ثم تعود حين تسنح الفرصة لتنساح من جديد، وحتى في أقصى توجهات الجيش المسلم على عهد الحاجب المنصور لما وطأ أرضاً لم تصلها قوات إسلامية من قبل فإن الروايات تتحدث عن توقف حملاته عند هذه الحدود دون تتبع الفلول المنهزمة أو محاولة البقاء في المناطق المفتوحة إذ تحصن الفارّون بجبال جليقية تماماً كما كان يحدث في كل مرة.

إليهم قالوا: ثلاثون علجا ما عسى أن يكون أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم) البيان المغرب ٢/ص٢٩، أخبار مجموعة ص٢٨، ونبه عن خطورة الإسبان هؤلاء عدد من المؤرخين ينظر: (الحجي) أندلسيات ٤٠/٢، طه وآخرون تاريخ العرب ص٤٤، ١٣٢-١٣٤ حيث نجد عرضاً للآراء المختلفة حول بلاي ومعركة كوفادونجا.

(٨٨) ظل الوجود الإسلامي في الشمال مصدر قلق وأهوال للأندلس هو الـ الأندلس المسلمة وحتى في الظروف التي كانت فيها الغلبة للمسلمين حيث لم يستطيعوا اجتياح منطقة الجبال الوعرة الممتدة على طول الحدود الإسبانية الشمالية، ينظر لورد أسبانيا، ص٥٩، التواتي، مأساة ص٥٦٢.

(٨٩) التواتي، مأساة، ص٥٦٣، ٥٨٩. السامرائي، الثغر الأعلى ص١٠٤-١٠٥؛ لورد، ص٥٩-٦٠.

فالمنطقة بطبيعتها وتضاريسها بدت أقوى مما بذلته قوات المسلمين من جهد مادي ومعنوي وهيأت الأجواء للانقضاض عليها، ولندع النظرة السائدة حول زهد المسلمين بهذه المناطق كما توحي بذلك بعض الروايات فإنهم لو كان باستطاعتهم إيجاد منفذ واحد للسيطرة على جميع أراضي الشمال لما توانوا عن استخدامه، ولاتموا بذلك فتح البلاد بأكملها كما حصل في الأنحاء الأخرى للأندلس المسلمة[٩٠].

وطبيعي أن العرب في بداية الأمر لم يمتلكوا معرفة كافية بتضاريس البلاد وطبيعتها لحداثة عهدهم بها، ولكن ما هو ملفت للنظر أن عدم نجاح المسلمين في التوغل إلى كافة أراضي الشمال وبسط السيطرة عليها ظل ملازماً لعلاقة مسلمي الأندلس بأهل الشمال إلى الرغم من أنه مضى على وجودهم فيها ما لا يقل عن ثلاثة قرون من الزمن وبعد ما رسخوا أقدامهم فيها وامتلكوا معرفة كافية عنها[٩١]. يتعلق بهذا الأمر ما يقال عن الترابط بين النمو المطرد للمالك الأسبانية وظاهرة النزاع الداخلي التي جعلت السلطة العربية الإسلامية مضطرة لتوجيه اهتماماً إلى المناطق الداخلية لإعادة السيطرة عليها وتحقيق الوحدة للكيان العربي وهو أمر فعّله نمو ممالك الشمال وتآكل الجسم العربي المستمر، وبالرغم من صحة هذا الأمر الذي ركز عليه المحدثون وبشدة[٩٢]، يبقى التساؤل ملحاً جداً: لمَ لم تمكن الدولة العربية الإسلامية من إنهاء مقاومة الشمال بصورة نهائية وهي في أوج اتساعها وقوتها وعنفوان عزها الحضاري (منتصف القرن الرابع الهجري) وبعد قرون من الاستقرار والمعرفة والخبرة، ولماذا لم

---

(٩٠) كان ذلك على اثر حملة المنصور سنة ٣٧٨ هـ، التواتي، مأساة، ص٥٨١-٥٨٢.

(٩١) هذه النظرة إلى ترك أراضي الشمال نلمسها في كتابات المؤرخين المسلمين مما أوردناه في الهوامش السابقة ويكاد يركز عليها عدد مهم من المحدثين، وينطلق هؤلاء من اعتبار منطقة الشمال فقيرة بمواردها صعبة في تضاريسها فهي بذلك لا تستحق عناء المكابدة من أجل فرض وبسط السيطرة الإسلامية عليها، وهذا هو الذي دفع بالمسلمين إلى الإنصراف عن جماعة بلاي دون أن تؤثر هذه البقعة على طبيعة حكمهم حينها، ولكن هذا الانصراف منح الفرصة لهذه النواة أن تكبر وتقوى في الناحية الأخرى.

(٩٢) تكاد المصادر تجمع على أثر الخلاف الداخلي في قيام الممالك الأسبانية، ونحن لا ننكر هذا ولكن نؤشر على عوامل أخرى أكثر تأثيراً وفي مقدمتها الجغرافية، ينظر: عنان، دولة الإسلام، ص٢٠٧-٢٠٩؛ مختار العبادي، في تاريخ المغرب، ص١٩٦؛ مؤنس، فجر، ص٣٣٩؛ المطوي، الحروب، ص١٣٧-١٣٨.

تك تلك الحملات الموجهة إلى أرض الشمال حاسمة وبقيت تبدأ وتنتهي دون أن تنتهـــي مع نهايتها أياً من الكيانات السياسة الأسبانية، وبالرغم من أن القرون التي نتحدث عنها شهدت التجمعات الأسبانية بصورتها الرسمية المنظمة فإن القوة العربية الإسلامية لـــم تكن أقل منها أن لم تفقها.

لم تستطع السلطة في الأندلس إنهاء المقاومة الأسبانية، وكانت جغرافية الشمال الأسباني عائقاً أقوى من جهود المسلمين، فببساطة واختصار كانت قوة هؤلاء الأســبان تتمركز وتسيطر على بقعة من أنحس البقاع كما يصفها الأمير عبد الله بن بلقــين فـــي مذكراته(٩٣)، فعرف الأسبان بذلك استغلال طبيعة أراضيهم في تعزيز مقاومتهم وتأسيس الممالك المتعددة التي قضت على الكيان العربي الإسلامي عام ٧٩٨هـ/١٤٩٢م، وكان القاسم المشترك بينها هو الموقع المتشابه في الوعورة والمناخ القاسي، فمثل هــذا أول أسلحتها في رد هجمات العرب المسلمين إلى قلب معاقلها الجبلية البعيدة(٩٤) وفي عملية إنهاء الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

---

(٩٣) أن تهيب قادة العرب من اختراق صخور الشمال وتجاوز مناعتها أتاح الفرصة حتى لمنـــاوئي النظام القائم من العرب أنفسهم بشن الغارات المهولة على الممتلكات الإسلامية في الشمال الـــذي كان ملاذاً آمناً لهم فتحول إلى منطقة لكل الثائرين والمغامرين من العرب المسلمين ممن كـــانوا ضد السلطة المركزية، ينظر: التواتي، مأساة، ص٥٨٢، ٥٦٢؛ الشيخ، دولة الفرنجة، ص١٣٧.

(٩٤) بيضون، تاريخ الدولة، ص٢٩٨؛ الحجي، أندلسيات ٢/ص٤٠.



الفصل الثالث
إشكالية التكوين الاجتماعي

المبحث الأول
طبيعة التكوين الاجتماعي في الأندلس

١. تعدد في الفئات... تنوع في الأصول

شكلت طبيعة القوة الأولى التي عبرت إلى الأندلس (٩٢هـ) نواة المجتمع العربي الإسلامي فيها والتي تكونت من عناصر العرب والبربر والموالي، وتطورت هذه النواة بمن التحق بها من جموع الوافدين المسلمين في أوقات لاحقة مع ما وجد من عناصر السكان المحلية فتكون المجتمع الأندلسي باستقرار الفتح من خلاصة التراكمات البشرية على هذه الأرض وهم:

- المسلمون: (العرب، البربر، الموالي، الأسالمة والمولدون)
- سكان البلاد الأصلية: (النصارى، اليهود).

ولما كان المسلمون يمثلون العنصر الرئيسي في المجتمع الأندلسي ويكونون الجانب المهم من حديثنا فسنستعرض التركيبة الاجتماعية للجانب الإسلامي أولاً، وما يتعلق ببعض الفئات من قضايا مهمة:

أ. المجتمع الإسلامي: فئاته

تكون المجتمع الإسلامي في الأندلس من فئات متعددة شملت العرب والبربر والموالي والأسالمة وأبناءهم المولدين. وقد دخل العرب الأندلس ضمن أفواج متعددة عرفت بالطوالع وابتدأت بعملية العبور حيث ضم جيش طارق بن زياد جماعة من العرب كانوا قلة فلذلك لم يطلق عليهم طالعة طارق[١]، إلا أن الطوالع الرئيسية والمكثفة ابتدأت بطالعة موسى بن نصير (٩٣هـ/٧١٢م) وقدر عدد العرب فيها على أرجح الروايات بحدود ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب[٢]، ومن ثم طالعة الحر بن عبد

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص٣٣٥.

(٢) المقري، نفح الطيب ٢٥٢/١؛ مجهول، الرسالة الشريفة (ملحق بكتاب ابن القوطية) ص١٩٨؛ ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية، ص٧٦.

الرحمن الثقفي (٩٧هـ/٧١٥م) وعددهم اربعمائة رجل[١]، ورافق السمح بن مالك سنة (١٠٠هـ/٧١٨م) عدد من رجالات القبائل العربية، فضلاً عن طالعة بلج بن بشر القشيري (١٢٣هـ/٧٤١م) وطالعة الوالي أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي (١٢٥-١٢٧هـ/٧٤٢-٧٤٤م)[٢].

أطلق العرب الأوائل الذين دخلوا مع طارق بن زياد أو مع موسى بن نصير على أنفسهم (البلديون) وتعني التسمية أنهم أهل البلاد وأصحابها، والمالكين الوحيدين لها والذين تحملوا أعباء ومشاق الفتح الإسلامي[٣]، وعرف من تلاهم من طوالع بلج وأبي الخطار بالشاميين تمييزاً عنهم.

وتألف البلديون بشكل عام من رجال العشائر العربية الذين ينتمون إلى مختلف قبائل اليمن مع قلة تنتمي إلى عشائر أخرى من مضر وربيعة، أما طالعة بلج وأبي الخطار فقد كانت تمثل القبائل الشامية من القيسية ومن قبيلة كلب[٤]، وظلت أعداد العرب رغم هذه الطوالع قليلة فهي لم تكن تتجاوز بضع عشرات الألوف من المحاربين أو ثلاثين ألفاً أو أكثر من ذلك[٥]، إلا أن هذه الفئة رغم قلتها العددية كانت صاحبة النفوذ الأول في العصر الإسلامي على أرض الأندلس[٦].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥/٢.

(٢) عن هذه الطوالع ينظر: ابو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢) ص٤٣٠؛ مجهول،أخبار مجموعة، ص١٥؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص٤١؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ص٣٤/٢؛ وينظر: كذلك: عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط٢ (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٣٦) ص٤٠-٤١.

(٣) طه، التنظيم الاجتماعي، ص٣٣١.

(٤) مثنى فليفل سلمان الفضلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص٤؛ مؤنس، فجر ص٣٥٦.

(٥) بييرغشار: التاريخ الاجتماعي لأسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، ط٢ (بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩)، ج٢، ص٩٦٥.

(٦) ينظر في نفوذ وثراء العرب في الأندلس، مؤنس، فجر، ص٣٧٩، ٦٣٥.

وبعد انقضاء الطوالع الرئيسية توقفت الهجرات العربية الواسعة ولم تعقبها سوى إسهامات فردية، فبقي الباب مفتوحاً أمام هؤلاء لا سيما وأن الأندلس مثلت أرض جهاد ورباط ضد الأعداء فتوافد العرب المسلمون وبشكل متواصل إليها رغبة في نيل شرف الجهاد والمساهمة فيه.

مثل البربر العنصر الثاني والمهم في المجتمع الإسلامي الأندلسي، وكانت هجراتهم متواصلة دون انقطاع بحكم الجوار أولاً، والجاذبية الخاصة لشبه الجزيرة الايبيرية على بربر الشمال الأفريقي ثانياً ولأسباب سياسية ثالثاً، وكان اتصالهم الأول مع أرض الأندلس المسلمة من خلال جيش الفتح الإسلامي الذي كان أغلبه من البربر في إشارة مهمة إلى اندماجهم في المغرب مع العرب وتفاعلهم مع العقيدة الإسلامية(١).

وعلى الرغم من أننا لا نملك تقديراً للأعداد التي دخلت الأندلس من هؤلاء البربر إلا أنه دون شك كان كبيراً، وضمت جموعهم عدداً من القبائل المهمة والبارزة كالبتر والبرانس في شمال أفريقيا، وكانت المجموعة الكبيرة منهم في غالبيتها من مصمودة ويعود الآخرون إلى هوارة ونفزة وزناتة ومكناسة ومطغرة(٢)، ورغم هذا التنوع في قبائل البربر فإنهم بدوا كتلة واحدة ومتماسكة إلى حد بعيد، ولعل ارتباطهم الوثيق بالخلف (المغرب) منحهم إحساساً مشتركاً بالقوة والتماسك والانتماء الواحد.

وفضلاً عن هذا استقدم البربر وبشكل واسع منذ عهد الحكم المستنصر (٣٥٠هـ – ٣٦٦هـ) وبلغت سياسة الاعتماد عليهم في عهد الحاجب المنصور ذروتها مما شجع القبائل على النزوح إلى الأندلس فاحتل زعماؤها معظم المناصب وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها وخرج بعدئذ من هذه القبائل أمراء كثير من القواعد والثغور واقتسموا عدداً من إمارات الطوائف(٣).

---

(١) رغم اختلاف الروايات في تقدير عدد جيش طارق بن زياد إلا أنها تتفق على أن أغلبيته من البربر وليس فيهم عرب إلا قليل ينظر لذلك: ابن عبد الحكم، فتوح ص٧١، مجهول، أخبار مجموعة، ص٦، ابن خلدون ٤-٢/ص٢٥، الحميدي، صفة، ص٩؛ تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٤٥-٤٧، (نص ابن الشباط)، ص١٣٣-١٣٤. وعن مغزى هذا الأمر، سالم، تاريخ المسلمين ص٧١-٧٢، ص١٢٢، فليفل، مصدر سابق، ص٩-١٠.

(٢) طه، الفتح والاستقرار، ص٢٧١-٢٧٢؛ التنظيم الاجتماعي، ص٣٣٤؛ فليفل الحياة الاجتماعية، ص١٠.

(٣) محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤) ص٢٣٨-٢٤٠؛ وينظر عن هذه المسألة: ابن بلقين، التبيان، ص١٦-١٧؛ الصوفي، عصر المنصور، ص٧٩-٨٠؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص٨٤؛ عنان، دولة ١/ص٢٠٢.

- وتواجد الموالي من أول لحظات الفتح العربي للأندلس واتسم بالفردية أول الأمر إلا أنه ما لبث أن أخذ طابع الكيان المستقل كما نلمس من الأخبار التاريخية المتعلقة بهم، ويرجع هؤلاء في أصولهم[1] إلى أصل بيزنطي وإليه يرجع الموالي الذين اعتنقوا الإسلام في المشرق ورافقوا الشاميين القادمين إلى الأندلس[2]، وينتمي بعضهم إلى شمال أفريقيا وهم الأفارقة والبربر الموالين للعرب الذين اعتنقوا الإسلام ورافقوهم إلى الأندلس[3].

ويعود البعض من الموالي إلى أصول أسبانية ووجد هؤلاء على أرض الأندلس مثل بني غومس وبني غرسية وبني مرتين، وبني قارلة وكان ولاؤهم طلباً للمكانة الرفيعة والوضع الجيد.

- وفضلاً عن هؤلاء فقد انضمت أعداد كثيرة من (الصقالبة)، وقد أطلقت هذه الكلمة بادئ الأمر على الأسرى من العناصر السلافية[4]، ولكنها ما لبثت أن غدت تطلق على كل الأجانب الذين يخدمون في مصالح الدولة المختلفة ولعبوا دوراً مؤثراً في مجريات تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الأندلس[5].

- وضم المجتمع الأندلسي الأسالمة أو المسالمة[6] وهم الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام وأطلق على أبنائهم من بعد اسم (المولدين) ومثلوا الجيل الجديد من الأبناء الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات أسبانيات وكان عدد هؤلاء قليلاً أول الأمر إذا ما قيس

---

(١) طه، التنظيم الاجتماعي، ص٣٣٥-٣٣٦ (بتصرف بسيط).

(٢) من هؤلاء على سبيل المثال أمية بن يزيد الذي كان جده مولى لمعاوية بن مروان، ابن الآبار، الحلة ٢/ص٣٧٣.

(٣) مجهول، أخبار مجموعة، ص٩١.

وقد دخل قسم من هؤلاء مع المستقرين الأوائل فأطلق عليهم اسم الموالي البلديين ومنهم على سبيل المثال البربر الذين سكنوا في المدور حيث كانوا من موالي عشيرة فهر العربية، ينظر المصدر نفسه ص٤٢؛ أما الموالي الذين دخلوا مع الشاميين فأطلق عليهم اسم الموالي الشاميين وكان عددهم نحو ألفي رجل وبما أن الكثير من هذه المجموعة كانوا على اتصال وثيق بالأسرة الأموية الحاكمة فقد عرفوا بموالي بني أمية، طه، التنظيم، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٤) عن الصقالبة وبداية تواجدهم في الأندلس ينظر: أحمد مختار العبادي، الصقالبة في أسبانيا (مدريد: ١٩٥٣، ص٨-٩.

(٥) الصوفي، نهاية الخلافة، ص٨٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٨٤.

(٦) ابن حزم، الجمهرة، ص٩٦؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٨٤.

بأهل الذمة، ولكنه ابتدأ بالزيادة تدريجياً نتيجة لاعتناق أهل البلاد الإسلام وتأثرهم بـه وبمبادئه السمحة فأصبحوا يكونون معظم سكان الأنـدلس[١]، ومثـل هـؤلاء مختلـف الطبقات والفئات الاجتماعية فمنهم العبيد ورقيق الأرض والنبلاء والزراع وأهل المدن والحرف وغيرهم[٢]، وقد احتفظت لنا المصادر الأندلسية بأسماء بعض الأسر المولديـة الشهيرة مثل بني مردنيش وبني غرسية وبني انجلين وبني الجريج وغيرهم[٣].

ب. الاستقرار العربي الإسلامي ومدلولاته:

انتشر العرب المسلمون في الأراضي الأسبانية، وتركز استقرارهم على طـول خطوط الفتح الأول ابتداء من الجزيرة الخضراء حتى إقليم إشبيلية علـى طـول نهـر الوادي الكبير وفروعه متجهين نحو شرق الأندلس (بلنسية/ تـدمير/ لقنـت/ المريـة/ مالقة).

وبعد انتهاء مرحلة الفتح كان تعاقب دخول الفئات العربية الإسلامية إلـى شـبه الجزيرة الايبيرية وتوزعها على المفاصل المهمة فيها.

خضع استقرار العرب والبربر حينذاك لعامل الصدفة لا غير، وإذا كان البربـر أكثر إطلاعاً ومعرفة فيمكن ربط اختيارهم للمناطق الجبلية في الأندلس بالحقيقة التـي تشير إلى أن عدداً كبيراً منهم عاش في جبال شمال أفريقيا فليس من الغريب أن نجـد استقرارهم في مناطق تشابه أماكنهم ومواطنهم التي سكنوها في شمال أفريقيا[٤].

ويعبر المقري بوضوح تام عن طبيعة الاستقرار هذه بقولـه: ((كـان العـرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين، فاتسـع نطـاق الإسلام . . . وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا اختطوها واستوطنوها))[٥] فالعرب المسلمون كانوا يتقدمون عبر خطوط الفتح فما أن يأنسوا إلى خصوبة الأرض ووفرة المياه وتلاؤم الأجواء حتى يحطون الرحال بها، ولذا وجدنا عدداً مـن البربـر

(١) طه، التنظيم الاجتماعي، ص٣٣٧.

(٢) فليفل، الحياة الاجتماعية، ص١١-١٢.

(٣) ابن حيان، المقتبس ٣/١٦-٧٠-٧٤؛ مصدر سابق، ص٣٣٧.

(٤) يمكننا أن نضيف إلى تناسب هذه المناطق مع طريقة معيشة البربر أنها ساعدتهم علـى القيـام بحركات الانفصال والتمرد فيما بعد.

(٥) نفح الطيب ١/ص٥٨.

يستقرون في أراضٍ خصبة وسهلة[١] وذلك حسب تلاؤم أجواء المنطقة التي يمرون بها مع احتياجاتهم وطبيعتهم، على عكس الشام ومصر، فقد كان هناك مهندسون هندسوا استقرار المحررين وإسكانهم.

ومن الملاحظ أن مناطق الانتشار التي تقدمها لنا المصادر عن منازل العرب والبربر وغيرهم تبين لنا أن التوزع والانتشار ظهر على شكل تكتلات سكانية ذات انتماءات عرقية، وقد جرت العادة على إعطاء كل قبيلة أو عشيرة جزءاً من المدينة التي اختارت التوطن فيها فيصبح مستقرها، وقد يحمل اسمها، هذا لا يعني عدم وجود تداخل سكاني في كثير من المناطق[٢] ولكن غلبت عناصر وفئات معينة في كل منطقة من مناطق الأندلس التي أبسط ما يقال عنها أنها امتازت بالاكتفاء الاقتصادي الذاتي من خلال الخيرات الطبيعية التي انطوت عليها.

وتظهر دراسة الاستقرار العربي الإسلامي[٣] عدم عدالة توزيع الأرض نتيجة لتملك القبائل والجماعات والأفراد الأرض دون أية ترتيبات وضعها موسى بن نصير إنما حصلت عليها بقوة السلاح عنوة[٤] فوجدنا أن قبيلة كبيرة مثلاً كهمدان سيطرت على إقليم يضم أربعين قرية حمل اسمها[٥]، كما وسيطرت قبائل أخرى على مناطق غنية بالمعادن وبقية المصادر الطبيعية الغنية[٦]، وأن واحداً أو اثنين من الأفراد امتلك

---

(١) مثل كورة فحص البلوط والسهلة، وكثير من المصادر تسعفنا بمعلومات مهمة عن ذلك، ينظر: المقري، نفح الطيب، ١/ص١٦٦؛ ابن سعيد، المغرب ٢/ص٤٢٧؛ ابن حزم، الجمهرة، ص٤٩٩-٥٠٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص١٣٧-١٣٨.

(٢) من أمثلة الاختلاط في الاستقرار ينظر: ابن الفرضي، تاريخ العلماء ١/ص٣٣٩.

(٣) كان موضوع استقرار المسلمين في الأندلس محل عناية عدد من المؤرخين، ففي المصادر الأولية نجد المقري، نفح الطيب ١/ص٢٧١-٢٧٩، ابن حيان، المقتبس ٥/ص٤٠، ابن حزم في مواضع كثيرة من الجمهرة وفي موضوع خاص بمنازل البربر ص٤٩٨-٥٠٣، ابن سعيد، المغرب ١/ص٩٦، ٩٩، ١١٧-١١٨، وغيرهم، أما المحدثين فمن أبرزهم: مؤنس: فجر، ص٣٧٢-٣٧٤، طه، الفتح والاستقرار، ص٢٠٣-٣٢٧، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (عمان: دار الشروق، ١٩٩٧) ص١٤-١٥.

(٤) طه، الفتح والاستقرار، ص٢١١؛ التنظيم الاجتماعي، ص٣٥٨.

(٥) فضلاً عن قبيلة همدان هناك إقليم بني أسد، إقليم بني أمية، ينظر طه، الفتح ص٢٠٩.

(٦) مثال ذلك بعض المدنيين الأنصار الذين سيطروا على منطقة شوش الأنصار في كورة إشبيلية وهو منجما للملح وكذلك إقليم الشرف المشهور بخصوصية زيتونه الجيد، وسهل لورقة بتربته الخصبة ومزارع الكروم المتوفرة، ينظر: ابن حزم، الجمهرة. ص٣٤٣، ٣٦٤، ٣٦٥؛ العذري، نصوص عن الأندلس ص٢-٣، ص٦.

جزءاً أو إقليماً كاملاً[١] في حين وجدت قبائل أو عشائر أصغر لم تستطع الحصول على مثل هذه الأراضي الواسعة لاعتبارات عديدة منها دخولهم المتأخر إلى أراضي الأندلس[٢].

منازل العرب في الأندلس[٣]

أ- مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان

عدنان	قحطان
(إشبيلية ونواحيها)	
مرة بن ذبيان –غطفان – عك -	هوازن-جذام-الأشعر-جزيلة
غافق – هوازن بن عكرمة	ثوابة-بلى-لخم-مراد-لبص- الخيار بن مالك-الأنصار
(البيرة وغرناطة)	
خزيمة –أسد-مرة بن ذبيان	طئ-همدان-غسان-الحضارمة
نمير بن مضر	- - -
(وادي آش)	
خويلد	سعد العشيرة
(بطليوس)	
زهرة	حضارمة

(١) مثل إقليم زيدون في كورة سرقسطة، وإقليم سمح في كورة بلنسية، ينظر: العذري، مصدر سابق، ص ٢٤، ٤٠، ٩٠، ٩٢؛ الحجري، صفة جزيرة، ص١٧٠.

(٢) طه، التنظيم الاجتماعي، ص٣٥٨.

(٣) مؤنس، فجر، ص٣٧٢.

وهذا الإحصاء تقريبي اعتمد في بياناته على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت في ثنايا كلامهم إشارات لمنازل العرب في الأندلس؛ كما وأن هناك مناطق تكاثر العرب فيها من مختلف الانتماءات وكانت نقطة ارتكاز للإسلام في الأندلس –ومن هذه المواضع قرطبة مثلا- ولم تذكر في الإحصاء هذا لأن العرب من كل قبيلة نزلوها بحيث لا تجد قبيلا عربيا إلا كان منه في قرطبة وأشبيلية وأستجة ورية..الخ.

-مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمنيون)-

عدنان	**قحطان**
(سرقسطة ونواحيها)	
	خزرج – عذرة-قضاعة-تجيب كندة-حذام
(تدمير)	
ربيعة	جذام-دوس-غافق-حضارمة
(رية)	
نهد	جزيلة-خرزج-ذورعين
(مالقة)	
خزيمة	حضارمة
(شذونة)	
كنانة	جزيلة-عرمرم-جذام
(استجة ومورور)	
غافق	لخم-خشعم
(الجزيرة الخضراء)	
كنانة	خولان-بنو عذرة-لخم-جذام
ج- مواضع غالبية من نزلها من عدنان	
عدنان	قحطان
(جيان)	
ملكان-مزينة-شذور-ربيعة-غنم-أقصى	بنو منخل-جذام-مرة-عنس
(باجة ولبلة)	
- - -	عوف-زهرة
(أونية)	
خشين	سلول-الطماح-مطروح
طليطلة	
الزبارقة (تميم) –باهلة-كنانة	الأنصار

د- مواقع لم يسكنها إلا قحطانيون	
عدنان	قحطان
(قلعة رياح)	
- - -	خزرج – جذام
(دلاية)	
- - -	عذرة-قضاعة
(قرب صالح (قرب مالقة))	
- - -	غسان
(قلعة خولان)	خولان
برشلونة	
- - -	نجيب
(دار بلى (شمال قرطبة))	
	بلى
هـ- مواقع لم يسكنها إلا عدنانيون	
عدنان	قحطان
(مدينة مرسيه)	
ملكان-أفصى بن مصر	- - -
(طلبيرة)	
عوف	- - -
(بلنسيه)	
هوازن	- - -

منازل البربر في الأندلس[1]	
{البطون والقبائل}	{أماكن الاستيطان}
بنو رزين – بنو النعمان	السهلة

---

(١) ينظر:عن منازل البربر للاستزادة: ابن حزم، الجمهرة، ٢/ص٤٩٨ وما بعدها؛ مؤنس، فجر، ص٣٨٣-٣٨٤.

بنو ذي النون	وبذة
بنو الفرج – بنو النعمان	وادي الحجارة ومدينة سالم
بنو البرزالي	قرمونة
بنو اليفرني	برندة
بنو هرزون	شريش
بنو فرفرن	مدلين – ماردة
بنو الياس – بنو نبيه-بنو أبي الأخطل	شذونة
بنو سالم – بنو عوسجة	مدينة سالم
بنو مضي	قصر مضي
بنو زروال – بنو رسيس	المتنانية
بنو عزون – ملزوزة	شنتبرية
بني دانس	عند قصر أبي دانس
بنو الخروبي	شنت فيلة
مصمودة – زناتة	بلنسية
صنهاجة	مرسيه
مكناسة	نهر الابرو
بنو عمير	شالمية

أفرزت عملية التوزيع بالحيثيات المذكورة آنفاً مشاكل ارتبطت بالوجود الإسلامي وعلاقات إفراده الاجتماعية، فجعلت ظاهرة التكتل الأندلس وأقسامها تحمل بذور الانقسام من خلال تباعدها واكتفاءها وبؤرها السكانية هذا فضلاً عن الانقسام الطبيعي الذي وفرته جغرافية المنطقة فكانت عبارة عن إجزاء متعددة تربط بينها رابطة ضعيفة متمثلة بالسلطة المركزية، وشكل هذا نواة النزاع الداخلي من جهة، ونواة دول الطوائف قبل ظهورها بوقت طويل من جهة ثانية[1].

(١) كان للتكتل العددي والمانع الجغرافي والاكتفاء الاقتصادي دور بالغ في نشوء دول الطوائف وإنهاء السلطة المركزية الموحدة بل أن نواة الانقسام كانت موجودة منذ البدء من خلال هذا التكوين الاجتماعي، عن هذا الرأي يفيدنا: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف)، ط ١ (عمان: دار الشروق، ١٩٩٧) ص٧-٨؛ ص١٦-١٧؛ صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٥) ص٢٣-٣٤٥؛ العبادي المجمل، ص١٠٤-١٠٥.

وحمل عدم الانسجام بين مناطق الاستقرار والخيرات الاقتصادية وعدم المساواة مع باقي المستقرين بذور الصراع من أجل السيطرة على الأرض، والاستئثار بخيراتها(١).

ج. الفئات غير المسلمة في الأندلس

انضوت تحت سلطة الدولة الإسلامية في الأندلس فئات وطوائف دينية أخرى آثرت البقاء على عقيدتها، وتماشياً مع السياسية الإسلامية المتسامحة فقد منحت لهم الحرية الواسعة في كافة الجوانب الدينية والاقتصادية والاجتماعية.

ومثل النصارى الأكثرية بين هؤلاء فحصلوا على حقوقهم كافة وامتيازاتهم مما كان له نتيجة تمثلت بظهور (المستعربين) (٢) الذين آثروا استخدام اللغة والملبس والعادات والتقاليد العربية فكان أن تأقلمت هذه الفئة هوية دون عقيدة عكس المولدين الذين تأقلموا مع النظام عقيدة وهوية(٣).

ضمت أرض الأندلس اليهود إلى جانب النصارى، وقدم لهم المسلمون كل الإحسان والتسامح في المعاملة، ولذلك حصلوا على حقوقهم كاملة، وكانت أسماؤهم المذكورة في عوالم السياسة والاقتصاد والوظائف الإدارية دليلاً حياً على هذا الأمر(٤).

- نلمس من خلال هذا العرض السريع للمجتمع الأندلسي الخصائص والصفات الملازمة له، فقد اتصف هذا المجتمع كما رأينا بالتعدد في الفئات والتنوع في الأصول، وندرك ذلك من خلال متابعة لوحة الخليط السكاني حيث تجمعت على أرض الأندلس الفئات المتعددة، المتنوعة في هوياتها العرقية، المتناقضة في انتماءاتها السياسية والاجتماعية ومكانتها الاقتصادية، فاكتسب بذلك التكوين الاجتماعي صفات خاصة قل أن نجدها في مجتمع آخر من خلال اختلاف الأصول والأديان والتوجهات بالحدة والتناقض الذين نجدهما في تركيبة المجتمع العربي الإسلامي في الأندلس.

---

(١) طه، التنظيم، ص٣٥٨؛ وسوف نلتقي بأثارها هاتين الخاصتين على العلاقات الاجتماعية.

(٢) عن المستعربين ينظر: بحث: ميكيل دي ايبالزا: المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج١، ص٢٣٣-٢٦٧؛ عنان، دولة ١/ص٢٠٣، سالم، تاريخ المسلمين، ص١٣٠-١٣١، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٨٤.

(٣) بيضون، تارخ الدولة ص٢٦٦، لاندو، الإسلام، ص١٧٦.

(٤) عنان، دولة الإسلام ١/ص٢٠٣؛ سالم، مصدر سابق، ص٣٣.

٢. المجتمع الأندلسي . . . تميز الفئات

تعددت فئات المجتمع الأندلسي وتنوعت أصوله فظهرت بوادر انقسامه إلى فئات منفصلة غير مندمجة لكل واحدة منها خصائصها ومناطق استقرارها وتمركزها، ومراكز نفوذها، فالعرب والبربر كان التنظيم القبلي لهم هو السائد ويميزهم فعلياً عن باقي الفئات، وغير المسلمين كانت لهم استقلاليتهم وخصوصيتهم الواضحة، وإحيائهم المعروفة، كما وإن اليهود ظلوا منغلقين في أحيائهم، رغم مشاركة بعض رموزهم الاجتماعية والسياسة.

لذا بقيت مختلف العناصر العرقية والدينية التي يتكون منها المجتمع الأندلسي على شكل فسيفساء مكونة من مجموعات متجاورة أكثر مما هي منصهرة لمدة طويلة في خليط اجتماعي معقد)) [١]، وظلت هذه العناصر الاجتماعية شديدة التماسك فيما بينها على شكل تجمعات عشائرية وقبلية ودينية مؤكدة بقوة هويتها العرقية على الأقل حتى أواخر عقود القرن التاسع الميلادي، وهو عصر حدثت فيه اضطرابات سياسية خطيرة تعود أسبابها أساساً إلى التميز الاجتماعي والخلاف العرقي، إن الحكايات التي نقلت إلينا هذه الوقائع غزيرة التفاصيل وهي تظهر بوضوح وجود مجموعات عربية متميزة بعضها عن بعض في الأندلس[٢].

وعزز هذا التميز الاستقرار الإسلامي الذي عرضنا له وبدا على صوراً إقطاعات تخص قبيلة معينة أو عشيرة أو جماعة، بل أنه شجع الفئات الاجتماعية على التمسك بكيانها وطابعها القبلي أو العشائري أو الديني.

وتحققت حالة الاندماج والانصهار الاجتماعي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ، حيث استطاع ذلك بعد جهد كبير وسياسة متسمة بالمرونة والذكاء، ويمكن القول أن تحقيق استقرار سياسي وربط فئات المجتمع بالسلطة المركزية كان له دور أساسي في نجاح الناصر في مهمته تلك.

والمطلع على المصادر الأندلسية يجد احتفاءاً لكثير من أسماء الفئات الاجتماعية والتي برزت بوضوح قبل هذه السنوات، في حين تظهر لدينا بدلاً منها تسمية الكتلة

---

(١) غيشار، التاريخ الاجتماعي، ٢/ص٩٧٣.

(٢) م.ن، ص٩٦٦، وأكد عبد الحميد العبادي على تمييز عناصر المجتمع الأندلسي واحتفاظ كل واحدة منها بخصوصياته ومميزاته وحتى أماكن استقراره التي كانت ضمن أجزاء بعينها حملت أسماءها المجمل، ص١٠٤.

الأندلسية[١] في إشارة إلى بروز انتماء جديد يتوجه للأرض الأندلسية ويتغلب على الانتماء القبلي أو العرقي وأن بقي هذا الانتماء ضعيفاً مقارنة بانتماء الآخر.

ولكن السلطة العربية الإسلامية ما لبثت أن عملت على تعدد المجتمع الأندلسي وانقسامه وتنوعه من جديد عن طريق استقدام العناصر الوافدة (الصقالبة) والإكثار من استقدام البربر المجلوبين من العدوة للانخراط في الجيش الأندلسي، فعاد المجتمع للانقسام هذه المرة إلى ثلاث فئات متميزة هي (الأندلسيون، البربر، الصقالبة) وعليها دارت أحداث الفتنة فيما بعد وتشكلت على أثرها دويلات الطوائف، مما يؤكد أن المجتمع في الأندلس مجتمع متميز في كتل مختلفة[٢].

---

(١) بشير السيد عبد العزيز سالم إلى اختفاء الإنتماءات القبلية وفقدان مدلولاتها الجنسية والسياسية، وكذلك الحال للمولدين والمستعربين وابتدأ من عند الخليفة الناصر بدأ تعبير جديد يحل محلها هو (أهل الأندلس) عند ابن بسام، أو (الأندلسيون) عند ابن الخطيب، أعمال ص١٣١؛ و(العصبية الأندلسية) ص٨٧؛ و(العصائب الأندلسية) ص١٢٨.

ويشير ابن عذاري إلى البربر والأندلسيين كفرقتين متمايزتين، البيان المغرب، ٣، ص٤٧؛ وفي الفتنة ظهر هذا التمايز بشكل واضح فما قام من نزاع لم يكن بين العرب وحدهم وبين البربر لأن العصبية غدت أندلسية وليست عربية وأخذت تقاوم كل من البربر والصقالبة، ينظر:

السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤) ج١ ص١٢٥-١٢٦، ١٣١، خلاف، قرطبة، ص٢٣٥.

(٢) خالص، أشبيلية، ص٢٣.



المبحث الثاني
العلاقات الاجتماعية ... طبيعتها ... آثارها

انعكست طبيعة المجتمع الأندلسي على علاقات أفراده، فكانت أرض شبه الجزيرة الايبيرية مسرحاً لنزاعات داخلية ظهرت بأحد صورها في عصر الطوائف الذي لم يكن إلا صورة رسمية متبلورة للامركزية التي اختصت بها الأندلس من حيث طبيعتها الجغرافية وتكوينها الاجتماعي، مما أعطى الوجود الإسلامي صفة الانقسام والاضطراب الداخلي(١).

وانطوت المسألة هذه على خطورة بالغة تكمن في طبيعة وخصائص كل واحدة من هذه الفئات التي اتسمت بالطموحات الواسعة والميل نحو الاستقلالية أو كما عبر عنه ابن الخطيب ((شموخ الأنوف وقلة الاحتمال للطاعة)) (٢) وزاد من حدة هذه المسألة ما ظهر على هذه الفئات من نزوع نحو اللامركزية معتمدة على إرث تاريخي وسياسي معقد جداً سوغ لها العمل على تحقيق الاستقلال المحلي والانفصال عن السلطة المركزية.

وكان من الواضح مدى التقاطع والتضاد بين هذه الفئات في مفاهيمها وتوجهاتها فانعكس هذا على النزاعات العديدة التي شهدتها الأندلس المسلمة كما أن الحرص على المصلحة والفائدة جمع عدة فئات متضادة في سبيل تحقيق مصالحها والاستحواذ على الخيرات الوفيرة، وسنتبين طبيعة العلاقات الاجتماعية الداخلية بين فئات المجتمع الأندلسي من خلال متابعة خصائص الفئات نفسها:

١. العرب: علاقاتهم الاجتماعية

توافد العرب على الأندلس على شكل قبائل متفرقة فلم يدخلوا بصورة موحدة تحت راية إسلامية كما حصل في باقي الفتوحات، وتشير المصادر التاريخية إلى أن جيش موسى بن نصير ضم عدداً كبيراً من القبائل المتفرقة المنفصلة، حتى أن كل قبيلة

---

(١) أولى الكثير من المحدثين أهمية كبرى للعامل الاجتماعي ودوره في ضعف الوجود الإسلامي ومن هؤلاء: العبادي، المجمل، ص١٤٢، عنان، دولة الإسلام، ص٦٦، مختار العبادي، في تاريخ المغرب ص١٥٧؛ التواتي، مأساة انهيار، ص٤٨٣؛ بيضون، تاريخ الدولة ص٣٦٤/٢٦٦.

(٢) أعمال الأعلام، ص٣٦.

كانت تلتف براياتها وشعاراتها، فيذكر صاحب الرسالة الشريفة نقلاً عن محمد بن مزين أنه رأى ((سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات وذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدها نيفاً وعشرين راية)) [١] وأكد أنه باجتماع هذه الرايات في موضع المسجد الذي اتخذه موسى بن نصير سمي (مسجد الرايات) في الجزيرة الخضراء[٢].

وبقي التنظيم القبلي هو السائد في تواجد العرب المسلمين على أرض الأندلس، وظلت كل مجموعة من العرب نزلت بناحية معينة محتفظة بكيانها القبلي رغم الاختلاط والتزاوج مع سكان البلاد[٣]، ويؤكد المقري ذلك بقوله أن ((عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر... وقصد بذاك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء)) [٤].

وفضلاً عن ذلك دخلت القبائل العربية الأندلس وأذهان أبنائها لم تزل مشحونة ومملوءة بصور نزاعات الماضي وثارات القبيلة وذكريات أيام ومواقع مختلفة كان مجرد ذكرها شعراً أو نثراً أو حتى دعوة كافية لإثارة أحاسيس العداء والنزاع والقتال والمواجهات العنيفة، وليس ثمة تضاد بين حمل الإنسان ذاكرة قومه مع المفهوم الإسلامي إذا اتخذها وسيلة لتجاوز الاخطاء وتصحيحها وجعلها معرفة مهمة ومتفاعلة ومقيمة مع مبادئ الإسلام ومفاهيمه بهذا الخصوص وإذا ما جعل الانتماء لعقيدته سابق لأي انتماء آخر، إلا أن السلبية الخطيرة في هذا الأمر حين يحاول تمثل النزاع القبلي وعدم تجاوزه أو نسيانه إنما جعله حاضراً بصورة دائمة واعتباره واقعاً يجب تقبله في أذهان أفراد القبيلة، وتغليب التزامات الانتماء القبلي على الرابطة الإسلامية، وهو الذي وجد للأسف في الأندلس، فجعلت القبائل العربية أرضها مسرحاً لتصفية الحساب فيما بين بعضهم البعض وإذكاء ما قد خف وخبا العنصرية والقبلية[٥].

---

(١) ملحق تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٢٠٣.

(٢) م. ن ص٢٠٤؛ وعن هذه الفكرة والمفهوم ينظر: عبد الله أنيس الطباع: القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية، ط١ (بيروت: دار ابن زيدون، ١٩٨٦) ص١٨، ٤٩؛ ومقدمة كتاب ابن القوطية بتحقيقه ص٧-١٥؛ التواتي، مأساة، ص٦٥.

(٣) مؤنس، فجر، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٤) نفح الطيب ١/ص١٧٤.

(٥) حول الروح القبلية في العلاقات العربية يتحدث لنا عدد من المحدثين: ينظر: عنان، دولة ١/ص٦٦؛ الطباع، القطوف ص١٨؛ التواتي، مأساة ص٦٧.

نقل العرب بذلك خلافاتهم من مواطنهم إلى الأندلس روحاً وفعلاً فانعكس ذلك في علاقاتهم مع بعضهم البعض، وشهد عصر الولاة وما تبعه نزاعات عربية ذات صبغة قبلية واضحة خاصة ما كان بين القبائل المضرية واليمانية، وحتى لو لم يك جوهر بعض هذه الصراعات قبلياً فإن محركيها وزعمائها كانوا يبعثونها مضرية ويمنية شحذاً لقواتهم واستنفاراً لها وإذكاءاً لمشاعر اتباعهم القبلية ومن أجل كسب المزيد من المؤيدين لهم في نزاعاتهم(١) التي كان يفعّلها عدة عوامل(٢)، وكان بعضها يستمر لعدة سنوات ويخلّف خسائر كثيرة في الأرواح ولأسباب تافهة(٣)، لم تكن سوى الشرارة البسيطة التي تندلع بها نزاعات وخصومات كامنة في نفوس هذه القبائل وأبنائها وزعمائها(٤).

لم يقتصر النزاع العربي-العربي على الجانب القبلي (عصبية القبيلة) إنما تعداه ليظهر من أجل السيطرة على الأرض والاسئثار بها وبخيراتها والذي كان انعكاساً لخاصية الاستقرار الإسلامي تبلور بـ (عصبية الموطن)) فالعرب البلديون وأغلبهم من اليمانية عكسوا بقوة مدلول هذه التسمية الفعال والحقيقي حين وقفوا رافضين إسكان ومشاركة أية مجموعة عربية جديدة والتنازل عن أراضيهم التي استولوا عليها عنوة كما

---

(١) يشير ابن عذاري بوضوح تام إلى ذلك حين يقول: ((ثار سعيد بن الحسين الأنصاري... وأقبل إلى سرقسطة فأخرج منها واليها وضرب بين الناس ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة فأرسلها مضرية ويمانية...) البيان المغرب، ٢/ص٦٢.

(٢) تتزايد هذه الصراعات كذلك تبعاً لسياسة العامل أو الوالي فإن كان قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمانية وآذاها وأندلعت بينهما الحروب، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وقسى عليهم الخ.. ينظر مؤنس، فجر ص١٤٤؛ الصوفي، نهاية الخلافة ص٧٥.

(٣) من أبسط الأمثلة نزاع عام ٢٠٧هـ حيث نشب بسبب ورقة دالية جمعي مضري من جنان يمني بغير أمره فقتله اليماني وبطبيعة الحال أن هذا السبب كان ذريعة أو شرارة أيقظت النزاعات القديمة ومما يدلل على تأصل روح الخلاف أن الأمير عبد الرحمن بعث إليهم من يهدأ الفتنة ((فكفوا عن القتال – يقول ابن خلدون- لما أحسوا بوصوله ثم عاودوا الحرب عن مغيبه واقاموا على ذلك سبع سنين)) العبر ٢/٤/ص٢٧٨؛ وعن نزاع عام ٢٠٧هـ ينظر: العذري، نصوص ص٥؛ ابن سعيد، المغرب ١/ص٤٨.

(٤) ثمة مظاهر كثيرة للتنازع القبلي منها ما وصل لدرجة أن أهل الأندلس اجتمعوا على اقتسام الإمارة بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق وقيام دولة بني العباس بين المضرية واليمنية، وأدلتها بين الجندين سنة لكل دولة، ينظر: ابن خلدون، مصدر سابق، ص٢٦٩-٢٦١.

حصل عند دخول السمح بن مالك الخولاني، بل توجه جماعة يمثلون هؤلاء البلديين إلى دمشق يشكون إلى الخليفة ويهددون بالانسحاب من الأندلس وإخلائها فيما لو حاول اتباع السمح بن مالك أن يستقروا في أراضيهم[١]، كما رفض هؤلاء دخول الشاميين (طالعة بلج بن بشر القشيري ١٢٣هـ).

أوجد حب التسلط والتملك عند هؤلاء نوعاً من الأنانية دفعتهم إلى عدم السماح للفئات الأخرى بالمشاركة رغم حاجتهم للمساعدة وكأنهم بالفعل تملكوا أراضي الأندلس، وكانوا يقولون (أن بلدنا لا يحملنا وإياهم) شبه الجزيرة الايبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب[٢]!!.

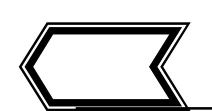
وعندما دفعت الظروف الملحة بحركات البربر إلى السماح لهؤلاء الشاميين بالدخول وانتهت مهمتهم رفض كل واحد من هؤلاء تنفيذ مطالب الآخر فاستولى الشاميون على السلطة بالقوة، وانسياقا وراء مبدأ عصبية الموطن انضمت الفئات المختلفة من البلدين ضد الشاميين فتجاوز هؤلاء الانتماءات القبلية والعرقية لصالح المصلحة الاقتصادية المشتركة.

دخلت الأندلس حينها في آتون صراع مرير ومؤسف استمر متواصلاً حتى مجئ أبي الخطار (١٢٥-١٢٧هـ)[٣] والذي وزع الشاميين على الأجناد المتشابهة في جوها وطبيعتها على ما كانوا عليه في مشرق الدولة فهدأت بذلك رياح التفرق

(١) حل الخليفة هذه المشكلة بأن منح اتباع السمح اقطاعات أخرى من حصة الخلافة وأصبح هذا الإجراء هو الطريقة المثلى لإسكان أية جماعات صغيرة أخرى من العرب تدخل فيما بعد إلى الأندلس، وظهر نفس الأمر عند استقرار عشيرة معافر، ينظر: الرسالة الشريفية، ص٢٠٢-٢٠٣؛ طه، الفتح والاستقرار، ص٢٤٠؛ التنظيم الاجتماعي ص٢٢٣.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص٦٣٥؛ ومما يعكس أثر العصبية ومدى تأثيرها أن والي الأندلس عبد الملك بن قطن رغم حراجة موقفه ومركزه وتعرضه لخطر جسيم وانطلاقاً من انتمائه إلى اليمانية لم يفكر في استدعاء قوات بلج القيسية المحصورة في سبتة رغم سوء أوضاعهم وتردي أحوالهم وهنا غلبت الانتماءات القبلية والمصالح السياسية على الروابط الإسلامية والعربية، ينظر السامرائي، الثغر الأعلى ص٢٨٨؛ وعن سوء أوضاع الشاميين وقتها ينظر: مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ص٣٠-٣١.

(٣) قتل في هذا الصراع عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر من بعده، وكانت طريقة قتل الأول تدل على القسوة وروح الانتقام وحضور الصراعات التاريخية القبلية فقد أخرج و((كأنه فرخ نعامة وهو ابن تسعين سنة أو أكثر . . . فأخرجوه وهم ينادونه يا فال فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بثارٍ الحرة، ثم بعث جند أمير المؤنين فأخرجوه إلى رأس القنطرة فقتلوه وصلبوا على يساره كلباً)) ينظر: مجهول، أخبار مجموعة، ص٣٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٣٢.



والخلاف، ثم ما لبث أن انساق هو الآخر وراء عصبيته اليمنية ضد المضرية[١] لتعود البلاد تدور من جديد في الدائرة نفسها.

٢. البربر . . . سياسة التغيير بالقوة:

مثل العرب والبربر عنصري الاستقرار الإسلامي الرئيسيين، وكان للبربر الثقل العددي في الأندلس، وبناءاً على مكانة العرب في الإسلام كونهم حملة رسالته والمجاهدين في سبيلها فقد اضطلعوا بالمراكز المتقدمة على أرض الأندلس، ورغم أن العرب كانوا قلة عددية إلا أنه كانت لهم الصدارة والثقل النوعي في البلاد[٢].

اعتقد البربر أنه من غير العدل وجودهم في مرتبة أدنى من مرتبة العرب وأن من حقهم على العرب الفاتحين وقد تحملوا مشاق أعباء الفتح معهم الاعتراف بنفس المكانة التي يحتلونها هم في هذا الوجود الذي لم يك في نظر البربر وجوداً عربياً قومياً بقدر ما كان وجوداً إسلامياً يضمن حقوق الجميع خاصة وأن الفضل الأول في تحقيق هذا الفتح كان من نصيب البربر الذي أسهموا بدور إيجابي مميز ومثمر حينذاك[٣].

---

(١) تردت أوضاع الأندلس وقتذاك بسبب هذا الصراع مما دعا جماعة من أهل الرأي في البلاد بأن يستغيثوا بوالي أفريقية فأرسلوا إليه أن أغثنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين حتى يصير المدنيون والشاميون على دعوة واحدة فقد أفنانا القتل. . .)) ينظر: العبادي، المجمل، ص٦٢ وما بعدها.

(٢) لم يلبث أبو الخطار مع مكانه من السداد أن تعصب لليمانية وفضلهم على المضرية فآل له الأمر إلى الخلع والفرار إلى جهة باجة في غرب الأندلس سنة ١٢٨هـ تنظر ترجمته ودوره في إنهاء صراع الشاميين، ابن الآبار، الحلة، ص٦١-٦٦؛ وعن بعض صور الصراع في وقته ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٣٤-٣٥؛ مجهول، مصدر سابق، ص٥٦-٥٧.
ويعلق أحد المحدثين على هذا التوجه بقوله: ((وسار أبو الخطار سيرة حميدة ولكن من الصعب على رجل عربي قح مثله أن يقمع تعصبه لقومه وسرعان ما مالت به العصبية اليمنية على المضرية فهاجت الفتنة من جديد)) ينظر: الشعراوي، الأمويون، ص٦٠، ويضيف أخر بأن ما حدث لأبي الخطار من تعصب لليمانية ليس بغريب حيث عاش فترة حالكة من حياته في بلاد المغرب ذاق خلالها المذلة والهوان على يد أمير القيروان القيسي المتعصب لقيسيته، عبيدة السلمي، ينظر: فيلالي، العلاقات السياسية، ص٥٨.

(٣) عن موضوع العلاقة بين العرب والبربر ينظر: مؤنس، فجر ص١٩٦؛ التواتي، مأساة ص٥١٢-٥١٣؛ العبادي، المجمل، ص٥٣؛ حمودة، تاريخ الأندلس، ص١٠١.

وافتقدت الأندلس إلى سياسة ولاة المغرب الذين حققوا الاندماج مع البربر هناك وبنجاح ملحوظ فغابت سياسة أبي المهاجر دينار وحسان بن النعمان وموسى بن نصير، واحتاج البربر إلى قائد يتعامل معهم تعاملاً ينطلق من موقف الآخاء لا الرئاسة، ويتبع السياسة التي تصل قلوبهم فتخلق فيهم طاقة كبرى لخدمة الدولة المسلمة، وفيما عدا نماذج قليلة ظهرت في الأندلس وتعاملت على أساس هذا الفهم فقد غابت تلك الأساسيات في تكوين علاقة متينة مندمجة ومتعاونة(١).

ولد كل ذلك شعوراً لدى البربر بأنهم دخلاء على المجتمع الأندلسي وأحسوا بنقص في الحقوق والامتيازات والمكانة التي لم تتناسب في نظرهم على الأقل مع مستوى ما هو مقدم من جهد لخدمة الدولة في الأندلس، وبقي هذا الشعور يرافقهم وأصبح صفة ملازمة لهم طيلة فترة الحكم الإسلامي فلجأ هؤلاء وزعماؤهم إلى طريق التمردات والعمل المسلح واستخدام القوة من أجل التغيير وتحقيق أهدافهم في الحصول على ما فقدوه.

ومن البديهي القول أنه لم يك كل قادة البربر بمستوى الإخلاص في حركاتهم هذه وتمثل قضية قومهم التي رفعوا شعار الدفاع عنها وأن أغلب سعيهم كان وراء مجد شخصي وتحقيقياً لرغبات شتى ولكن من الملاحظ استجابة فئات البربر المختلفة السريعة على تلك الدعوات مما يؤشر على توفر روح التمرد العارمة والنزوع نحو التغيير وأنه على الأقل وجد شعوراً بعدم الرضا عما هو موجود(٢).

وتركت أحداث المغرب آثارها في الأندلس حيث كانت مرتبطة عضوياً بولاية المغرب معنية بكل ما يجري على أرضها من أحداث وتطورات، فالأندلس يمثل جزء

---

(١) عن هذا الدور ينظر: أنور الجندي، الإسلام ص٢٦٢-٢٦٣؛ التواتي، ماسأة، ص٢١٠-٢١١.
في سياسة الإدماج مع البربر في المغرب وآثارها وإنعدامها في الأندلس وحول معاملة بعض الولاة للبربر وأثره في مواقفهم ينظر: العبادي:، المجمل ص٢٣-٣٠؛ الجندي، الإسلام ص٢٥٦-٢٥٧؛ بيضون، الدولة ص٤٦، ٦٨-٦٩؛ حمودة، تاريخ، ص٣٠-٣٢؛ طه التنظيم ص٣٤؛ الذنون، آفاق، ص١٨؛ فيلالي، العلاقات السياسية/ ص٤٤-٤٥.

(٢) لابد أن نشير مرة أخرى إلى ملاحظة ابن الخطيب المهمة في تعليل الثورات الكثيرة للعرب والبربر في الأندلس بأن من أسبابها ((علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال للطاعة)) لأن من دخل الأندلس من العرب والبربر كانوا أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض)) أعمال الأعلام، ص٣٦.

من تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي في ذلك الوقت تتأثر به وتنعكس عليها جميع مشاكله[1]، وهذا ما أكده صاحب الأخبار المجموعة ذلك ((أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة وثبوا في أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم وأخرجوا عرب استرقة والمداين التي خلف الدروب.. إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من البربر)) [2].

ساهم البربر في حركات التمرد والانفصال، ومتابعة سريعة لعناصر التمردات يوقفنا على الثقل الذي شكله البربر في أحداثها وتوجيه حركتها[3]. فضلاً عن الدور المضاد للفئات المجلوبة زمن الحكم المستنصر والحاجب المنصور[4] فقد رافق الازدياد العددي المكانة المتقدمة والسلطة النافذة مما أوجد اختلالاً خطيراً في الميزان العنصري، ورجحت كفة البربر على العرب فأفسح بذلك المجال لإيغار صدور العرب ضدهم[5].

وازداد طموح فئات البربر هذه بازدياد أعدادها ونفوذها ولعل كتاب (مفاخر البربر) يعبر عن مدى الآمال والطموحات التي كانت تجيش في نفوسهم، ومحاولة إقامة

---

(١) بيضون، الدولة، ص١١٢.

(٢) أخبار مجموعة ص٣٨، وهو (أي صاحب الأخبار المجموعة) ينفي أثر سوء المعاملة في ثورات البربر ويعطي للتأثيرات الخارجية الأولوية في تعليل تحركات البربر ضد السلطة المركزية في الأندلس، ص٣١-٣٢.

(٣) فضلاً عن تمرد البربر زمن ولاية عبد الملك بن قطن وأثره فقد ثار شقنا المكناسي في شنترية وإبراهيم البرنسي في مورور واصبغ بن وانسوس في ماردة وكذلك محمود بن عبد الجبار واخته جميلة في عصر الإمارة، عن هذه الثورات ينظر: أخبار مجموعة، ص١٠٧، ١١١؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٥٤-٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح ص٨٨-٨٩؛ ابن حزم، الجمهرة، ص٥٠١.

وفي فترة ضعف الإمارة خرج من البربر بنو موسى بن ذي النون في الثغر الأعلى وثار ابنا المهلب في كورة البيرة وبنو الملاح في جيان، ينظر: ابن حيان، المقتبس ٣/١٩-٢٥، ٣١.

(٤) تنحصر أسباب لجوء المنصور إلى ذلك برغبته في تفتيت الجبهة الداخلية إلى أطراف عدة يستخدم بعضها ضد الآخر في حالة التمرد والثورة، ابن بلقين/التبيان ص١٦-١٧، ويعد بروفنسال هذا التوجه بداية حركة تبربر القوات الحلافية Perbevisation، سالم مصدر سابق، ١/ص٨٣.

(٥) عنان، دولة الإسلام، ص٢٠٢؛ سالم، قرطبة ١/ص٨٤؛ فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية ص١٠.

صرح تاريخي لهم يثبتوا فيه موقعهم ضمن المجتمع الأندلسي، ويؤكد تفوقهم وسيادتهم، ويرد اعتبار البربر الذين ظلت النظرة إليهم على الدوام اقل من النظرة إلـى العـرب، وكما يتضح ذلك من مقدمة الكتاب[١].

لعبت هذه الفئات دوراً سلبياً بعد خلع عبد الرحمن (شنجول)[٢]، وركن سـليمان المستعين إلى البربر في هزيمة خصمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي وأنصاره مـن أهل قرطبة وكان انتصارهم سنة ٤٠٣هـ بداية للفتنة و((سبباً في تفريق البلاد وتملـك أصحاب الطوائف)) [٣] فقد قسم سليمان المستعين بعض كور الأندلس بين أنصاره مـن رؤساء القبائل البربرية إرضاءاً لهم وبذلك غلب العنصر البربري على دولته مما حمل خصومهم للفرار إلى شرق الأندلس خوفاً على أنفسهم من بطش البربر بهم، ولما تغلب هؤلاء على كل القوى قدر لقرطبة أن تتعرض لنقمة المستعين وأنصاره البربر الـذين استباحوا دماء أهلها وعاثوا فساداً في جنباتها ونثروا الخراب في عمرانها[٤].

ولعل سلوك البربر المبكر في الأعمال الانفصالية من أجل السلطة قـد تحقـق هدفه في عصر الطوائف حين نجح هؤلاء في تحقيق الاسـتقلال والانفصـال وقيـادة إمارات مستقلة عن السلطة المركزية[٥]، والمشاركة في الصراع السياسي الذي اتسم به

---

(١) مفاخر البربر، المقدمة؛ (حيث يشير إلى دوافع تأليف الكتاب بأنها محاولة لتغيير النظرة السـائدة للبربر والتي تتسم بالسلبية.

(٢) سالم، قرطبة ١/ص٨٥-٨٧ بتصرف.

(٣) ابن بسام، الذخيرة م١ ص٢٥.

(٤) وهب المستعين مثلاً البيرة لبني زيري بن مناد الصنهاجي وجوفي البلاد لمغراوة وجيـان لبنـي برزال ورندة لبني يفرن وشذونة وموررور لبني دمر وازداجة، عن هذا ينظـر ابـن الخطيـب، أعمال الأعلام، ص١١٩.

عن دور البربر السلبي والنقمة الشعبية من تزايد أعدادهم ونفوذهم ينظر عنـان، دور الطوائـف ص٣٦. وهو ينقل عن ابن حيان.

(٥) من أبرز إمارات البربر وقتها: دويلة بطليوس وحكمها بنو الأفطس من مكناسة وطليطلة وحكمها بنو ذي النون أو دويلة غرناطة وحكمها بنو مناد الصنهاجي، هذا فضلاً عن دويـلات صـغيرة ومن بني يفرن في رندة وبنو دمر في موررور، عنها ينظر: ابـن عـذاري، البيـان المغـرب، ٢٩٦/٣، ٣٩٧-٣١٤، ذيله ملحق به ص١٢٥، وعن خيار التوجه نحو الثورة، التواتي، مأسـاة ص٥١٨.

عصر الطوائف فضلاً عن الانخراط في سياسة التحالف مع العدو والتنازل لقاء إمـــداده عن حصون وقواعد أندلسية مهمة[١].

٣. الموالي . . . قوة تحت الطلب

ارتبط وجود الموالي في الأندلس بسنوات الفتح الإسلامي الأولى، ثـــم أخـــذت أعدادهم بالازدياد شيئاً فشيئاً حتى أخذوا يكونون كتلة متماسكة ومستقلة[٢].

وبرز من بين هؤلاء موالي بني أمية بشكل خاص ولعل ذلك يعود إلى أعدادهم ومكانتهم وإخلاصهم للأسرة الأموية، وكان هناك نحو خمس مئة من هؤلاء في كورتي البيرة وجيان بقيادة أبي عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد وأطلق اسمهم على أحد وديان البيرة مما يدل على كثرتهم[٣].

واختلف وضع الموالي في الأندلس عن مثيله في مشرق الدولـــة وظهـــر ذلـــك واضحاً من حيث المكانة الاجتماعية (الثراء)[٤] والسياسة (تسنم بعض المناصب) وبرز ت بيوتات من هؤلاء في مناصب سياسية وإدارية متوارثة وعلماء متخصصين بنـــواح مختلفة من العلوم الشرعية الإسلامية[٥]، وبشكل واضح لا نجد مثله في المشرق، إلا أن

---

(١) سجل انتصار البربر مع قوات المستعين بداية الاعتماد على القوى المسيحية بصورة سافرة فيمـــا بينها، عن هذا الموضوع ينظر: سالم، قرطبة، ١/ص٨٦.

(٢) يذكر بعض الموالي أول الأمر بصورة فردية من أمثال مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك وإسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم، ينظر: أخبار مجموعة ص١٠، ٢٣؛ ويرد ذكر الموالي بصورة مستقلة في طالعة بلج بن بشر، المصدر السابق، ص٣٨-٣٩؛ ابـــن القوطيـــة، تـــاريخ افتتاح، ص١٥، وأدى اضمحلال أمر الأمويين في المشرق إلى ازدياد أعـــدادهم وتـــدفقهم إلـــى المغرب والأندلس كما أورده صاحب الأخبار المجموعة ص٥٠؛ وينظر كـــذلك مـــؤنس قجـــر ص٣٩٩، فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية، ص١٦.

(٣) مجهول، مصدر سابق، ص٦٦؛ طه، الفتح والاستقرار، ص٤١٦، ٢٤٨.

(٤) كان بعض الموالي في مركز اجتماعي ومعنوي لا يقل عن مركز العرب وكـــان أهـــل الـــبلاد يعاملونهم على هذا الأساس فعلى سبيل المثال أهدى ارطباس بن غيطشة الزعيم العربي الصميل بن حاتم الكلبي وبعض السادة الشاميين عشر ضياع لكل منهم ووصفهم بالملوك وعاملهم كانـــداد للصميل وبقية القادة العرب، ينظر: ابن القوطية ص٦٠، ٦٣.

(٥) عملت سياسة الأمويين على ارتقاء الموالي إلى مناصب مهمة مثل القيادة والحجابة مثـــل بنـــي مغيث وبني شهيد، ينظر:
ابن الآبار، الحلة ١٣٢، مجهول، مصدر سابق، ص١٠، عنان، دولة ص٢٠٢، مـــؤنس، فجـــر، ص٤٠٨، وتدل تراجم علماء الموالي على مكانتهم ومنها على سبيل المثال: ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ١، ٣١٩،٢، ١٩٥، ٦٨، ٣٨، ١٣، ٤/٨-١٥٣، ٣٤، ٥؛ المراكشي، الذيل والتكملـــة لكتـــابي الموصول والصلة، (بقية السفر الرابع ولخامس) تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافـــة، د. ت) س٤، ص١٦، ١٤٥، ١٥٥، ق٢ ص٥٢٥.

ذلك لم يشمل كافة صنوفهم إنما الطبقات المتقدمة منهم والتي تمتعت بمكانة اقتصادية واجتماعية مؤثرة، فقد كان عامة الموالي على ما يبدو لا يختلفون عن فئات المجتمع البسيطة التي كانت تعيش في وضع أقل بمقارنتها مع أسلوب الأثرياء والمتنفذين في السلطة كما كانت ترنو إلى وضع أفضل وتحسين أسلوب معيشتها[1]، ففي إشارة مهمة للخشني (ت ٣٦١ هـ) يتبين عدم تقبل العرب فكرة المساواة الكاملة معهم، فيقول عن القاضي (عمر بن عبد الله بن ليث) أنه ((. . . أول من ولي قضاء الجماعة للخلفاء من الموالي فشق ذلك على العرب، وتكلموا فيه فبلغ ذلك الأمير محمداً -رحمه الله- فقال: وجدت فيه ما لم أجد فيهم، فقال العرب: أما القضاء فإنا لا نعترض فيه لأنه من سلطانه وأما الصلاة فإنا لا نصلي ورائه))[2].

وبقي في نفوس عدد من الموالي شيء من الحرج لانتمائهم إلى هذه الفئة وذكر لنا السلفي العبارة التالية في ترجمة الفتح بن خلف الأندلسي أنه (كان من سكان الثغر . . . واباه كان مولى ولا يستنكف من ذلك بخلاف غيره)) [3] ولابد من التأكيد بأننا لا نعمم هذين القولين على الوضع العام للموالي وإنما نشير إلى أن ذكرها يبين وجود مثل هذا الشعور في التعامل معهم من جهة وفي نفوسهم تجاه المجتمع الأندلسي من جهة أخرى.

- نظرت السلطة في الأندلس ومنذ وقت مبكر إلى الموالي بوصفهم كتلة كبيرة متماسكة لها ثقلها السياسي المهم، ولذلك حاولت إقامة الصلات معهم والاستفادة منهم في سير الأحداث الجارية مثل بعض ولاة الأندلس، فكان يوسف الفهري (١٢٩-١٣٨هـ) يعد هؤلاء الموالي من أتباعه ويتودد إليهم ويسميهم (موالينا) [4] كما وثق بعض الزعماء العرب صلاتهم بهم وحاولوا كسبهم إلى جانبهم مثل الصميل بن حاتم الذي كان موضع ثقة الموالي ويستشيرونه في قضاياهم المهمة[5].

---

(١) عن هذا العامل وأثره في انخراط عامة الشعب في أعمال التمرد ضد السلطة ينظر: خالص، إشبيلية، ص٥٩.

(٢) أبو عبد الله الخشني، قضاة قرطبة، ص٦٧-٦٨.

(٣) أحمد بن محمد بن أحمد السلفي: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق: إحسان عباس، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٣) ص١٠٦.

(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٤٦، وفضلاً عن ذلك فقد اعتمد على قوتهم في غزواته.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص٦٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٤٢-٤٣.

- وقد أدرك عبد الرحمن بن معاوية وهو يخطط لإقامة دولته هذا الأمر، فراسل من ملجأه في شمال أفريقيا هؤلاء الموالي الذين أيدوا قضيته ونصروه لما توقعوه من مكاسب وزيادة في رفعة الشأن بانتصارهم[1]. فضلاً عن تقديم الجميل لآل أمية بمساندة الداخل[2].

- كان دور الموالي بارزاً في قيام الإمارة الأموية في مرحلتي الاتصال والتنفيذ[3] وهو أمر أكد على أهميتهم ككيان مستقل وقوتهم والوعي السياسي الذي انطوى عليه زعمائهم والرؤية الشاملة للأحداث ومجرياتها.

- واستخدم الأمويون وفي مقدمتهم الداخل قوة الموالي في مواجهة النزاعات الداخلية مستفيداً من قوتهم العددية والمكانة والتكتل الذي بدا عليه هؤلاء، فلذا استعان بمواليه من البربر مثل بنو خليع وبنو وانسوس في القضاء على حركة حيوة بن ملامس الحضرمي وعبد الغافر اليحصبي حيث تمكنوا من إيقاع الفرقة والهزيمة في صفوف الثوار[4].

- شكل الموالي بمعنى آخر قوة جاهزة تحت يد الأمراء الأمويين ووسيلة فعالة يستخدمونها عن اندلاع حركات التمرد، وأن لم يتحقق هذا الإنجاز باستمرار فدوافع السلطة والمنصب والمكانة الواسعة والمراكز المتقدمة كانت تؤثر بدورها على هؤلاء الذين لم يتوانوا عن القيام بأدوار مضادة للسلطة العربية المسلمة في الأندلس حتى في

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٠٣.

(٢) عمل عبد الرحمن بن معاوية على إيغار صدور الموالي ضد القيسيين الذين كانوا يحترمونهم، وبين بالكتاب الذي بعثه بيد بدر حين كان في المغرب أنه سينقذهم من الفوضى والمنازعات القبلية بين القيسين واليمانيين والتي ابتلوا فيها، يقول مؤلف أخبار مجموعة: ((كتب إلى مواليه بالأندلس كتاباً يشكو فيه ما ابتلوا به . . . ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم)، ص٦٧.
وعن دور رابطة الولاء في موقف الموالي هذا ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (القاهرة، مطبعة الشعب، د. ت) ص٢٠٣؛ الأنصاري، الإمارة الأموية، ص١٠٩-١١٠.

(٣) عن دور الموالي في هاتين المرحلتين، الأنصاري، مصدر سابق ص٤٨-٨٠.

(٤) مجهول، مصدر سابق، ص١٠٧-١٠٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٥٠-٥١؛ سالم، تاريخ المسلمين ص١٩٧-٢٠٠.

زمن الداخل نفسه(١)، إذا ما تعارض الأمر مع مصلحتهم سيما وأن الموالي في الأندلس كانت لهم طموحات وآمال سياسية واسعة.

٤. المولدون: باحثون عن أمجاد الماضي:

دخل المولدون والمسالمة طرفاً مؤثراً في النزاعات الاجتماعية الخطيرة(٢) التي تطورت بشدة حتى بلغت أوجها خلال الفترة الممتدة من (٢٣٨-٣٠٠هـ) والتي حكم بها الأمراء محمد بن عبد الرحمن وولداه المنذر وعبد الله، وتجلت مساهمة المولدين في هذه النزاعات بتحركات عديدة كان من أبرزها تمرد عمر بن حفصون (٢٦٧-٣٠٣هـ) (٣) الذي مثل في حركته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين وحكومة قرطبة من الحفيظة والبغض(٤).

وتؤكد المصادر على دخول المولدين في خضم النزاعات الاجتماعية وسيادة روح العداء المستحكم الذي لم ينتج من فراغ وقتئذ بل كانت له جذوره العميقة في نفوس الفئات المتنازعة جميعها(٥)، وينص ابن حيان على ذلك بقوله ((واشرأبت نفوس الناس

---

(١) عن الثورات المضادة وجوهرها ودوافعها ينظر: الأنصاري، مصدر سابق، ص١٥٥-١٥٨.

(٢) شجع المولدين على السير في هذا الاتجاه تركز مجموعات منهم في مناطق جغرافية تساعد على الانفصال والتمرد كما مر بنا في فصل العائق الجغرافي، ينظر: ابن الخطيب؛ أعمال ص٣٦.

(٣) لم تكن حركةابن حفصون الوحيدة رغم أنها أخطرها حيث برزت الأسر المولدية في الثغر الأعلى كجبهة مناهضة للسلطة المركزية، فقد كون بنو قسي وبنو موسى بن فرتون ولاية مستقلة، وكذلك بنو عمروس وبني الطويل فضلاً عن بني مروان الجليقي وسعدون بن فتح السرنباقي، كذلك فإن أحد أسباب استمرار تمرد أهل طليطلة يعود إلى أن أكثر سكانها من المولدين والمعاهدين، عن هذا كله ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٩ وبعدها، ابن حيان، المقتبس ٣/ص١٦-١٧، ٢٣؛ وفي مواضع كثيرة ينظر موضوع ابن حفصون؛ ابن الخطيب، الإحاطة ١/ص١١٢ هـ(٢)؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص١٠٤-١٠٦، ١١٤-١١٥، ١١٦-١٢١،١١٩،١١٧-١٢٣.

وكانت هذه الأسر المولدية متناقضة في ولائها الذي كانت تعطيه حيناً لسلطة قرطبة المركزية أو أحياناً لا تتردد عن منحه للممالك الأسبانية التي ارتبطت معها بعلاقات مصاهرة وتعاون مستمر من أجل إنهاء الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

عن هذا الموضوع ينظر: الحجي، أندلسيات ٢/١٠٧-١٢٧، ونجد تحليلاً دقيقاً لدى السامرائي، الثغر، ٢٥٨-٢٨٩، ٣٣٧-٣٦٥،٣٤٣،٣٣٨.

(٤) عنان، دولة الإسلام، ص٣١٩.

(٥) برز العديد من زعماء العرب الذين استقلوا في هذه السنوات كذلك، ورغم أن حركاتهم أقلقت راحة الدولة الأندلسية في وجه من وجوهها، إلا أنها وكما يؤكد أحد الدارسين حملت لواء الدعوة العربية ضد المولدين، وكان لها أكثر من مسوغ تاريخي وسياسي وحضاري وديني وسكاني، ومن هؤلاء سعيد بن سليمان بن جودي في البيرة ومحمد بن أضحى الهمداني وبنو مهاجر التجيبيون الذين حكموا سرقسطة في انفراد تام وسوار بن حمدون الألبيري، ينظر: ابن حيان،

إلى فتنة وتفاقم في هذا الوقت ما بين العرب والمولدين والعجمة واستعلوا العصبية وتميزت أحزابهم بعضهم إلى بعض بكل جهة فعادوا في الجاهلية وتسافكوا في الدماء وأدانوا بالاستباحة وتحزبت المسالمة مع المولدين وتميزت إليهم نصارى الذمة فصار جميعهم إلباً على العرب قائمين بدعوة ابن حفصون إمام تلك النحلة)) [١].

وركن قادة المولدون في تجميع أنصارهم على قضية قديمة جديدة وهي معاملة العرب لهم وشعورهم بالنقص في حقوقهم العامة بالرغم من كونهم أهل البلاد الأصليين وتحملهم الضرائب دون المشاركة في ثروات البلاد ومناصبها الرئيسية[٢] فخاطب ابن حفصون اتباعه قائلاً ((طال ما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم)[٣].

وهذا الجانب من حركات المولدين أكد عليه المحدثون في تعليل ثوراتهم وتمرداتهم[٤]، وقد يكون له شيء من الصحة ولكنه على أي حال له خصوصيته التي لا يمكن تعميمها على قضية عدم استكانة المولدين وعدم طاعتهم ومساهمتهم في حركات التمرد والانفصال عن كيان الدولة الإسلامية في الأندلس وهو ما يحتاج إلى مراجعة وتوقف وروية اكثر في استعراضه، فمتابعة حركات المولدين تؤكد لنا أن الصورة التقليدية المأخوذة عنها لم تمثل كل الحقيقة.

المقتبس٣/ص٢٠-٢١، ٢٩-٣٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص١٣٧-١٣٨، ابن حزم، الجمهرة، ص٢٦؛ محمد رضوان الداية: سعيد بن جودي السعدي الالبيري الأندلسي (أحد ثوار الدعوة العربية وشعرائها بالأندلس) ط١ (دمشق، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧) ص١٣٢.

(١) المقتبس ٥١/٣.

(٢) العبادي، المجمل، ص١٢٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص١١٤.

(٤) يشير مختار العبادي إلى شعور المولدين بالنقص في حقوقهم العامة (في تاريخ المغرب ص٢٠). ويؤكد صلاح خالص على ذلك (إشبيلية ص٣١) ويفسر عبد الكريم التواتي حركات التمرد التي قام بها المولدون بذات الأسباب ويضيف أنهم: ((ارتأوا أن يأخذوا على عاتقهم ولحسابهم الخاص إيجاد المكانة اللائقة بهم ضمن هذا المحيط الذي تتألف منه الأندلس . . . فقد قرروا ليأخذوا مكانتهم أن يعلنوا متى ما قدروا التمرد على أولئك الذين أخذوا في أيديهم دواليب السلطة المركزية . . . وإن مشكل المولدين حدث يوم رأى أذكياؤهم كيف أنهم خدعوا تحت شعار الدين . . .)) مأساة انهيار، ص٤٩٦.

لم يفقد المولدون شخصيتهم الذاتية بوصفهم أسبان الأصل رغم إسلامهم[١] فظلوا معتزين على الأغلب بأصولهم الأسبانية، واحتفظوا لذلك بأسمائهم القديمة أمثال: بنو مردنيش وبنو انجلين وبنو غرسيه وغيرها[٢]، بل حاولوا تعزيز شعورهم بالفخر بأصلهم هذا من خلال علاقات المصاهرة التي جمعت الأسر المولدية ونصارى الشمال[٣].

أدت رواسب ومكانة الماضي إلى تحريك شعور المولدين بالتمرد والعمل على تغيير الوضع القائم وإعادة ما كان لهم في ذلك التاريخ، وعزز هذا التوجه اعتدادهم بأنفسهم والكبر والزهو والانتقاص من العرب، وحدثنا القاضي عياض عن أحد رموز هؤلاء وهو عبد الله بن حسين المعروف بابن السندي وبأنه ((غلب عليه الكبر والزهو وشدة العصبية للمولدين والتنقص بالعرب والحفظ لمثالبها ومناقب الموالي . . . وكان لا يرد سلاماً على أحد ولا يبتدئه به)) [٤] ليس هذا فحسب بل أنهم حاولوا على الدوام تعزيز فكرة أنهم أصحاب الأرض الحقيقيين[٥].

هدف المولدون من تحركاتهم تلك إيجاد كيان مستقل لهم وسط المجتمع الإسلامي في هذه المنطقة والتنكيل بالقبائل العربية[٦] فغدت أغلب تلك الحركات ((عصبية للمولدين على العرب)) كحركة عبد الرحمن الجليقي[٧] وابن حفصون التي لم تبعد أهداف حركته التي جاهر بها عن هذا[٨].

---

(١) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٨٦.

(٢) ابن حيان، المقتبس، ٣/ص ٧٠، ٧٣، ٧٤؛ سالم، تاريخ، ص١٨٨، فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية، ص١٣.

(٣) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٣٣٨.

(٤) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٤/ ص٤٥٤.

(٥) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٣٠١-٣٠٢.

(٦) يقول العذري معززاً هذا الرأي: ((وقتل لب بن موسى عرب سرقسطة من قبائل شتى أخرجهم إلى بقيرة فقتلهم بها بمرج يعرف بمرج العرب وذلك في سنة ستين ومائين)) نصوص عن الأندلس ص٣١.

(٧) ابن حيان/ المقتبس ٣/ص١٥.

(٨) جاهرت حركة ابن حفصون بأمور كثيرة منها:

أ- العداء للدولة الأموية. ب- العداء للعرب ومناجزتهم الحرب وإنتهاب ما بأيديهم وقد أثر عنه كلام كثير في هذا المعنى. ج- التقوي بدول الشمال المعادية للوجود الإسلامي في الأندلس.

ولذلك نلمس في تمردات هؤلاء الجانب الشعوبي وبشكل واضح جداً[1]، فلا يمكننا بالتالي دراسة هؤلاء بمعزل عن النظرية الشعوبية التي مثل المولدون أول تحركاتها في الأندلس[2] كما كان يذكي نارها دعاتهم وفي مقدمتهم عمر بن حفصون، ومن هنا ارتبطت حركة يحيى بن صقالة وسوار بن حمدون وسعيد بن جودي ومحمد بن أضحى باسم العرب وبيوتاتهم والعصبية للعرب وعدوا من زعماء الدعوة العربية في الأندلس[3].

أما شعارات المولدين فكانت وسيلة سياسية لكسب الأنصار والمولدين حيث استغل دعاتهم ظاهرة تدني مستوى المولدين وبعض صور المعاملة السيئة من قبل عمال الإدارة الأموية[4]، فغدت حقوق المولدين وإنقاذهم من (ظلم العرب) في مقدمة شعارات حركاتهم السياسية.

كانت صدور ونفوس أولئك تجيش بعوامل التمرد والانتقاض وعدم الاستكانة والطاعة قبل أن تلحق بهم أية إساءة، فلذلك كان المولدون مصممين على تحقيق أهدافهم بغض النظر عن الوسيلة، بما في ذلك التعاون مع العدو[5] أو حتى الارتداد عن الإسلام[6]، ولا ندري حقاً هل أن وضع المولدين له علاقة بتلك الأساليب أم أنها

د- إفساد الحياة الاقتصادية ومد اليد إلى ممتلكات العرب وإثارة الرعب والفوضى والقتل يميناً وشمالاً. هـ- التعاون مع متمردين مثله يفسدون على الدولة كأصحاب الثغر الأعلى. ينظر: الداية، سعيد بن جودي، ص٣٣.

(١) م. ن، ص٣٥.

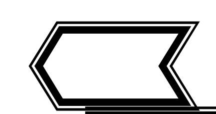
(٢) فاروق عمر فوزي ((من مظاهر الحركة الشعوبية في الأندلس))، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٢، (بغداد: ١٩٨٧) ص١٥٥-١٥٦.

(٣) ذكر ابن حيان في صفة يحيى بن صقالة بأنه أول الثوار بالدعوة العربية، المقتبس ٣/ص٦٥.

(٤) كانت منطقة رية والجزيرة موطن ثورة ابن حفصون قد نشبت فيها، حركة شعبية ضد عمال الإدارة الأموية سنة ٢٦٥هـ إذ تعسفوا في جباية بقايا العشور المتأخر عن الأهالي وأنها كانت مقدمة لحركة ابن حفصون الواسعة، ينظر: الحريري، حركات، ص١٩-٢٠.

(٥) برزت صور عديدة لذلك مثل تعاون بني قسي مع صهره غرسيه ملك نافار وبني مروان الجليقي والسرنباقي مع الفونسو ملك قشتالة ورغم بعد ثورة ابن حفصون عن مراكز الممالك الشمالية فقد جرت مباركة لها من قبيل الفونسو الثالث ملك ليون وعقد حلف بين ابن حفصون وغرسيه ملك نافار، وكانت هذه العلاقة قائمة على أساس المصلحة المشتركة وتقوى وتضعف على أساس الوضع العام في قرطبة فضلاً عن أنها تتم مقابل ثمن غالٍ حيث يحصل هؤلاء على المعلومات المفيدة لهم أو يشاركونهم في الحرب ضد المسلمين، عن ظاهرة التحالف بين هؤلاء الثوار والممالك الإسبانية ينظر: الحجي، أندلسيات ٢/ص١٠٧-١٢٧.

(٦) تذكر لنا المصادر التاريخية تنصر فرتون بن محمد بن لب (الجمهرة لابن حزم ص٥٠٣) وتنصر عمر بن حفصون، وربما يحمل اعتناق ابن حفصون للنصرانية بعض الخصوصية إذ أنه



الحيثيات المذكورة سوغت لهم ذلك؟ ويبدو أن الإسلام لم يك قد تحول حينها إلى عقيدة وثقافة لمعظم المولدين في الأندلس.

٥. العناصر الوافدة (الصقالبة)-التأزيم من خلال حل الأزمة

زاد م الوضع الاجتماعي تعقيداً باستجلاب الأعداد الكبيرة من العناصر الأجنبية في محاولة لتجاوز حالة التفرق والنزاع الذي ظهر بـــه المســـلمون وخاصـــة القبائـــل العربية، فضلاً عن ارتياب بعض الأمراء الأمويين وفي مقدمتهم الداخل بالعرب والذي دفعهم إلى كسر شوكة الفئات المتنفذة في المجتمع وإبعاد البيوتات من أولي البأس والجاه عن مراكز القوى والنفوذ وعمد هؤلاء كذلك إلى اصطناع عناصـــر اجتماعيـــة تـــدين بالولاء لشخص الأمير أو الخليفة وتضطلع بعبء العمليات العسكرية الخارجية[١].

فتحت أبواب الأندلس لهذه العناصر المختلفة في أصولها، وبدأ هؤلاء بالتغلغـــل في كافة مناحي الحياة الأندلسية، وأخذت أعدادهم بالازدياد وبصـــورة كبيـــرة فـــذكر المؤرخون أعداداً لهم رغم تباينها إلا أنها تدل على الثقل الاجتماعي الذي أخذ الصقالبة يشكلونه في الأندلس[٢]، ليس هذا فحسب بل برز العديد منهم في وظـــائف اجتماعيـــة وسياسية مهمة، وظهر منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة، كما استطاع بعضهم من تكوين ثروة طائلة وامتلاك العبيد والأراضي الشاسعة[٣].

جاء بأثر عكسي حيث انفض عنه معظم اتباعه، كما وإنه أكد على تذبذبه حيث سبق له إعطـــاء ولائه لعبيد الله الشيعي وبايعه. ينظر: مؤلف مجهـــول: ذكـــر بـــلاد الأنـــدلس، ج١/ص١٥٦؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٨٧.

(١) عن إشكالية اللجوء إلى هؤلاء ينظر: عبد الرحمن العسلي: عبد الرحمن الداخل (صقر قـــريش) ط١ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٠) ص١٨٥؛ وعلاقة ذلك بافتقاد مبررات العمليات العســـكرية والجهادية، خالص، أشبيلية ص٧٤؛ وكان الحكم الربضي أول من جند المرتزقـــة واتخـــذ هـــذه العناصر الذين سموا وقتها بالخرس لعجمة ألسنتهم وبلغت عدتهم فيها خمسة آلاف مملوك، ينظر ابن الأثير، التاريخ، ص٩٣.

(٢) يقول صاحب ذكر بلاد الأندلس ((انتهى عد الصـــقالبة الـــذين يخـــدمون القصـــر ويحرســـونه ويحرسون أبوابه ستة آلاف صقلبي وسبعمائة وستة وثمانين صـــقلبياً.. وكـــان عـــدد الصـــقالبة بالزهراء ثلاثة آلاف خصي وتسعمائة وخمسين حضياً وكانت جرايتهم من اللحم في كل يوم دون سائر أهل القصر ستة آلاف وثمانمائة رطل سوى الصيد وأصناف الطير والحوت)) ص٣٧٢.

(٣) من أبرز تلك الشخصيات دري الرئيس الأعلى للشرطة وافلح صاحب الخيل وقنـــد الـــذي حكـــم طليطلة وطرفة صاحب المطبخ وخلف مدير الطراز، وتليد المشرف على مكتبة الحكم المستنصر وديدان الصقلبي الصيدلاني، كما يؤشر صاحب ذكر بلاد الأندلس على علو شأن الصقالبة زمـــن عبد الرحمن الأوسط بقوله: ((وغلبت عليه طروب حتى كان يشاورها في كل أموره وكانت تبرم الأمر دونه مع نصر الخصي فلا يرد شيئاً مما تبرمـــه) ص١٤٢، وعـــن مكـــانتهم فـــي عهـــد المستنصر، ينظر: ابن حيان، تج الحجي ص٦٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٢٣٥؛ وعن

حقق استخدام الصقالبة إيجابيات أولية دون شك إلا أنه كان سلاحاً ذو حدين وعلى الرغم من فوائده المبكرة فإنه ما لبث أن أحرز نتائج سلبية وخطيرة وحادة تمثلت بزعزعة بنية الكيان الاجتماعي المسلم في الأندلس، وتغلغلهم في مرافق الدولة الرئيسية واضطلاعهم بمهمات خطيرة وتواجدهم داخل قصور الأمراء والخلفاء والمشاركة في أدق تفاصيل الحياة الاجتماعية لأسر هؤلاء مما كان له تأثير سلبي خطير.

وأدى الإكثار من هذه العناصر وارتفاع مكانتها إلى اضطراب العلاقة مع أهل البلاد الأصليين والمسلمين الفاتحين، فتحول استخدام الصقالبة الذي كان أول أمره علاجاً لأزمة قائمة إلى جزء من الأزمة لا جزءاً من الحل بعبارة أخرى عمل وجود الصقالبة على تأزيم الوضع الاجتماعي الأندلسي لا حل أزمته المعقدة.

كما أن هذه الفئات بتكلتها داخل القصور وحول السلطة الحاكمة شكلت أسيجة بشرية ابتعدت بالأمير والخليفة عن شعبه وضيقت من محاولات الاندماج معه شيئاً فشيئاً.

وانطوى أثر تغلغل الصقالبة في بنية الجيش المسلم على هزيمة القوات الإسلامية في معركة الخندق عام ٣٢٧هـ/٩٣٩م في عصر الخليفة الناصر، حيث فقدت الوحدة بين صفوف الجيش الإسلامي والسبب الرئيسي لذلك هو تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكه (نجدة) الصقلبي قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو والثاني ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة نافار، فأثر هذا على معنويات العرب في الجيش والذين تذمروا من ذلك وأقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة فأدى ذلك إلى الهزيمة وقتل (نجدة) وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة[١] ويقول صاحب الأخبار المجموعة أن عبد الرحمن الثالث لم تك له بعد غزوة بنفسه) [٢].

إشارات أخرى، يراجع: ابو الحسن عبد الله النباهي، تاريخ قضاة الندلس (المسمى المرقبة العليا) (بيروت: د. ت)، ص٩٠؛ ابن القرضي، تاريخ العلماء ٩٦/١؛ العبادي، الصقالبة، ص١٢/١١؛ خلاف قرطبة ص٢٥١/٢٦١.

(١) العبادي، الصقالبة ص١٢-١٣؛ وعن أسباب هزيمة الخندق: ينظر: ابن حيان المقتبس ٤٣٣/٥ وما بعدها ابن الخطيب، أعمال ص٣٧؛ ابن الآبار، الحلة، ٢٧٢ هـ (٢) العبادي، المجمل ص١٢٢-١٢٣، طه وآخرون، تاريخ العرب، ص١٦٤، الخفاجي الدولة، ص٢٢٠-٢٢١ سايمون حايك؛ الناصر لدين الله أول خليفة في الأندلس (دار النشر للجامعيين، ١٩٦٢) ص١٠١-١٠٢.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة ص١٥٥-١٥٦، العبادي، مصدر سابق ص١٣-١٤.

وبلغ الصقالبة شأوا بعيداً في مؤسسات الدولة لدرجة أن المؤرخين يحدثونا عن ظروف وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦ هـ) [١] وكيف حاول فائق وجؤذر الصقلبيين إخفاء خبر موته ليحولا دون المناداة بورثيه للملك لأنه طفل صغير وحاولا ترشيح المغيرة من أحفاد عبد الرحمن الثالث.

وكما لمسنا النزعة العنصرية لدى البربر من قبل ومحاولة إقامة قاعدة تاريخية وأدبية لبني جلدتهم فقد ازدادت طموحات الصقالبة في الإطار نفسه وعزز ذكر كتاب (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة[٢]، هذا الأمر، فمن عنوان الكتاب تظهر لنا نزعة المؤلف نحو إظهار فضل الصقالبة على الأدب والشعر العربي وتفوقهم على (العنصر العربي) في هذا المضمار وهذا ما دفع أحد المستشرقين إلى اعتبار هذا الكتاب البداية الأدبية الأولى نحو الشعوبية في إسبانيا[٣].

---

(١) وجد الصقالبة حينها من يقاوم أهدافهما أعلاه متمثلة بأشخاص جعفر المصحفي والمنصور بن أبي عامر، عن ظروف وفاة المستنصر ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص٢٦٠، مجهول، مصدر سابق. ص٧٢-١٧٥؛ ابن الخطيب، اعمال ص٢٤٢، ص٢٦٠، ابن بسام، الذخيرة ٤/ص٣٦.

(٢) يذكر ابن الآبار هذا الكتاب وينسبه لحبيب الصقلبي من فتيان الأموية بقرطبة، ينظر التكملة ١/ص٢٥٣.

(٣) العبادي، الصقالبة ص١٦-١٧ والرأي لجولدزيهر.

- وكانت بوادر التوجهات الشعوبية قد ظهرت في مماحكات قائمة على أساس العصبية بين العرب والمولدين ولكن ظهرت بشكل واضح في عصر الطوائف وأن قيام الدويلات الصقلبية كان له دور كبير في قيام حركة الشعوبية في أسبانيا، فإليها، كما يقول ابن حيان، لجأ كثير من موالي المسلمين من الأجناس المختلفة، ومنها انبعثت تصريحات شعوبية قوية كان لها أثر ملموس في الأدب الأندلسي حتى القرن السابع الهجري وفضلاً عن الكتاب أعلاه فإن رسالة أبي عامر بن غرسيه إلى أبي عامر بن عبد الله بن الحداد الشاعر في بلاط المعتصم بن صمادح أمير المرية تمثل الأفكار الشعوبية بصدق، حيث يفضل فيها العجم على العرب صراحة وهي الوثيقة الوحيدة المحفوظة حتى اليوم لحركة الشعوبية في أسبانيا، عن هذه التوجهات وتحليل رسالة ابن غرسيه ينظر: أحمد أمين: ظهر الإسلام (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص١٥-١٦؛ العبادي، المصدر السابق، ص٢٧-٣٠، ونص الرسالة، ص٣١-٤٢؛ فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية، ص١٣-١٥، وينظر صدى الرسالة عند: المراكشي، الذيل س٥، ص١٥٤؛ ص٤٨٧،٣٣؛ س، ق، ص٢٤٩، ص٥، ص١٥٤.

ومن أبرز تأثيرات الحرية الواسعة التي منحت للصقالبة الصراع الذي نشب بينهم وبين الأندلسيين والبربر في فترة الفتنة التي لعب البربر دوراً كبيراً فيها ووقف الصقالبة موقف المعاونة لمختلف الأطراف الواحد ضد الآخر، وكان ذلك أشد تأثيراً من إعلانهم الانفصال والاستقلال مباشرة فهم بذلك أفادوا من تصفية الأجواء وتقليل الخصوم ليتمكنوا من إعلان استقلالهم، وفضلاً عن ذلك ساهم هؤلاء في حوادث الاغتيالات والتخريب والفوضى التي عمت الأندلس حينذاك[1].

وتمكن عدد من الصقالبة في عصر الطوائف من تأسيس الإمارات الإسلامية الصغيرة في الأندلس (طرطوشة، المرية، دانية، مرسية، بلنسية) وامتد سلطان هؤلاء على الشاطئ الممتد من نهر ابرو جنوباً حتى ثغر المرية والجزائر الشرقية (البليار)[2]، وتأثرت أحداث الأندلس التاريخية خلال هذه الفترة بهذه العناصر الوافدة، فغذت روح الانفصال والانقسام وأثارت صراعات أخمدت بعد جهد كبير ووقفت إلى هذا الجانب دون ذاك.

وتثار تساؤلات عديدة بعد افرازات هذه التجربة عن مدى إيجابية استقدام الصقالبة. والاعتماد عليهم في كافة مرافق الحياة الخدمية، والحريات الواسعة التي منحت لهم. وحين نربط بين الفعل ونتائجه نتساءل: ألم يك استخدام الصقالبة خطأ فادحاً؟ ألم يك ذلك سبباً في إثارة حنق الأندلسيين؟! ألم تك الحرية التي منحت لهم

---

(١) إحداث الفتنة طويلة ومؤلمة وكان يزيد من حدتها انتقام الفئات الواحدة من الأخرى ويؤكد المؤرخون مسؤولية البربر، ولى في إذكاء شعور العداء بين الفئات المختلفة كما ويعلل ابن خلدون أسباب الفتنة هذه فيقول ((دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها . . . فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين . . من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حيث ضعفت عصبية العرب، واستبد بن أبي عامر على الدولة، المقدمة، ص١٤٠.

(٢) من العوامل التي مكنت هؤلاء بإعلان استقلالهم تولي بعضهم مناصب رسمية قبيل فترة الفتنة فلما وقعت ونتج عنها فراغ سياسي وضياع للسلطة المركزية مما مكن هؤلاء من إعلان استقلالهم هذا، ينظر: فليفل الفضلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦) ص١١؛ العبادي، الصقالبة ص١٧، وعرض لدويلات الصقالبة ص١٧-٢٦؛ وعن المصادر ينظر: ابن عذاري، البيان ١٥٥/٣-١٦٧، ١٦٩-١٧٢؛ ابن بسام، الذخيرة ١/ص٤٠٨-٤١٢، ٦/٣-١٣، الحميدي، جنوة، ٢/ص٥٦٤-٥٦٦.

فضفاضة وواسعة وأكبر من حجمهم؟! ألم يؤثر ذلك في بنية المجتمع الأندلسي ويعمل على انقسامه من جديد بعد نجاح الناصر في القضاء على التمردات والفتن الداخلية، وإزاء ذلك كله ألم يك من الواجب بدلاً من اعتماد هذه السياسة كسب العرب إلى جانب السلطة وإنهاء حالة عدم الثقة والارتياب وفق أرضية إسلامية متوازنة[1] فالعرب عماد دعوة الإسلام وهم نهضوا بها وتمثلوها أساساً في حياتهم وسلوكهم وقاعدة لنهضتهم وبه نهضوا؟ ألم يك من الواجب اتباع سياسة دمج البربر الفاتحين كما حصل في المغرب فيكونوا فئة فعالة في كيان المجتمع الأندلسي.

أن اللجوء إلى الفئات الخارجية لم يحل المشكلة إنما عقدها وأعلن عن فشل السياسة الأموية في تحقيق الاندماج التام وخلق قوة حقيقية من داخل المجتمع نفسه بدلاً من اللجوء إلى الفئات الخارجية[2].

زعماء الطوائف وانتماءاتهم الاجتماعية:

أولاً: الأندلسيون:

١. بنو عباد في إشبيلية (٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م) سنة ٤٨٤هـ أصبحت ولاية مرابطية.
٢. بنو جهور في قرطبة (٤٢١-٤٦٢هـ/١٠٣٠-١٠٦٩م) سنة ٤٦٢هـ انضمت إلى إشبيلية.
٣. بنو البكري في ولبة وشلطيش (٤٠٢-٤٤٣هـ/١٠١٢-١٠٥٢م) سنة ١٤٤٣ انضمت إلى إشبيلية.
٤. ينو يحيى في ولبة (٤١٤-٤٤٤هـ/١٠٢٣-١٠٥٣م) سنة ٤٤٤هـ انضمت إلى إشبيلية.
٥. بنو مزيد في شلب (٤٣٨-٤٥٤هـ/١٠٤٦-١٠٦٢م) سنة ٤٥٤هـ انضمت إلى إشبيلية.

---

(١) يؤشر عبد الحليم عويس على أهمية تعميق مفهوم (الإسلامية) بين فئات المجتمع وتمثلها مبدءاً وسلوكاً ثم زيادة العمليات الجهادية الامتدادية لرد الاعتداءات وامتصاص المشاكل الداخلية، ينظر: الصفحات الأخيرة، ص١٤.

(٢)ينظر في الربط بين هذه المسألة وزوال حكم الأمويين عند عويس، م. ن ص١٤-١٥.

٦. بنو تجيب في سرقسطة (٤٠٧-٤٢٩هـ/١٠١٧-١٠٣٧م) سنة ٤٢٩هـ سيطر عليها بنو هود.
٧. بنو هود في سرقسطة (٤٢٩-٥٠٣هـ/١٠٣٧-١١١١م) سنة ٥٠٣هـ أصبحت ولاية مرابطية.
٨. بنو رزين في السهلة (٤٠١-٤٩٦هـ/١٠١١-١١٠٢م) سنة ٤٩٦هـ اصبحت ولاية مرابطية.
٩. بنو القاسم في البونت (. ..=٤٩٥هـ/...-١١٠٢م) سنة ٤٩٥هـ أصبحت ولاية مرابطية.
١٠. بنو صمادح في المرية (٤٣٣-٤٨٤هـ/١٠٤١-١٠٩١م) سنة ٤٨٤هـ أصبحت ولاية مرابطية.

ثانياً: **العامريون** (**ويمثلهم عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول**).

١. في بلنسية (٤١٢-٤٥٢هـ/١٠٢١-١٠٦١م) وخلفه ابنه عبد الملك الذي طرده المأمون ملك طليطلة واستولى علها سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م.
٢. في المرية (٤٢٩-٤٣٣هـ/١٠٣٨-١٠٤١م) استقل بها حاكماً معن بن صمادح.
٣. في مرسية (٤٢٩-١٠٣٨/٤٥٢-١٠٦١م) سنة ٤٥٢هـ خلفه ابنه عبد الملك وفيما بعد استقل بها حاكمها (أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر).

ثالثاً: **الصقالبة**: [١]

١. سابور الفارسي وابناه عبد الملك وعبد العزيز في بطليوس (...-٤٣١هـ/...-١٠٢٢م) سنة ٤١٣هـ سيطر عليها بنو الأفطس.
٢. مجاهد العامري وابنه علي في دانية (٤٠٠-٤٦٨هـ/١٠٠٩-١٠٧٥م) سنة ٤٦٨هـ انضمت إلى سرقسطة.
٣. خيران في المرية ومرسية (٤٠٢-٤١٩هـ/١٠١٢-١٠٢٨م) وخلفه زهير سنة ٤١٩هـ.

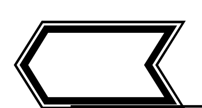
---

(١) المصدر: السامرائي: علاقات المرابطين، ص٢١-٢٤.

٤. زهير في المرية ومرسية (٤١٩-٤٢٩هـ/١٠٢٨-٣٨م) سنة ٤٢٩هـ خلفه عبد العزيز ملك بلنسية.
٥. مبارك ومظفر في بلنسية (٤٠٧-٤١٢هـ/١٠١٦-١٠٢١م) سنة ٤١٢هـ احتلها نبيل فطرده في نفس السنة عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول.
٦. نبيل في طرطوشة (...-٤٧٢هـ/...-١٠٣٥م) سنة ٤٢٧هـ طرده مقاتل الصقلبي.

رابعاً: البربر

١. بنو حمود:
أ. في مالقة ٤٢٧-٤٤٩هـ/١٠٣٥-١٠٧٥م) سنة ٤٤٩هـ انضمت إلى غرناطة.
ب. في الجزيرة الخضراء (٤٢٧-٤٥٠هـ/١٠٣٥-١٠٥٨م) سنة ٤٥٠هـ انضمت إلى إشبيلية.
٢. بنو زيري في غرناطة (٤٠٣-٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩م) سنة ٤٨٣هـ أصبحت ولاية مرابطية.
٣. بنو برزال في قرمونة (٤٠٤-٤٥٩هـ/١٠١٣-١٠٦٧م) سنة ٤٥٩هـ انضمت إلى إشبيلية.
٤. بنو يفرن في رندة (٤٣١-٤٥٧هـ/١٠٣٩-١٠٦٥م) سنة ٤٥٧هـ أنضمت إلى إشبيلية.
٥. بن دمر في مورون (moron) (...-٤٥٨هـ/١٠٦٦م) سنة ٤٥٨ انضمت إلى إشبيلية.
٦. بنو خزرون في اركش وشريش (٤٠٢-٤٦١هـ/١٠١-١٠٦٨م) سنة ٤٦١هـ انضمت إلى إشبيلية.
٧. محمد بن سعيد بن هرون في شنتمرية الغرب (٤١٧-٤٤٤هـ/١٠٢٦-١٠٥٢م) سنة ٤٤٤هـ انضمت إلى إشبيلية.
٨. ابن طيفور في مارتلة (...-٤٣٦هـ/...-١٠٤٤م) سنة ٤٣٦ انضمت إلى إشبيلية.
٩. بن الافطس في بطليوس (٤١٣-٤٨٧هـ/١٠٢٢-١٠٩٤م) سنة ٤٨٧هـ أصبحت ولاية مرابطية.



١٠. بنو ذنون في طليطلة (٤٢٨-٤٧٨هـ/١٠٣٦-١٠٨٥م) سنة ٤٧٨هـ احتلها الفونسو السادس ملك قشتالة.

٦ـ أهل الذمة: تسامح ونكران

أ - **النصارى**: منح المسلمون في الأندلس النصارى البلاد كل صور التسامح والرفق وعمدوا إلى إنشاء علاقات اجتماعية معهم ذات طابع إيجابي مثمر، فكان هذا جانباً مضيئاً وأصيلاً في تاريخ وحضارة مسلمي الأندلس[١]، ومنذ أعوام الفتح الأولى عكس المسلمون هذا التوجه مع أهل البلاد الذين بقوا على دينهم، وتزودنا المصادر التاريخية بوثيقة صلح فريدة في تاريخ الفتوحات الإسلامية لأنها وصلتنا كاملة وتعكس فقراتها روح التسامح الإسلامي[٢] وهي معاهدة الصلح المعقودة بين تدمير وعبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٤هـ) ولأهميتها نورد نصها.

بسم الله الرحمن الرحيم ((هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غندريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له وإلا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ولا يكرهون على دينهم وأن صلحهم على سبع مدائن أوريولة ومولة ولورقة بلنته ولقنت وايه والش وأنه لا يدع حفظ العهد ولا يحل ما انعقد ويصلح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتمنا خبراً علمه وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداء من قمح وأربعة أمداء من شعير وأربعة أقساط خل وقسط عسل وقسط زيت وعلى كل عبد نصف هذا))[٣].

---

(١) أولى الكثير من المحدثين أهمية خاصة في تبيان مظاهر التسامح مع نصارى الأندلس ومنهم عنان، دولة الإسلام. ١/ص٢٠٣؛ سالم، تاريخ، ص١٣٠-١٣١؛ الحجي، أندلسيات ١٩/٢-٣٦.

(٢) طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٤٠.

(٣) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٤-٥؛ وثمة اختلاف عند بعض المصادر الأخرى في نص الوثيقة، ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ترجمة، رقم ٧٩٥، مؤنس، فجر، ص١١٤-١١٥؛ عنان، دولة ١/ص٥٥-٥٦.

وعلى الرغم من أننا لا نملك نصوصاً أخرى مشابهة لمثل هذه المعاهدة إلا أنه المرجح أن المسلمين قد ساروا على نفس السياسة في مناطق أسبانيا الأخرى كما هو حال تصرفهم المتسامح مع أهالي إشبيلية(١)، ومع أهالي وشقة(٢).

تركت للنصارى حريتهم الدينية(٣)، وعاملهم المسلمون على أساس المساواة، ولم تسجل المصادر اية حادثة إكراه على اعتناق الإسلام، وبقيت أماكن العبادة دون المساس بها، بل سمح المسلمون لهم ببناء كنائس جديدة وما يريدون من الأديرة، وكانوا يقرعون نواقيسهم بحرية تامة(٤)، كما أن مسلمي الأندلس سمحوا للأساقفة المسيحيين عقد مؤتمراتهم ومجامعهم الدينية كمجمع إشبيلية (١٦٦هـ/٧٨٢م) ومجمع قرطبة (٢٣٨هـ/٨٥٢م) (٥) فضلاً عن احترام الممتلكات الخاصة وعدم المساس بها وفي مقدمتها ممتلكات أفراد الأسرة الحاكمة السابقة(٦).

وبقيت طليطلة مركزهم وفيها يقطن المطران الأول، وكان لهم رئيس في كل مدينة يعرف بالقومس (comes) أو زعيم نصارى الذمة، كما كان لهم قاضٍ نصراني يفصل في منازعاتهم يعرف بقاضي العجم والذي كان يحكم بموجب القانون القوطي(٧).

وفسح للنصارى المجال واسعاً للتفاعل مع فئات المجتمع وتولي الوظائف المختلفة، وبرزت شخصيات مهمة ومؤثرة تدل تراجمهم على الحرية التي تمتعوا بها وسط المجتمع الأندلسي، لدرجة أن عبد الرحمن الناصر أرسل إلى الإمبراطور الألماني

---

(١) يراجع: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص٣٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ص٢٤.

(٢) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٥٦-٥٧، الحميري، صفة، ص١٩٥؛ طه، التنظيم، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ثمة أمثلة عديدة لهذا ينظر عن بعضها: الخشني، قضاة قرطبة، ص١٠٧: القاضي عياض، ترتيب المدارك ٤/ص٤٥٩.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة ١/ص١٩٧؛ الحجي، أندلسيات، ٢/ص٢٢-٢٦.

(٥) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: ١٩٦٤) ص٢٧٦-٢٧٧؛ الحجي، أندلسيات ٢/ص٢٦، الحضارة الإسلامية ص٢٣.

(٦) ابن القوطية، تاريخ افتتاح ص٦٠؛ طه، الفتح والاستقرار، ص٢٥٩، التنظيم الاجتماعي، ص٣٣٨.

(٧) عنان، دولة الإسلام ١/ص٢٠٣، سالم، تاريخ، ص١٣٠، فليفل، الحياة الاجتماعية، ص٢٥-٢٦، طه، التنظيم الاجتماعي ص٣٣٨. وعن المصادر ينظر ابن القوطية، مصدر سابق، ص٣١، ابن حيان تحـ الحجي، ص٦٤، ص١٤٦.

أوتو الأول OTTOI سفارة بقيادة الراهب رثموند والأسقف القرطبي (ربيع بن زيد)[1]، واهتمت كتب الحسبة الأندلسية بتبيان أحكام النصارى وحقوقهم والواجبات المفروضة عليهم[2].

وتدل المصاهرات مع المجتمع الإسلامي في الأندلس والتي شاعت بصورة كبيرة على مدى التداخل والتأثر والتأثير سيما وأننا نجد أمراءاً عدة وولاة وخلفاء يقدمون على ذلك وفي مقدمتهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي تزوج بأرملة لذريق آخر ملوك القوط في أسبانيا وتسمت بأم عاصم، وكذلك الحكم المستنصر الذي تزوج من صبح البشكنسية، والمنصور بن أبي عامر الذي تزوج من تريسا ابنة برمودو الثاني ملك ليون[3].

تنكر النصارى لكل التسامح الذي أبداه المسلمون في الأندلس وبصورة سافرة ومتعددة، وارتبط ذلك بفترات ضعف وتراجع الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وكأن الفرصة بدت سانحة آنذاك لممارسة الأدوار السلبية المضادة.

شمل التنكر التطاول على رموز المسلمين الدينية والطعن بالدين الإسلامي ونبيه (عليه الصلاة والسلام) [4] وامتدت أيديهم إلى مراكز العبادة بالسوء[5]. وظهر التنكر

---

(١) ابن القوطية، مصدر سابق، ص١٠٢؛ الحجي، أندلسيات ٣٣/٢، العبادي، في تاريخ ص٢١٧-٢٢٧.

(٢) تمثل رسالتي ابن عبدون وابن عبد الرؤف (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، نشر: ليفي برونسفال (القاهرة: ١٩٥٥) مثالين مهمين على ذلك وهناك بعض الإشارات عند القاضي عياض، ترتيب ٤٢٧/٤؛ ابن فرحون، الديباج ٢٤٧/٢،٢٧٨.

(٣) ما ذكرناه أعلاه مجرد أمثلة بسيطة لهذه الظاهرة التي بقيت موجودة حتى عصر مملكة غرناطة، وكان لها أثر سلبي يمثل بتحلل الكيان الاجتماعي وإضعاف الترابط الأسري من خلال المنافسات الخطيرة المؤثرة على كيان الدولة ووجودها، عن كل هذا ينظر ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٤٣-٤٤، ص٢٥٣؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ص٣٧؛ ابن الخطيب، أعمال ص٤٢، ٦٦، ٧٣؛ الحجي أندلسيات ٧٥/١-٨٦، أمين، ظهر، ص٣٠-٣١؛ عنان، نهاية الأندلس، ص١٨٥، حتاملة/ محنة، ص١١-١٤. x

(٤) ابن عذاري، مصدر سابق، ٣/ص٩٧-٩٨؛ ومن صور مواقفهم في الفتنة، ينظر: القاضي عياض، ترتيب ٧٤٥/٤.

(٥) ابن عذاري مصدر سابق ٩٤/٣؛ فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية (ق٥-٦هـ) ص١٨-١٩.
والملاحظ أن هذه الاعتداءات كانت تتم في الوقت الذي لم يمتد الخراب الذي أصاب المدن الأندلسية وخاصة قرطبة إلى الممتلكات النصرانية ومراكزهم الدينية البتة وكانت تمارس شعائرها بحرية تامة ولا تؤشر كتبنا أية حادثة تخريبية لحقت بتلك المراكز، ينظر خلاف، قرطبة ٢٦٢، ٢٦٧.

النصراني في صورة أشد خطراً عندما عمل المعاهدون على الاتصال بالفونسو الأول (المحارب) ملك ارغون وعرضوا الخدمات له مجاناً فاستدعوه للاستيلاء على غرناطة عام ٥١٩هـ[١]، وهم يتعهدون له بكل مساعدة.

ورغبوه بالمدينة وما تشتمل عليه من المحاصيل الكثيرة والأنهار والعيون الغزيرة وما تمتاز به من حسن الموقع وروعة العمارة[٢]، فاستجاب الفونسو لتلك الدعوات، وكانت حركته نحو الأندلس المسلمة تتسم بالتخريب والتدمير، وخلال كل تلك التحركات المدمرة كانت جموع المعاهدين تهرع إلى الانضمام إليه حتى اجتمعت له أعداد كبيرة منهم، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ومواطن الضعف لدى المسلمين، ولما اقتربت الجيوش الغازية من غرناطة زاد نشاط المعاهدين لإكمال مخططهم العدواني التنكري، وتسللوا من كل صوب إلى محلة الجيش الأسباني الذي أمدوه بالمؤن والمساعدات[٣].

انتهت الحملة المدمرة بالفشل، ولكنها كشفت عن خطر المعاهدين ولم يك قرار النفي والتغريب الصادر بحقهم بالعقوبة القاسية إذا ما قيست بما كان سينتج عن مؤامراتهم لو قدر لالفونسو المحارب دخول غرناطة[٤].

---

(١) يمكننا الربط هنا بين توقيت هذه الدعوة وسقوط سرقسطة بيد الأسبان وتوالي انتصارات الفونسو المحارب آنذاك وتوالي النكبات على المسلمين في الأندلس عامة مما حفز المعاهدون لإحراج مركزهم، ينظر: خليل السامرائي، علاقات المرابطين، ص٢٥٣، عنان، عصر المرابطين ١٠٦/١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ٤، ص٦٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص١٠٨، مجهول، الحلل الموشية، ص٦٦-٦٧.

(٣) ابن عذاري، مصدر سابق ٤/ص٧١؛ مجهول، مصدر سابق، ص٦٧؛ السامرائي، علاقات، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٤) عنان، عصر المرابطين، ص١١٣؛ السامرائي، مصدر سابق، ص٢٥٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي ص٤٤٣.

وكان قاضي الجماعة الفقيه أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد) قد تكلف بالعبور إلى العدوة المغربية ولقاء أميرها المرابطي علي بن يوسف للتحدث معه بهذا الشأن وقد أفتى القاضي بتغريب النصارى المعاهدين المشتركين في المؤامرة، فنفيت منهم جموع غفيرة في رمضان ٥٢١هـ إلى عدوة المغرب، وهلك الكثير منهم خلال العبور، ينظر:

ابن عذاري، مصدر سابق ٤/ص٧٢-٧٣؛ ابن الخطيب ٥/٢ الإحاطة ١/ص١١٤، النباهي، المرقبة العليا، ص٩٩؛ الهرفي، ص٢٩٨-٢٩٩؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٣٣؛ أشباح، تاريخ، ١، ص١٥٣-١٥٥؛ الشعراوي الأمويون ص٢٣٣-٢٣٤.



ب. اليهود

مثل الفتح العربي الإسلامي خلاصاً لليهود في الأندلس من الاضطهاد القوطي وسوء الأوضاع الاجتماعية والسياسية[1] حيث عوملوا بتسامح بالغ من قبل السلطة العربية الإسلامية فسمح لهم المسلمون بالسكن داخل المدن الأندلسية بعد أن كانوا يعيشون في أطرافها، وسمحوا لهم باتخاذ أحيائهم[2]، ومقابرهم[3] ومعابدهم الخاصة التي لم تتعرض قط لأي سوء وبقيت بمنأى عن الإساءة.

ولم يبخل المسلمون عليهم بأي حق، فكان لهم زعماؤهم وقضاتهم وأحكامهم الخاصة وتمتعوا بالعدل الإسلامي الذي عاشوا في كنفه وتحت ظلاله[4]، وتركت الحرية

ومن الملاحظ على هذا القرار أنه اتسم بالتوازن والتسامح حيث لم يشمل سوى العناصر المشتركة ولم يحرم هؤلاء من ممارسة نشاطهم في المناطق التي غربوا إليها حتى كانوا مستخدمين في جيش علي بن يوسف نفسه والذي لم يهضم حق من حقوقهم وفي ذلك إشارة مهمة إلى ما كانت تمتع به الدولة المرابطية من تسامح مع أهل الذمة، وينظر حول النصارى زمن علي بن يوسف:

ابن عذاري، مصدر سابق ٤/ص٧٨، ١٩٧، عنان، عصر المرابطين ٢٣٢/١-٢٣٣؛ الحجي، التاريخ الأندلسي ص٤٤٣؛ الهرفي دولة ص٢٩٨-٢٩٩؛ سالم، تاريخ ص١٣٢.

(١) القي اليهود وقت حكم القوط معاملة سيئة للغاية نجد عرضاً لها عند طه وآخرون، تاريخ العرب، ص١٤-١٥؛ وحول أسباب هذا العداء ينظر الحجي، التاريخ، ص٣٠؛ وعن الترابط بين كل ذلك والموقف من الفتح ينظر الخالدي، اليهود، ص١١٨.

(٢) كانت سياسة ضم اليهود إلى المدن الأندلسية قد شاعت وقت عمليات الفتح، وعبر ابن الخطيب عن ذلك بصراحة وبأن المسلمين (صار لهم سنة متبعة متى وجدوا بمدنية فتحوها يهودا يضمونهم إلى قصبتها ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها)) الإحاطة ١/ص١٧. مجهول، أخبار مجموعة، ص١٢،١٤؛ الخالدي، مصدر سابق، ص٦٧-٦٩، ١١٧.

(٣) ابن بشكوال الصلة، ١/ص١١٠؛ فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية (ق٥-٦هـ) ص٢٢-٢٣.

(٤) ابن حيان، تح الحجي، ص١٤٩، وثمة رواية واحدة تكفي للتدليل على ذلك وهو ما ذكره النباهي في المرقبة ص٥٦-٥٧ وابن سعيد، المغرب ١٥١/١-١٥٢ حول الجارية التي أخذها الأمير محمد بن عبد الرحمن دون دفع ثمنها لصاحبها اليهودي فأنصف القاضي اليهودي وحكم له ويلاحظ التزام الحاكم الأندلسي بقواعد الإسلام وشهادة المسلمين لصالح اليهودي.

لليهود بارتداء أزيائهم ولم تلزمهم السلطة بزي معين إلا في أوقات محــددة ولظــروف خاصة دفع اليهود أنفسهم السلطة إليها، وبرز ذلك في عهد الموحدين وبني الأحمر(١).

وظهرت بينهم شخصيات معروفة في الميادين العلمية والاجتماعية لــيس هــذا فحسب بل تولي عدد من هؤلاء مهام رسمية مثل السفارات الدبلوماســية ومــن تقلــد مناصب رسمية كالوزارة أو ما شابه وبرز في هذا المجال حسداي بن شبروط الطبيب الخاص للخليفة عبد الرحمن الناصر(٢).

ولكنهم بالرغم من ذلك بقوا يعيشون في عزلة وانغلاق كما يؤكــد علــى ذلــك الشريف الإدريسي، فاليهود في اليسانة مثلاً ((يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيهــا مسلم البتة . .. ولليهود بها تحذر وتحصن من مضرهم(٣))) ورسخ هذا الأمر حرصهم على السكن في المناطق المحصنة(٤)، وقد لا ينفرد اليهود بذلك(٥) فالأندلس بمجموعهــا عرفت التكتل والانقسام في بؤر سكانية يغلب عليها الانفصال إلا أننا نؤشر هنا علــى بقاء اليهود كتلة منعزلة حافظت من خلال هــذا الانعــزال علــى بنائهــا الاجتمــاعي

---

(١) عن موضوع ملابس اليهود في الأندلس ينظر: الخالدي: اليهود، ص٢١٣-٢٢١؛ وعــن إلــزام اليهود بزي معين في زمن الموحدين المراكشي، المعجب، ص٣٠٤-٣٠٥؛ الزركشــي، تــاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط٢ (تــونس، المكتبــة العتيقــة، ١٩٦٦) ص١٦، وفي عهد بني نصر، ابن الخطيب: اللمحة ط٧؛ الإحاطة ١/ص٢٢٣؛ المقــري، نفــح الطيب ١/ص٢٢٣.

(٢) حول هذه الشخصيات ينظر ابن حيان، تح الحجي، ص١٤٩؛ ٥/ص٤٥٤-٤٥٥، ٤٦٧، المقري ٢/ص٢٥٨-٢٥٩، ابن عذاري، البيان المغــرب ٢/ص٢٢١؛ ســالم، تــاريخ ص١٣٣، فليفــل الفضلي، مصدر سابق ص٢٩؛ الخالدي، مصدر سابق، ص١٣٥-١٤٣، ١٤٥-١٤٦.

(٣) صفة المغرب، ص٢٠٥.

(٤) عن بعض النماذج والمدلول ينظر: م. ن ص٢٣؛ ٢٠٥، العذري، ص٣٥، الخالــدي، اليهــود، ص١٠٥.

(٥) الإنسان بطبعه يميل إلى الاستقرار بين قومه وأهل ملته وليس اليهود وحدهم هم الــذين حــددت أحياء خاصة بهم بل كما لمسنا من قبل كان عادة المسلمين عند تنظيم الاستقرار فــي مــدنهم أن تعطي كل قبيلة أو عشيرة جزءاً من المدينة فيصبح مستقراً خاصاً بها وقد يحمل اسمها ولكنهم لا يمنعون من الاستقرار خارجه كما حصل مع اليهود الذين لم يمنعوا من السكن خــارج أحيــائهم، ينظر عن بعض النماذج والمدلولات: تنظر رسالة أبي عثمان الجرسقي ضــمن ثــلاث رســائل أندلسية ص١٢٢؛ ابن الآبار، الحلة ١/٦١-٦٣، الخالدي، ص٥٧-٥٩.

والعقائدي، وكما هو حال النصارى المعاهدين، فإن اليهـود تـأثروا وأثـروا دون أن ينصهروا في بنية المجتمع الأندلسي[١].

وعرفت العلاقة بين مسلمي الأندلس ويهودها منذ الفتح الإسلامي وحتى سـقوط الخلافة تآلفا وسلمية ملحوظة فقد غدت الأندلس مركز استقطاب كبير للهجرات اليهودية حتى أن بعض المدن ضاق حيها اليهودي بسكانه فسمحت السلطة بإنشاء حي آخر لهم، وأثرت قوة للسلطة المركزية وطبيعية المرحلة الامتدادية تأثيراً بالغاً في سـيادة هـذا النوع من العلاقة، فهم لم يركنوا إلى ذلك التعامل السـلمي بـدافع الاقتنـاع والوفـاء والالتزام بالعهود والمواثيق بقدر ما مثل خياراً مرحلياً يحقق لهم مصـلحتهم بـالتمتع بحماية السلطة المركزية التي لم تفرق في التعامل معهم كما حصل في الفـتح نفسـه، ولذلك لم يشترك هؤلاء بأية حركة انفصالية بل على العكس وقفوا إلى جانب السلطة في خضمها[٢].

ولكن منذ دخول الأندلس مرحلة الفوضى والتراجع نجد اليهود يكشـفون عـن معدنهم الحقيقي المعادي والمضاد للوجود العربي الإسلامي، فقد ازداد نفوذ اليهود فـي عصر الطوائف بشكل كبير حين تقلدوا منصب الوزارة –لأول مرة- ولعب الـوزراء اليهود دورا سلبيا عبر عنه ابن الكردبوس بأن زعماء الطوائف: ((وكلوا أمر المسلمين إلى اليهود فعاثوا فيهم عيث الأسود))[٣]، ومن أبرز هؤلاء إسماعيل بن نغدلـة وابنـه يوسف ووزراء المرية وسرقسطة[٤]، ولم يكن هذا الأمر تسامحا بقدر ما هو انحـراف عن قيم ومبادئ الإسلام حيث نهت الشريعة موالاة اليهود والاستعانة بهم[١].

---

(١) ظهر من هذا التأثر اهتمام اليهود بأنسابهم العائلية تأثراً بالعرب يتكلمـون ويفكـرون ويكتبـون فضلاً عن العامية والعجمية، وأتخذ اليهود اسمين عربي وعبري وتسموا باسماء مشتركة فضـلاً عن العامية والعجمية وتقيدوا بالنطق العربي للاسم؛ عـن كـل ذلـك، ينظـر المقـري، نفـح ٢/ص٥٣٧؛ الخشني، قضاة قرطبة؛ مؤنس، فجر ص٥٢٣، الخالدي، مصدر سابق ص٤١١.

(٢) عن بعض مواقف اليهود من الحركات الانفصالية ينظر: ابن حيـان المقتـبس ٣/٥٠-٥٥؛ ٩٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٠٦-١١٩؛ العذري، نصوص، ص١٠١-١٠٢، وفي التعليـل ينظر الخالدي، اليهود، ص١٢٨-١٢٩.

(٣) تاريخ الأندلس، ص٧٨.

(٤) عن تفاصيل دور إسماعيل وولده ينظر: ابن بلقين، التبيان، ص٣٠-٣١، ٤٠، ٥٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص١٦٦-١٦٧، ١٦٩، ٢٦٤؛ ابن خلدون، العبر، ٢/٤/ ص١٦٠-١٦٢؛ ابـن

وعكس المسلمون غضبهم على كل هذه التوجهات التدميرية لذلك كانت الغضبة الشعبية ضد التطاول اليهودي واتباعه(٢)، وثار العامة وتمكن المسلمون حينها من قتل يوسف بن إسماعيل وأتباعه، وثار العامة في قرطبة ضد اليهود سنة ٥٢٩هـ، ومن الملاحظ أن حدثاً بسيطاً قد يقع في كل وقت يخلف حدثاً كبيراً، فكانت هذه الثورة تعبر عن الغضب الذي ظل يتزايد ويتراكم شيئاً فشيئاً بعد استفزازات متواصلة وكثيرة حتى تأتي الشرارة التي تفجره ولن تكون حينها سبباً حقيقياً للثورة أو التحرك(٣).

ولعب اليهود دوراً في سقوط عدد من المدن الإسلامية فيها، حيث وقفوا إلى جانب ملوك النصارى وقدموا لهم العون فكان موقفاً سلبياً ومتنكراً لكل صور التسامح الإسلامي، مثلما حدث عند سقوط بلنسية سنة ٤٤٨هـ على يد القمبيطور(٤)، والدور السلبي المضاد في موقعة الزلاقة واقليش بقتالهم إلى جانب الجيش الأسباني ضد القوات الإسلامية(٥).

ولم تختلف سياسة التنكر اليهودي في العصرين الأخيرين من عصور الوجود الإسلامي في الأندلس فعملوا على مساعدة إبراهيم بن همشك سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م(٦) وعمدوا إلى تسهيل مهمة دخول العدو إلى إشبيلية(٧)، وقاموا بمساعدة جيمس الأول ملك

سعيد، المغرب، ٢/ ص١١٤، ٤٤١؛ ابن بسام، الذخيرة، ١/ ص٤٧٨-٤٨١؛ وفي عرض الدور السلبي هذا بصورة تاريخية متتابعة ينظر: الخالدي، اليهود، ص١٥١-١٥٢، ١٥٤، ١٥٥-١٥٦، ١٦٧-١٧٠، فليفل، الحياة الاجتماعية، ص٥٣؛ وعن الوزراء الآخرين ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ص٣٤٥؛ السلفي، تراجم، ص١٢٨.

(١) عن نظرة الشريعة وتحليلها ينظر: الخالدي، مصدر سابق، ص١٧٦.

(٢) ابن بلقين، التبيان، ص٥٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص٢٦٦؛ ابن الخطيب، الإحاطة ٤٤٠/١؛ الخالدي، اليهود، ص١٧٠؛ الهرفي، دولة المرابطين، ص٨٢.

(٣) البيان المغرب، ٩٣/٤؛ ابن القطان، نظم الجمان، ٢١٧/٦، الخالدي، مصدر سابق، ص١٩٩؛ فليفل الفضلي، الحياة الاجتماعية، ص٥٢٨.

(٤) ابن عذاري، مصدر سابق؛ ٤/ص٤١؛ ابن الآبار، الحلة ٤٢٢/١ (تر رقم ١١٩٨)

(٥) مجهول، الحلل الموشية ص ، الخالدي، مصدر سابق، ص١٩٤-١٩٥.

(٦) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي (بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٧٩) ص١٨٢-١٨٣.

(٧) ابن عذاري (القسم الخاص بالموحدين، ص١١٩؛ الضبي، بغية الملتمس، ص٤٥-٤٦

اراغون للاستيلاء على مرسية (٦٤١هـ/١٢٤٣م) وأسهموا في الحرب ضد مملكة غرناطة، وحصل صموئيل أبو العافية سنة ٨٩٤هـ على حماية فرديناند وايزابيلا تقديراً له على خدماته لجيشهما خلال الحرب ضد سلطة غرناطة[١] أظهر اليهود ترحيبهم وتعاونهم مع ملوك النصارى حينما بدأت المدن الأندلسية تسقط في أيديهم، فلما احتلت جيوش فرديناندا الثالث (٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) إشبيلية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م خرج يهودها لاستقباله وقد أعدو له مفتاحاً نقش عليه بالعبرية عبارة تقول: ((سيفتحها ملك قشتالة وسيأتي ملك الأرض)) [٢].

٧- الآثار.

أثر التمزق الاجتماعي الذي عانت منه الأندلس طويلا على الوجود الإسلامي وكان سببا بارزا في كل الأزمات والنكسات التي تعرض لها تاريخ العرب والإسلام في الأندلس كافة، ويبدو غريبا القول أن خروج العرب المسلمين من الأندلس سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م له صلة وارتباط باول ظواهر الخلاف والتنازع في عصر الولاة، إلا أن استقراء تاريخ الإسلامي ينبئ بذلك:

أدى النزاع الاجتماعي إلى انعدام الوحدة السياسية في كثير من الأحيان بمعناها الشامل، واضطراب الوضع الداخلي وعدم استقراره مما جعل ذلك الاضطراب وعدم الاستقرار صفة بارزة للوجود العربي الإسلامي الذي عاش في هدوء مشوب بالخوف من مغبة الثورات التي تهدده بسوء المصير والمنقلب[٣].

واستنزفت تلك النزعات من طاقات الأندلس الكثير سواء المادية أو المعنوية أو البشرية[٤]، وكان مدى الدمار الذي لحق بقرطبة وقت الفتنة كبيرا وينبئ عن سيادة جو

---

(١) الخالدي، مصدر سابق ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) نعتمد في عرض هذه المواقف اليهودية على ما نقله لنا الخالدي، ينظر اليهود ص٢٠٦-٢٠٧.

(٣) التواتي، مأساة انهيار، ص٤٨٨، الشعراوي، الأمويون، ص٣.

(٤) من أبسط الأمثلة نزاع عام ٢٠٧هـ حيث نجم عنه ثلاثة آلاف قتيل، عن التفاصيل ينظر: العذري، نصوص عن الأندلس، ص٢٠؛ ابن سعيد، المغرب، ١/ ص٤٨؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢/ ص٢٧٨، ويؤكد أحد الباحثين على دور المنازعات الداخلية في الأندلس على الأوضاع الزراعية والاقتصادية حيث أن المجاعة التي اجتاحت الأندلس سنة ١٣١هـ واستمرت خمس سنوات حتى سنة ١٣٦هـ حدثت بسبب هجرة العرب والبربر للأرض وتركها دون فلاحة لانشغالهم بالمنازعات والحروب العصبية العقيمة، ينظر: فيلالي، العلاقات السياسية، ص٥٩-٦٠.

الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار[١]، كما وأن متابعة أخبار العلماء الذي قتلوا أو أخرجوا أو خرجوا بأنفسهم تاركين أرضهم جراء هذه الأعمال تدلنا على صعوبة الوضع الذي عاشت فيه الأندلس وقتذاك[٢].

أثرت هذه المنازعات في حدوث تدهور اقتصادي ظهرت آثاره وبشكل واضح عند انهيار الخلافة، والصراعات الداخلية أسفرت عن هلاك الطاقة البشرية المصدر الأساسي للإنتاج، وعن ضياع الأموال واستنزافها في هذه الأحداث، فانعكس ذلك على جو الفوضى الناجمة عن الحروب وإهمال الزراعة والعناية بالأرض مما أدى إلى انتشار المجاعات، حينها لم يجد الكثيرون من أبناء الأندلس سبيلاً غير الهرب والهجرة إلى الجنوب لتستقر في المغرب[٣].

وخلقت تلك الظاهرة السلبية (النزاع الداخلي) ثغرات واسعة نفذ منها العدو لتوسيعها والعمل من خلالها على مد نفوذه إلى الجنوب أكثر فأكثر[٤]، وعرفت الممالك الأسبانية النصرانية كيف تستغل الفرصة لتحويل مشاكلها على حساب عرب الأندلس الذين عجزوا عن خلق وحدة قادرة على ردع النصارى ومحاولة بسط هيمنتهم، لذلك عملت جاهدة على تجاوز تناقضاتها وتوحيد صفها وتعزيز تماسكها[٥]، أخذت أراضي الآخر تتسع وتتقدم مقابل انكماش الوجود الإسلامي ولا سيما في أوقات أزماته (نهاية عصر الإمارة، الفتنة وما تلاها) ولم يك هذا التقدم ناجماً عن قوة الممالك الأسبانية البتة

---

(١) عن استنزاف النزاعات الداخلية لطاقات الأندلس المسلمة ينظر: التواتي، مصدر سابق، ص٤٨٩.

(٢) غدا العلماء على أثر الفتنة بين قتيل وهارب ومطرود من بلده وأراضيه وهم جزء من حالة عامة مست الأندلس، ونقف على بعض النماذج عند: ابن بشكوال، الصلة، ٢٧،٣٦،٣٩،٥٧،٦٣/١؛ ٥٩٣/٢؛ ابن الآبار، التكملة/ ص٢٠٧، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣٨٩؛ ابن فرحون، الديباج ١٦٣/١، ٤٨٥؛ ، ١٠٥/٢.
ابن الفرضي، تاريخ العلماء ٣٧٥/١، ١٢/٢؛ الضبي، بغية، تر٢٦١، ابن الزبير، صلة الصلة، ٤، ٥، ٣٧، ٩٥، ٩٦.

(٣) بيضون، الدولة، ص١٤٥-١٣٦.

(٤) التواتي، مأساة انهياره ص٤٩٠-٤٩١.

(٥) إبراهيم القادري بوتشيش: ((الانحسار العربي في الأندلس في أواخر عصر الإمارة، هل كان وراءه تفوق مسيحي؟)) مجلة المؤرخ العربي، ع٣٤، س١٣ (بغداد، ١٩٧٨)، ص١٧٨.

بل أن ما تحقق للقوى المسيحية من تفوق لم يستمد قوته إلا من ضعف الجهة العربيـــة الداخلية وما كان بمقدوره أن يحصل لولا الشرخ الذي أصاب هذه الجبهة[١].

(١) المصدر نفسه، ص١٧٥.



الفصل الرابع
إشكالية النظام السياسي

المبحث الأول
طبيعة النظام السياسي

شهد النظام السياسي العربي في الأندلس تطورات عديدة أضفت عليه تنوعاً في الممارسة الإدارية والسياسية وقد مر بالمراحل الآتية:

١ـ عصر الولاة:

وامتد من سنة ٩٥-١٣٨هـ وفيه كانت الأندلس ولاية تابعة لولاية أفريقية، وتحت إشراف الخلافة الأموية بصورة غير مباشرة حيث خول والي القيروان مهمة تعيين الولاة في أغلب الأحيان(١).

ومن استقراء أسماء الولاة وطرق تعيينهم والمدد التي شغلوها في مناصبهم(٢) تتضح لنا الخصوصية والمرونة التي عوملت بها الأندلس وفي تعيين الولاة تحديداً، ولعب موقع الأندلس دوراً مهماً في ذلك، وعلى هذه المرونة تأسست شخصية الأندلس المستقلة في الإدارة العربية حتى وصلت في آخر عهد الولاة إلى أن يختار أهلها الوالي ويقر الخليفة هذا الاختيار(٣)، ويؤكد مؤلف أخبار مجموعة أن تعيين عدد مهم من الولاة تم بعيداً عن أسماع الخلافة في دمشق وظل الأمر يدور بين والي أفريقية وأهل الأندلس فبشر بن صفوان مثلاً ((يوليهم بغير أمر الخليفة إذا كره أهل الأندلس والياً كتبوا إليه فعزله عنهم وولاهم من يرضون وكذلك إذا مات))(٤) لا سيما وأن استشهاد الولاة في سوح الجهاد كان ظاهرة تميزت بها الأندلس وتعامل معها أهلها بنجاح إذ كانوا يلجأون

---

(١) طه، الفتح والاستقرار، ص٣٣٢.

(٢) عن بعض صور التعيينات ينظر: الرقيق القيرواني: تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي (تونس:١٩٦٨) ص٩٦، ١٠٧،١٠٢-١١٥،١١١،١٠٨؛ابن عذاري، البيان المغرب ٢٤/٢-٢٧، مجهول، أخبار مجموعة، ص٢١-٢٢؛ المقري، نفح الطيب ١/ص٣٢٥؛ وعن طرق التعيينات، ينظر: ابن خلدون، العبر، ٢/٤/ص٢٥٦.

(٣) العبادي، المجمل، ص٥٠.

(٤) مجهول، مصدر سابق، ص٢٥.

وقتها إلى تكليف أحدهم بإدارة الأندلس كتدبير مؤقت حتى يصل والٍ جديد من قبل والي أفريقيا حرصاً على سلامة الدولة كما حصل عند استشهاد الوالي السـمح بـن مالـك الخولاني (١٠٢هـ) وتولية عبد الرحمن الغافقي ولايته الأولى (١٠٢ هـ) وعذرة بن عبد الله الفهري ومحمد الأشجعي[١].

ولم تخرج الأندلس عن هذه الحالة إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اهتم بالأندلس وربطها مباشرة بمقر الخلافة الأموية، ومنحها من الرعاية الشيء الكثير وعمل في سنوات خلافته القصيرة على النهوض بها سياسياً واقتصادياً[٢].

وفي بعض الحالات كان تولي الأندلس يتم بالاستيلاء المباشر، والانقلاب علـى الوالي السابق[٣]، مثلما حصل مثلاً مع عبد الملك بن قطن الذي أزاح عقبة بن الحجـاج السلولي (١١٦-١٢٣هـ) واستحوذ على منصب الولاية أو كما فعل ثوابة بن سـلامة (رجب – شعبان ١٢٨هـ) الذي وصل كما يبدو إلى السلطة بطريق غير مشروع بعـد خلع الوالي الشرعي أبي الخطار الكلبي (١٢٥-١٢٩هـ) بالقوة، إلا أن هذه الحـالات المبكرة جداً من الاستيلاء على السلطة لم ترم إلى تحقيق الاستقلال التام والانفصال عن دولة الخلافة بقدر ما كانت تهدف إلى إرضاء طموح شخصي[٤].

تتسم إمرة الولاة بعدم الاستقرار، فقد تعاقب على حكم الأندلس عشرون واليـاً خلال هذه المدة الزمنية القصيرة مما كان له أثر سيء على مجمل جوانب الحياة ويشير المقري إلى اثر تعدد الولاة في اضطراب الأحوال العامة[٥]، فغيـاب السـلطة وعـدم استقرارها أديا إلى استفحال المنازعات الداخلية وفتحت حالات الاستيلاء المذكورة الباب للمغامرين والطامحين وطلاب السلطة للوصول إليها، واسـتنزاف الطاقـات العربيـة الإسلامية ومنذ وقت مبكر[٦]، ناهيك عن علاقة الولاة ببعضهم التي اتسمت بالتضاد في السياسات والتوجهات.

---

(١) ينظر في هذا الموضوع ومدلولاته، مجهول، مصدر سابق؛ ص٢٥؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ٢٧/٢-٢٩؛ الخفاجي، الدولة العربية، ص٣٠، ٥٢-٥٣، ١٤٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٢٦؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص٢٤.

(٣) عبد الجليل الراشد: ((الفوضى العسكرية في الأندلس في عصر الولاة)) المجلة التاريخية، جامعة الموصل، ع٥ (د. ت) ص٦٨٤، ١٨٧؛ ويفيدنا الخفاجي بمناقشة مختلف الروايات التي تخـص الموضوع واستخلاص صورة دقيقة عنه ينظر: الدولة العربية ص٦٣، ٨٠.

(٤) الراشد، مصدر سابق، ص١٨٧.

(٥) نفح الطيب ١/ص١٩٧-١٩٨؛ وينظر كذلك مؤنس، فجر ص١٠٩.

(٦) الراشد، مصدر سابق، ص١٨٢؛ الخفاجي، مصدر سابق، ص٥١، ٦٣.

وثمة صعوبة في فهم واستيعاب العلاقة بين الأندلس والخلافة فهناك عدم وضوح وضبابية في هذه المسألة، ويثير أحد الباحثين[١] هذه القضية معللا أن الخلافة الأموية لم تتكلف جهداً خاصاً في فتح الأندلس، ولم يجيش الأمويون جيشاً واحداً انطلق من مركزها لهذا الغرض، ولم يخرجوا من خزائنهم أي مبلغ لأعداد حملاته، إنما تم الفتح بجهد البربر وجند أفريقية ومصر، ولم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بمدد[٢]، وكانت الاعطيات تدفع من مال أفريقيا، وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسي بين غيره من الفتوحات الإسلامية في عهد الدولة الأموية، ولا نجد فضلاً عما تقدم إشارات إلى علاقات واضحة في الجانب المالي أو القضائي فلم تك الأندلس بالتالي ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية، فهي جزء من الدولة الأموية مكمل لأفريقية داخل في طاعة الخلفاء ويخطب لهم على منابرها، ولكن في الوقت ذاته لم يزد سلطان الأمويين فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً.

بدأ الاهتمام الحقيقي بالأندلس زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) الذي كان استثناءً عن بقية الخلفاء الأمويين حيث عمل على فصل الأندلس عن أفريقية وجعل الارتباط مباشرة مع مقر الخلافة حرصاً منه واهتماماً بهذه الولاية البعيدة وتنظيم شؤونها[٣]، ورأى الخليفة عمر بن عبد العزيز في الأندلس عمقاً مهماً ومؤشراً لامتدادات الإسلام في القارة الأوروبية (دعوة وعقيدة وكيان سياسي) وهو خليفة عرف عنه حرصه البالغ على نشر الإسلام وتوسيع امتدادات دعوته فكان لخطوته وإجراءاته أهمية بالغة من حيث رعاية شؤون الأندلس والوقوف باستمرار على أوضاعها ومتابعة المستجدات على أرضها أولاً بأول[٤].

---

(١) مؤنس، مصدر سابق، ص١٢٢-١٢٥.

(٢) يقول ابن عذاري نقلاً عن الرازي أن موسى بن نصير خرج في (عشرة آلاف من أفريقية)، البيان المغرب، ٢/ص١٥.

(٣) يعبر ابن عذاري عن هدف الخليفة عمر بأنه (اعتناءاً بأهلها وتهمماً بشأنها) مصدر سابق، ٢٦/٢.

(٤) عن بعض صور الإنجاز السياسي والإداري في الأندلس خلال هذه الفترة تنظر المصادر، مجهول، أخبار مجموعة، ص٢٣؛ ابن خلدون، العبر ٤/ص٢٩؛ طه، الفتح والاستقرار ص٣٣٢.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن شخصاً له تميزه مثل عمر بن عبد العزيز لم تــك لديه معلومات واضحة وكافية عن الأرض الأندلسية وهو أحد أفراد الأســرة الأمويــة الحاكمة، ليس هذا فحسب بل لم يكن لديه تصور واضح وكامل عن أوضاع المســلمين وعددهم هناك، ولذلك نجده في أول عهده يفكر في إعادة المسلمين منها وإخلائها مــنهم خوفاً على أرواح المسلمين لبعدها لا سيما وأن الخليفة عمر كان يخاف على المســلمين بشدة حيث سحب جيش القسطنطينية لهذا السبب، ولكن حين كتب إليه السمح بن مالــك عن خيرات الأندلس وصفتها وأنهارها نجده يغير رأيه[١].

ولا يستبعد أن يكون قرار الخليفة آنف الذكر جاء فضلاً عما تقدم لأنــه وجــد الأندلس لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها من خلال المخاطرة بآلاف المســلمين لحساسية موقعها ولعله رأى في الإسلام عقيدة تنتشر أجدى من حكم يؤسس وفي مكان بعيد ومحفوف بالمخاطر مثل الأندلس، ولكن حين وقف على طبيعة التواجد الإســلامي فيها واقتنع بأهميتها وأولاها من العناية ما هي أهل له[٢].

نلمس مما تقدم أن الأندلس في ظل عهد الإمارة تمتعت باللامركزيــة الإداريــة والاستقلالية إلى حد بعيد، فافتقرت بالتالي إلى نظام ثابــت يــديرها بنجــاح ودونمــا خسائر[٣] ويجنبها حالات الاستيلاء والارتجالية التي تجعل الأندلس دونما سلطة عليــا لعدة أشهر[٤]، ولذلك وجدت أرض الأندلس نفسها بعد سقوط الخلافة الأموية في حل من أية التزامات فظهرت النزاعات السياسية بصورة واسعة، وكان يوسف الفهري (١٢٩-١٣٨هــ) فاقدا للمصداقية الشرعية من الخليفة أو والي أفريقية ولم يقر الكثيرون بولايته

---

(١) يرى أحد الباحثين أن الخليفة لم يكن يريد غير الاطمئنان على أوضاع المسلمين فــي الأنــدلس بدليل أنه أضرب عن الفكرة بشكل سريع يضاف إلى ذلك أنه من غير المعقول تضحيته بجهــود المسلمين التي بذلت هناك في عشية وضحاها) ينظر: الخفاجي، الدولة ص٤٠.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة ص٢٣؛ الرسالة الشريفية (ملحق كتاب ابن القوطية)، ص٢٠٧، مؤنس، فجر ص١٣٦-١٣٧.

(٣) الطباع، القطوف اليانعة، ص٩٢.

(٤) مثلما حدث بعد مقتل الوالي عبد العزيز بن موسى (٩٧هــ) حيث استمرت البلاد مدة ستة أشهر بدون وال بل يرى البعض أنها ظلت مدة أطول حتى اتفقوا على تقديم ايــوب اللخمــي، ينظــر: مجهول، مصدر سابق، ص٢١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٣٨؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٣٣.

وكان اعترافه بالسلطة العباسية شكلياً ولذلك سرعان ما حدث التضاد في التوجهات[1]، ولم يطل بقاءه في سلطته إذ تهاوى تحت ضربات عبد الرحمن الداخل الــذي انتــزع الحكم منه وأعلن عن تأسيس إمارته الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـــ.

٢- عصر الإمارة الأموية/عهد جديد

ظهرت الأندلس كياناً مستقلاً عندما أعلن عبد الرحمن بن معاوية قيــام إمارتـــه الأموية[٢]، وتحولت البلاد من مجرد ولاية يتولاها حكام يتعاقبون من جهات متعددة إلى كيان مستقل له حاكم مستقل[٣]، وكان قطع الخطبة للعباسين بعد مدة ليســت بالطويلــة إعلاناً وتأكيداً على ذلك الاستقلال بصورة تامة ونهائية[٤].

احتفظ الداخل بلقب أمير وابن الخلائف ولم يعلن نفسه خليفة حفاظاً على وحــدة الأمة الروحية، فهو وإن كان أعلن استقلاله السياسي عن الدولة العباسية وجعل الخطبة باسمه، بيد أن هذا لا يعني أنه لم يعترف بالخليفة العباسي زعيمــاً دينيــاً للمســلمين، وخطوته تلك اعتراف واضح وصريح من قبلــه بزعامــة العباســيين الدينيــة للعــالم الإسلامي، كما أن قوة الخلافة العباسية حينها دفعت الداخل إلى تجنب مشاكل وخلافات قد تكون هناك صعوبة في حلها لا سيما وأنه ليس هناك ضرر في فقدان لقب لا يــؤثر على سلطته الكاملة وسيطرته التامة[٥]. واتسم الداخل بهذا ببعد النظر حيث لم يــرد أن يظهر أمام الآخر في أول عهده منقطعاً عن الخلف وإسناده وإمداده مما يعزز مركزه.

---

(١) رغم أن تولي يوسف الفهري كان ضمن اتفاق عام ١٢٩هـــ مع اليمانية إلا أن يوسف لــم يكــن مستعداً هو وأنصاره للتنازل عن الحكم فاستأثروا بالسلطة وتمسكوا بها، الخفــاجي ص٨٥-٨٦، ٨٧-٩٠؛ وعن مفاصل العلاقة بين الأندلس زمن يوسف الفهري والخلافة العباســية ، ينظــر: الراشد، الفوضى، ص١٨٧؛ عنان، دولة ١/ص١٥٣، ١٤٥-١٤٦.

(٢) التواتي، مأساة انهيار، ص١٣٥-١٣٦.

(٣) الشعراوي، الأمويون، ص٨٦-٨٨.

(٤) عن النصوص المتوفرة حول الخطبة للعباسيين ومقارنتها والتعليق عليها ينظر: ابــن عــذاري، البيان المغرب، ٢/ ص٢٤٨؛ تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٦٠، ٦٢؛ ابــن الآبــار؛ الحلة السيراء، ص٣٥-٣٦؛ الأنصاري، الإمارة، ص٨١-٨٥؛ وتعليق العبادي المهم في تــاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٦١ هـــ (١)، وفي تبيان العلاقة مع الخلافة العباسية ينظــر: الخفاجي، الدولة، ص١٦٥-١٦٩.

(٥) حول الأسباب الكامنة وراء عدم إعلان الداخل للخلافة تراجع المصادر الآتية:ابن خلدون، العبــر ٤/٢/ ص٢٦٤-٢٦٥؛ المقدمة ص٤٠٣؛ العذري؛ نصوص عن الأندلس، ص١١؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ص٥٤؛ وعن الموضوع في المراجع الحديثة: طه وآخــرون، تــاريخ العــرب، ص١٠٤؛ العبادي، في تاريخ، ص١٠٣؛ أدهم، الناصر، ص٦٧؛ الخفــاجي، مصــدر ســابق، ص١٦٢، ١٠٢-١٠٣، ١٩٣-١٩٤؛ الشعراوي، مصدر سابق، ص٩٩.

لم يحمل ما قام به الداخل في طياته الجدة والغرابة، فهو أسس إمـــارة وراثيـــة، أصبح على رأسها ضمن نظام مركزي يجمع سلطاته كلها بيده ويتركها لأسرته من بعده في عمل لا يبعد جوهره عن الملكية الوراثية وأن برز الأمر في صورة بيعة جماهيرية شعبية إلا أنها شكلية في الوقت ذاته، ولم يغير مـــن حقيقـــة هـــذه المســـألة الألقـــاب المستخدمة، بالرغم مما سجل للأمويين من اتباع المشاورة، ومحاولة تحقيـــق مصـــالح الأمة مما خفف من سلبيات هذا النهج الفردي في الحكم.

استمر الأمويون يحكمون الأندلس تحت لقب الأمير مدة طويلـــة وفـــي أوقـــات متباينة كانت الدولة فيها قوية مثل عصر الداخل وما تلاه، ووقت لم تتعد فيـــه ســـلطان الأمير عبد الله بن محمد (٢٥٧-٣٠٠ هـــ) قرطبة[١]، ولكن حين مرت الدولة الإسلامية بذروة قوتها وازدهارها تهيأت الأوضاع للإنجاز الأكبر المتمثل بإعلان الخلافة الأموية زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـــ).

٣ـ عصر الخلافة الأموية:

جاء إعلان الخلافة سنة ٣١٦ هـــ في نظر الخليفة الناصر استناداً إلـــى الحـــق الشرعي للأمويين كما أعلن ذلك بنفسه، ونزع كل أشكال الشرعية عمن يـــدعي هـــذا اللقب ولقب (أمير المؤمنين) وقتذاك وتأكيداً على إنهاء حالة ضـــياع الحـــق الأمـــوي بالخلافة[٢]، وكانت للظروف المحيطة أثر في الإقدام على هذه الخطوة وفـــي مقـــدمتها أحوال العباسيين المتردية، فيقول ابن خلدون أن الناصر هو أول مـــن تســـمى بـــأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس))[٣] وخاصة عندما بلغه أن مؤنس الخادم قتل الخليفة المقتدر، كمـــا أن ظهـــور الفـــاطميين وإعلانهم الخلافة شكل تجاوزاً لوحدة الأمة الروحية ويؤشر أحد المحدثين على الحـــس

---

(١) يصف ابن الخطيب فترة الأمير عبد الله بقوله: ((وتصيرت إليه الخلافة وقد تكيف النكث أطرافها واقتسمها الثوار وكلب عليها الأشرار ولم يبق منها إلا الاسم فوق ظهر منبر في قرطبة والقليـــل من غيرها وساءت الظنون ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه))، أعمال الأعلام ص٢٦.

(٢) م. ن ص٣٠؛ المقري، نفح ١/٣٣٠-٣٣١؛ ابن عذاري، البيان المغـــرب ٢/١٥٧، ١٩٨-١٩٩؛ ابن حيان، المقتبس ٥/٢٤١-٢٤٤؛ عنان، دولة ١/ص٢٣٠؛ حمادة، الوثائق، ص١٦١.

(٣) العبر، ٤-٢/ص٢٩٨.

السياسي العميق للناصر فهو بإعلانه الخلافة عمل على التكافؤ مع أعدائــه الفــاطميين الذين تجرءوا وأعلنوا الخلافة، وهدف كذلك إلى محاربتهم بسلاحهم الروحي ذاته[١].

ولم يخل هذا القرار من عوامل نفسية تدور حول تكوين الخليفة الناصر الطموح والقوي، والعمل على إضفاء مزيد من الهيبة والمكانة على شخصه خاصة بعد نجاحــه الداخلي والخارجي ورغبة أهل الأندلس أن يكون أميرهم خليفة[٢].

ولم يؤثر إعلان الخلافة على صلاحيات الناصر وسلطاته ولم تك هاتان الكلمتان (خليفة/أمير المؤمنين) ذات تأثير مادي ملموس في داخل الدولة فظلت الصلاحيات قبل اتخاذ اللقب وبعدها على حالها، وبقي النظام السياسي يتمتع بالصفات والامتيازات ذاتها، وحتى التطور الذي طرأ على الأندلس ومؤسسات الدولة فيها على عهد الناصر لم يــك بسبب إعلان الخلافة بل على العكس فإن هذا القرار هو إفراز ونتيجة لــذلك الوضـــع المتقدم الذي أحاط بالأندلس وقتها.

وأما على مستوى العلاقات الخارجية فلم يحدث إعلان الخلافة أي صـــدى فـــي العالم من الناحية العملية[٣]، كما أن خلافة الأمويين في الأندلس بالرغم مـــن عظمتهـــا وتقدمها لم تك يوماً ما بديل عن خلافة العباسيين الذين بقوا يتمتعون بمركـــز روحـــي مؤثر وفعال في نفوس الناس عامة والأندلسيين منهم خاصة، بوصفهم حماة الحـــرمين والمسلمين وهذا ما ذكره صاحب ذكر بلاد الأندلس أن أهل الأندلس عندما أطبقت عليهم الفتنة واختل وضع الدولة العربية زمن الأمير عبد الله وما قبله عزموا (أن يدعوا على منابرهم لأمير المؤمنين المعتضد العباسي صاحب بغداد)[٤] ، وفي هذا تأكيد ظاهر على هذه الحقيقة بالرغم من أن الخلافة العباسية وقتها لم يكن بيدها شيء ولم تمثل إلا رمزاً له قوته ومكانته الروحية المعنوية، وعلى الرغم من ذلك لم نجــد المســلمين يتجهــون بأنظارهم نحو الأندلس عازفين عن هذه الخلافة التي ظلت جامعة للمسلمين ورمزاً لهم. لم يحمل نظام الخلافة في الأندلس في طياته تعقيداً سياسياً أو فكرياً ولم يختلــف عمـــا

---

(١) العبادي، المجمل، ص١٢١-١٢٢، فيلالي، العلاقات السياسية، ص١٣٨.

(٢) للاستزادة من المعلومات حول ظروف وأسباب إعلان الخلافة ينظــر: مقدمـــة ابـــن خلـــدون، ص٢٠٤؛ الحجي، التاريخ الأندلسي ص٣٠٠؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٣٦٣؛ الخفاجي، الدولة، ص١٩٤-١٩٦.

(٣) سيمون حايك، الناصر، ص٧٤-٧٦.

(٤) ص١٥٥.

سبقه سوى في اللقب الذي أضفى مكانة معنوية أكثر منها مادية على شخوص الأمويين هناك، وظهر نظام الخلافة في جوهره نظام ملك يقوم على أساس التوريث المستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً، فاختلف بذلك عن الخلافة الإسلامية الشورية الحقيقية وأن تمتع أغلب أشخاصها بالقدرة والصلاح فعمليات البيعة والتنصيب كانت تتم بصورة متتابعة من الأب إلى الابن وبصورة شكلية أكثر منها واقعية.

ولذلك لم يحدث في الأندلس ذلك الجدل السياسي والفكري حول نظام الخلافة وقواعده، فكل ما هناك أن الناصر أراد أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بهذا ولا سيما الفاطميين، وعرض الأمر على الأمة التي قبلته وبايعته، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم(١) تم دونما أية صدى من معارضة أو رفض شعبي.

- وارتبط النظام السياسي زمن الأمويين (أمراءاً وخلفاء)) بشخصهم وقام على اساس سلطتهم الواسعة ولعل هذا ما حاول التأكيد عليه أحد الباحثين(٢) حين أشار إلى نزوع الأندلسيين نحو عدم حكم أنفسهم بأنفسهم أو المشاركة في تركيبة النظام وتدبير شؤون الدولة وإنما الركون إلى رجل قوي حازم يحكمهم ولعل في هذا انعكاس لتأثير البيئة والموقع الذي عليه الأندلس، فطبيعة البلاد الجغرافية والاجتماعية كانت تحتاج بعض أشكال الفردية في الحكم، واستمر ذلك في عهد الخلافة كذلك فارتبط النظام بأشخاصه قبل ارتباطه بأسس وقواعد ثابتة، ولم تنهض الدولة بالحاكم بل أن الحاكم بصفاته وقدراته ومؤهلاته ينهض بها ويصنع أمجادها(٣). وهذا ما دفع أحد المحدثين لتقرير أمرهم وخطير في الوقت ذاته وهو أن تاريخ الأندلس على مر عصورها الماضية كان تاريخ أشخاص أكثر مما هو تاريخ دولة وهذا ما انطبق عليها بعد غياب الشخصيات القوية والحازمة من الذين صنعوا الدولة ولم تصنعهم فكان غيابهم كارثة ومؤشراً إلى تراجع وانهيار(٤).

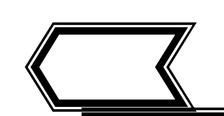
---

(١) مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الإسكندرية: ١٩٦٨) ص٦١-٦٢.

(٢) أمين؛ ظهر، ص١٧.

(٣) المصدر نفسه؛ بيضون، الدولة ص٣٦٤.

(٤) بيضون، مصدر سابق، ص٣٥٠.



٤ـ أنموذج الحاجب المنصور/استلاب السلطة

أصيب النظام السياسي في الأندلس برجة وصدمة كبيرة في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٢٦-٣٩٢هـ) تمثلت باستيلائه على السلطة في الأندلس واستئثاره بكافة صلاحيات وامتيازات الخلافة، والحجر على الخليفة الصغير هشام المؤيد الذي لم يعد ((يظهر ولا ينفذ له أمراً))[١] ولا ((ينسب إليه تدبير ولا يرجع إليه من الأمور في قليل ولا كثير))[٢]. وتقليد الأمراء والخلفاء في السير بركاب الأبهة والفخامة وكان بناء مدينة الزاهرة ينصب في هذا الاتجاه[٣].

كان هذا الوضع برمته شاذاً في مسيرة الدولة الإسلامية الأندلسية سلب فيه الحاجب المنصور السلطة الزمنية للخلافة مبقياً لها السلطة الروحية الشكلية وحتى هذه حاول ولده الثاني عبد الرحمن شنجول (ت٣٩٩هـ) الاستيلاء عليها، ومثل مرسوم هشام المؤيد بجعل شنجول ولياً للعهد الخطوة الأولى في هذا الاتجاه[٤]، فأعطى اللاشرعية الاستبدادية لبني عامر الطابع الشرعي، وكان تحولاً جذرياً في نظام الحكم بالأندلس، ومثل بداية تقوض الدولة العامرية والأموية معها، مما يجعله خرقاً صريحا وصارخا للسلطة التشريعية للبلاد والتي أصابها في الصميم وعطل مفعولها نهائياً[٥].

سقطت الخلافة الأموية في الأندلس بصورة رسمية سنة ٤٢٢هـ، ولكن تدقيق الأحداث الخاصة بعصر الخلافة المتأخر يبين أن الدولة الأموية انتهت فعلياً وحكمياً بوفاة الحكم المستصر (٣٦٦ هـ) من حيث هي أسرة مالكة ملكاً حقيقياً، وأن حكم الأندلس خضع للطوائف فعلياً قبل إلغاء الخلافة رسمياً، ويعتبر ابن حيان النهاية الحقيقية للخلافة كانت باستيلاء بني عامر على السلطة وتجريد الخليفة هشام من صلاحياته[٦].

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص١٨.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص٥٨.

(٣) حول استلاب الحاجب المنصور للسلطة ينظر ابن خلدون: العبر ٤/٢/ص٣١٨-٣٢٠.

(٤) حول نص ولاية العهد لشنجول من قبل الخليفة هشام المؤيد ينظر: ابن خلدون، العبر ٤/٢/ص٣٢١-٣٢٣؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٩١-٩٣؛ حمادة، الوثائق ص٢٢٦-٢٢٨.

(٥) التواتي، مأساة، ص٢٠٤-٢٠٥، وعن موقف الأندلسيين من ولاية العهد لشنحول ينظر: ابن خلدون، العبر ٤-٢/ص٣٢٣-٣٢٤.

(٦) بشرى عبد العزيز الزبيدي: الثغر الأوسط الأندلسي في عصر الطوائف، رسالة ماجستير (غير منشورة) (جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٤) ص٣٢-٣٣ وهي تنقل عن ابن بسام في أغلب مادتها عند هذه المسألة.

٥- عصر الطوائف/التفكك السياسي

كانت النتيجة الحتمية لسقوط الخلافة وانتهاء السلطة المركزية ما عرف بعصر الطوائف الذي استقل فيه الأمراء من البربر والعرب والصقالبة بما في حوزتهم من مدن وثغور الأندلس كل عن الآخر، وعبر المراكشي بصدق عن حالة الأندلس وقتذاك بقوله ((وبعد اختلال دعوة بني أمية وأن أهلها تفرقوا ورقاً وتغلب في كل جهة متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه))(١).

ومتابعة هذه الكيانات السياسية المفككة يبين افتقارها إلى عناصر الدولة المستقرة وأن القليل منها كان يستطيع الاستقلال بالشؤون السياسية والعسكرية كانت أشبه بحكومات البلديات أو وحدات الإقطاع وعصبة الأسر القوية ذات العصبية أو الجماعات القبلية فلم تك هذه حكومات منظمة بالمعنى الصحيح والدقيق(٢). وكان زعماء الطوائف على أشكال عدة فهم ما بين وزير سابق وقائد من ذوي النفوذ وحاجب، وحاكم لإحدى المدن وشيخ للقضاء وزعيم من ذوي المال والحسب(٣)، وصورهم ابن الخطيب بأنه ((ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإحاطة مكتسب))(٤) وقد استغل هؤلاء اضطراب الأوضاع السياسية وفقدان السلطة المركزية حينها فضلاً عن العوامل الجغرافية والاجتماعية المشار إليها سابقاً فأسسوا إماراتهم وجعلوها وراثية في أسرتهم وقبيلتهم.

وكان من الطبيعي إزاء تقارب أمكنة هذه الإمارات غير الشرعية(٥) والتضارب والتضاد في سياساتها أن تشيع حالات الاحتكاك والنزاع السياسي من أجل التوسع والسيطرة على حساب الآخرين لذلك كان عصر الطوائف عنوان مرحلة التفكك السياسي والنزاع الداخلي الحاد.

---

(١) المعجب، ص٤٦؛ بشرى الزبيدي، مصدر سابق، ص٣٨.

(٢) الذنون، آفاق غرناطة، ص٢٦-٢٧، عنان، دول الطوائف، ص٤٠٣.

(٣) عنان، مصدر سابق، ص١٤-١٥.

(٤) أعمال الأعلام ص١٤٤؛ كذلك ابن خلدون ٤-٢/ص٣٣٦.

(٥) إن قيام هذا العدد الواسع من الدول والإمارات يتناقض والقواعد الإسلامية الشرعية في جواز تعدد الخلافة للظروف الاستثنائية كما يؤكد على ذلك العبادي، في تاريخ المغرب ص٢٥٩؛ ولعل المغزى يكمن في محاولة تجنب الاصطدام في الرغبات والنفوذ مما يشكل بؤرة صراع داخلي بتقارب أمكنة الإمارات فيما بينها وهذا بالفعل ما حصل في عصر الطوائف.

٦ـ النظام السياسي/عصري الانتعاش والانحسار

تم تجاوز عصر الطوائف عندما عادت الأندلس من جديد ولاية تابعة لدولة أخرى وفقدت استقلاليتها التامة التي تمتعت بها منذ دخولها عهد الإمارة الأموية[١].

غدت الأوضاع السياسية في الأندلس وإدارتها ونهجها وقراراتها تتشكل إلى حد بعيد خارج أرضها وينفذها موظفون تابعون أما للدولة المرابطية أو الموحدية في ظل نظام إداري مركزي يجمع السلطات كلها بيد الأمراء القائمين على تنفيذ القرارات ويحرص على تعيين الأقارب والأبناء والأصهار في مركز الدولة[٢]، وهذا كله تغيير يرتبط بالخلف ويعبر عن استجابة لمساعيه في ضم الأندلس له.

وسعى المرابطون للحصول على موافقة الخلافة العباسية وتأييدها وأعلنوا تبعيتهم لها، ومنحهم ذلك سنداً شرعياً مكنهم من بسط وإتمام سيطرتهم على الأندلس[٣]، أما الموحدون فرأوا أنفسهم أحق بهذا الأمر من غيرهم لذلك أعلنوا لأنفسهم الخلافة واتخذوا لقب (أمير المؤمنين)[٤] هذا مع التأكيد على شكلية التبعية المرابطية للدولة العباسية.

وعودة الأندلس ولاية تابعة للمرابطين والموحدين أعطتها الفرصة من جديد لتكون ساحة صراع سياسي محموم بعيداً عن مقر الإدارة التي كان حضورها وما يرافقه من إجراءات يتطلب وقتاً ليس بالقصير، وهذا الأمر أوجد أسباباً للنزاع الذي

---

(١) الحجي، التارخ الأندلسي، ص٢٩٨.

(٢) صالح محمد فياض أبو دياك: (نظام الإدارة في المغرب والأندلس أيام المرابطين" مجلة المؤرخ العربي ع٣٥، س١٤ (بغداد: ١٩٨٨) ص١١٣،١١٠-١١٨،١١٥،١١٤.

(٣) من مظاهر علاقة المرابطين بالخلافة العباسية اعتراف دولة المرابطين بالسيادة الشرعية العباسية على دولتهم، والمساهمات الفردية في جهاد المسلمين ضد الصليبيين مادياً ومعنوياً، وموقف المرابطين القاطع تجاه الفاطميين وفشل جميع مساعي الصلح معهم، وأنطلق يوسف بن تاشفين من منطلق إسلامي حريص على الوحدة الروحية للمسلمين حين كان يرى أن للمسلمين قبلة واحدة ووحدة إسلامية واحدة فلا ينبغي أن يكون هناك خلافتان إنما هي خلافة واحدة وأمير للمؤمنين واحد وهذا سر إبقاء لقب (أمير المؤمنين) لأمير المرابطين ينظر لذلك الموضوع: السامرائي، علاقات، ص٣٢٠-٣٢٣، ٣٢٧.

(٤) المراكشي، المعجب، ص٢٥٥،٢٤٥؛ ابن الخطيب، أعلام ص١١٦؛ العبادي، في تاريخ المغرب ص١١٠، ١١٦،١١٤.

استقر مركزه في المغرب ومن أجل عرش مراكش إلا أن صداه ظل يتردد على أحداث الدولة المسلمة في أرض الأندلس أو ما تبقى منها آنذاك.

- ومثلت مملكة غرناطة في عصر الانحسار النهائي آخر صور الحكم العربي الإسلامي في الأندلس نظام الحكم الوراثي المطلق، حيث استمر العمل بمبدأ وراثة العرش، وانتقلت صور الولاء لجهات متعددة، فحيناً للخلافة العباسية وحيناً لعدوة المغرب، وكانت ألقاب حكامها تدور حول السلطان وأمير المسلمين[1].

(1) عن النظام السياسي في عصر مملكة غرناطة، طبيعته وإيجابياته وسلبياته ينظر: فرحات، غرناطة، ص٦٩-٧٣.



المبحث الثاني
مشاكل النظام السياسي

عانى النظام السياسي في الأندلس، مشاكل متعددة وخطيرة في الوقت ذاته، وكانت هذه المشاكل قد وجدت معه من أولى لحظات قيام الدولة العربية الإسلامية في الأندلس.

حمل النظام بذور النزاع على السلطة بمرونته وعدم التزامه بقواعد ثابتة وصاحب أحلام الاستئثار بالسلطة الاستبداد من خلال ارتباطه الأساسي والقوي بشخص الحاكم الذي يتولى قيادته وتعلقت بهذا النظام مسألة خطيرة تمثلت بالولاء والتحالف مع العدو، فضلاً عن نظام وراثة العرش وآثاره السلبية.

لم تظهر هذه المشاكل بصورة واضحة حين تمتعت الأندلس بقوة المد وعنفوان الثقل السياسي والعسكري، وذروة التقدم الحضاري دون أن يعني هذا عدم وجودها، لكن حين بدأت البلاد اجتياز فترات التراجع والضعف انكشفت تلك السلبيات بشكل واضح وبدأت آثارها تنتشر في أرجاء الأندلس.

١ـ النزاع السياسي والاستئثار بالسلطة:

أخذت الأندلس ومنذ عصر الولاة[١] تموج بالعديد من التمردات والنزاعات الانفصالية التي عرضنا بعض أبعادها سلفاً ولم تك هذه الحركات لتخلو من بعد الطموح السياسي والاستئثار بالسلطة، فعمد أهل الأندلس إلى استخدام القوة في سبيل ذلك ولهذا التوجه خطورته البالغة، فقد أنغمر هؤلاء في إتون الصراع وتفاصيله ناسين أو متناسين أن المقابل يحمل ذات الهوية السياسية والانتماء العقائدي، وأن الأرواح التي تزهق

---

(١) من الملاحظ أن ثمة حركات تمرد شهدها عصر الولاة ولكن هذه التحركات التي ظهر معظمها في طابع اجتماعي أكثر منه سياسي لم تتطور وانتهت أغلبها قي وقتها نهائياً هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن زعماء المعارضة في هذه الحقبة لم يلجئوا إلى الأجنبي (نصارى الشمال وفرنسا) وطلبوا العون منهم على حكومة قرطبة عكس حركات التمرد فيما بعد عصر الولاة، وربما كان سبب ذلك يعود إلى أصالة عروبتهم واعتزازهم بمبادئ دينهم، هذا فضلاً عن أن نصارى الشمال في هذه المرحلة لم يكونوا قوة كبيرة يعتمد عليها في مثل هذه الحالات، عن هذا ينظر: السامرائي، الثغر، ص٤٠٩.

والدماء التي تراق هي في الأغلب إسلامية، وأن استخدام العنف والقوة ضد المجتمعات الإسلامية غير جائز مبدأ.

ولما كانت أغلب حركات التمرد في الأندلس ترمي إلى الاستئثار والاستقلال والانفصال، ولم يكن دافعها تغيرياً إصلاحياً كان من الطبيعي أن ترد السلطات الأندلسية على مثل هذه التوجهات بالقوة للقضاء عليها(١)، من أجل الحفاظ على الأمن الاجتماعي والاستقرار الداخلي ومصلحة الأرض والبلد الذي يحيط به الأعداء من كل جانب.

أوجدت طريقة إنهاء الثورات انكفاءاً سياسياً لدى الكثير من أبناء الأندلس فيما بعد، وحالة سلبية من التعامل مع السلطة الحاكمة، فغدا أغلب الشعب الأندلسي مستعداً لتحمل سلبيات النظام الحاكم، أكثر من استعداده لتحمل مشقة إزالة هذه السلبيات، فالفتنة والمشقة المترتبة على تحمل الوضع السلبي أخف وأهون من الفتنة بمحاولة تغييره(٢)، وجعلت المعاملة العنيفة للمعارضين والمعترضين جمهرة عريضة من الناس يقبعون داخل أنفسهم ويتركون الأشتغال بالسياسة وينصرفون إلى غيرها من الوان النشاط(٣)، فالأندلسيون الذين آثروا عدم استخدام القوة ضد السلطة فيما بعد كان قرارهم قائماً على أساس الخيار الوحيد في ظل قسوة إنهاء تلك التحركات وليس على أساس المبدأ الإسلامي في هذا الموضوع(٤)، هذا فضلاً عن شريحة واسعة كانت مكتفية اقتصادياً ولا يهمها في هذا الخضم كله سوى تأمين قوت يومها مما أثر على مواقفها بعدم الخوض في المجالات السياسية مع أنهم دفعوا ثمناً باهظاً لهذا الموقف؟

---

(١) من أبرز الأمثلة ما قام به الحكم الربضي ضد الثوار في طليطلة ومن ثم ما عرف بهيجة الربض (٢١٢هـ)، ونحن هنا لا نتحدث عن جذور هاتين الثورتين أو أهدافهما إنما نؤكد على القوة في إنهائها مما انعكس أثره في نفوس أهل الأندلس ممن تحدثه نفسه بالسير في ركاب الثوار الكثيرين، عن هذا ينظر: السامرائي، علاقات، ص٢٧-٢٩،ص١٠٠؛ وعن إنهاء الثورات بالقوة ينظر: مجهول،اخبار مجموعة ص١٣١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح ص٦٨-٧٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ص٧٧/٢.

(٢) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي (طهران: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٩٥) ص١٢٩.

(٣) أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ (الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية) د. ت، ص٦٧ وهو ينقل عن سدني هوك.

(٤) عن هذا الموضوع وتأصيله ينظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان ((العنف في الإسلام بين المبدأ والخيار)) مجلة إسلامية المعرفة س٤، ع١٥ (واشنطن، ١٩٩٩) ص٨٩-١١٩.

اتسم هذا الوضع والتوجه الذي اخذ صيغة رد الفعل بضعف الوعي السياسي وهو أمر لازم الأندلسيين في العصور الإسلامية المختلفة فغدوا لا يبالون بقائد الدولة وماهية توجهه وسياسته ويقدمون البيعة له بصورة شكلية لا تحمل معنى التعبير الحقيقي والواقعي ولا يعكس ممارسة شورية، وانسحبوا بالتالي من مواقف كثيرة وعزفوا عن إبداء رأيهم بأسلوب سياسي رصين.

حرم الوجود الإسلامي في الأندلس الكثير من الخير بغياب هذا الشكل الإيجابي من أشكال المعارضة السياسية والنقد الحر النزيه، وإذا كان الأمويون على قدر طيب من الصفات الإيجابية الأمر الذي جنب الأندلس مشاكل هذا الموقف وسلبياته، فإن العصور اللاحقة شهدت تطور هذا الأمر وتفاقمه حين أفسح المجال وبصورة واسعة لرموز باهتة لتتسلم مقاليد السلطة بكل حرية وتمارس استبدادها وتوجهاتها المضادة للوجود الإسلامي دون أية معارضة أو رد فعل عملي مضاد.

ومن أبرز محاولات النزاع الاستئثار وسلب السلطة ظاهرتا الحاجب المنصور بن أبي عامر وعصر الطوائف، وكانت طبيعة النظام السياسي قد هيأت الأجواء لذلك، ففي الحالة الأولى اجتمع الخليفة الصغير الذي لا يدرك من مسؤولياته شيئا، والبطانة المتنافسة، والبلاط المليء بشتى صور الصراع والشخصية ذات الطموح المتعاظم[1]. اعتمد الحاجب المنصور على كل تلك الحيثيات، ومن خلال اتباع سياسة تقوم على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) وتصفية الخصوم وإذلالهم[2] أصبح واقعياً وفعلياً صاحب الدولة بلا منازع ودونما أي مسوغ شرعي.

وتكمن خطورة هذه المسألة أن الحاجب المنصور عمل على إضعاف الحكم المركزي الذي كان عاملاً أساسياً في وحدة مسلمي الأندلس، وأنه حطم عاملاً قوياً موحداً للمسلمين في الأندلس وجرها بعد ذلك إلى التمزق والتشتيت[3].

---

(١) عن شخصية الحاجب المنصور ودوره ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٢/ص١٠٣-١٠٤؛ أعمال ص٧٤-٧٧؛ ابن سعيد، المغرب، ١/ص١١٩-٢٠٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ص٢٨٦؛ الحميدي، الجذوة، ١/ص١٣١-١٣٢. عنان، دولة ٢/ص٥١٦؛ العبادي، في تاريخ ص٢٢٧-٢٢٨؛ حمادة، الوثائق، ص٥٣-٥٤؛ الصوفي، عصر المنصور، ص١٦.

(٢) يقول ابن الخطيب أن الحاجب المنصور لم ((يبق يداً يحذر بطشها إلا شلها ولا عيناً يريبه نظرها إلا فقأها)) أعمال ص٦٥-٦٦؛ ويضيف أنه سار في هذا الاتجاه حتى نادى هل من مبارز، م. ن ص٧٧.

(٣) داود عمر عبيدات: ((بواد ضعف العرب في الأندلس وسقوط الثغر الأدنى-طليطلة)) مجلة المؤرخ العربي، ع٣٤، س١٣ (بغداد: ١٩٨٧) ص١٥٣؛ التواتي، مأساة انهيار، ص١٨٧-١٨٨.

وكانت الحالة الثانية امتداداً حتمياً وطبيعياً لحركة ابن أبي عامر، ومثلت سنوات الطوائف ظاهرة خطيرة وصورة محزنة ومخيفة للنزاع على السلطة هانت فيه دماء المسلمين وأرضهم وكل القيم والثوابت الإسلامية[١]، ويمكن القول أن ظهور زعماء الطوائف يعد طبيعياً بانهيار السلطة المركزية، ولكن السلبية الخطيرة هو ما صاحب ذلك من النزاع والعجز عن خلق قوة موحدة وعدم تقدير الأخطار الخارجية، وفي ذلك نقص خطير في الوعي السياسي.

ولم يتوقف الصراع السياسي الداخلي فيما تلا من عصور وخاصة حين تضعف أو تغيب السلطة المركزية كما حصل في فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين[٢] حيث غدا الأمر أشبه بعصر الطوائف ولكن بصورة أصغر وعلى مساحة أقل ولم ينتظر هؤلاء المتمردون السقوط الرسمي للمرابطين حتى ثار كل واحد منهم بجهة ورام الاستقلال بها. وذلك في وقت كانت الأندلس فيه بأمس الحاجة إلى التكاتف والتعاون والتوحد بمواجهة العدو المتربص بهم، بل لا نبالغ حين نقول أن من سلبيات دعوة الموحدين التي تتبنى الاتجاه التصحيحي الإسلامي أنها عملت على تفريق كلمة المسلمين في وقت كانوا فيه بأشد الحاجة إلى اجتماع الكلمة وحشد الصفوف وكذلك فعل بنو غانية من بعد مع الموحدين[٣]، كان الأحرى بكل تلك الحركات والقوات أن ترتقي بعملها السياسي المثمر والمتعاون من أجل بناء جبهة إسلامية متحدة بوجه العدو المتحفز على الدوام لاستغلال كل تلك الظروف وتحويلها لصالحه.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٥/ص٢٤٨-٢٤٩؛ ابن ابي دينار، المؤنس ص١٠١؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ص٣١٠-٣١١، ٢٧٧-٢٨٨؛ وينظر في بعض صور النزاع: بشرى الزبيدي الثغر الأوسط، ص٣٦،٤٦-٤٧، ٥٠؛ والتفاصيل واسعة ومبثوثة في مصادر كثيرة ومتنوعة.

(٢) سجلت لنا كتب التاريخ أسماء عدد من هؤلاء منهم ابن قسي (زعيم المريدين) وثورة ابن حمدين وأبو الحسن الهمذاني في غرناطة وأحمد بن محمد بن ملحان الطائي وغيرهم، عنهم ينظر المراكشي، الذيل س ٥/ص٢٧؛ النباهي، المرقبة العليا ص١٠٣؛ السامرائي، علاقات، ص٢٨٠،٢٧٨،٢٧٧،٢٧١-٢٨١.

(٣) عن تفاصيل النزاع بين الموحدين وبني غانية ينظر: حسين حبيب نجم الدليمي، إمارة بني غانية في الجزائر الشرقية، رسالة ماجستير، (غير منشورة)، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٣، وعن الأثر السلبي له ينظر: عصام سالم سيسالة: جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤) ص٢٨٨-٢٨٩،٣٥٥.

ولذلك من الغريب أن نجد مملكة غرناطة وهي صورة مصغرة جداً لما تبقى من الأندلس ووجدت في ظرف تاريخي حساس وحرج ومعقد أن نجدها لا تشذ عن باقي الدول التي حكمت الأندلس في ظاهرة النزاع على السلطة والاستئثار بالحكم بين الأسرة المالكة نفسها، فكانت مملكة غرناطة بهذه الصراعات تنتحر ببطء وتنحدر نحو نهايتها بشكل واضح.

بددت الكيانات الإسلامية المختلفة قوتها بنفسها وتآكلت نتيجة نزاعاتها التي استهلكت مواردها وطاقاتها، فعملت بوعي أو دونه على تقرير مصير الأندلس ومنذ وقت مبكر لكن قوة الأمة والدولة حينها كانت تحتمل تلك الضغوطات المتكررة إلى حد بعيد على أنها كانت تترك آثارها على كيان الدولة العام، ولما وصلت الأندلس إلى مرحلة حرجة ومتأخرة أصبحت عاجزة عن تحملها سقطت وانهار كيانها على حين غفلة كما يبدو للبعض، والمسألة ليست انكساراً مفاجئاً وسقوطاً سريعاً إنما هي تمتد بجذورها إلى أوقات تاريخية مبكرة جداً، وكانت أحداث سنة ٨٩٧هـ وسقوط غرناطة نتيجة طبيعية ومنطقية لسنوات وعقود الصراع والنزاع السياسي الذي أدى بالنهاية إلى انسحاب الوجود الإسلامي من أراضي الأندلس نهائياً(١).

١ـ النزاع السياسي ... عوامل تفعيله

برزت في الأندلس عدة أمور خطيرة ساهمت في تفعيل النزاع السياسي وازدياد حدته، ومنها شيوع ظاهرة الاغتيالات السياسية التي غدت طريقاً سهلاً للتخلص من الخصوم السياسيين، وهي وسيلة لجأ إليها الأمويون من أجل إنهاء عدد من التمردات

---

(١) شهت مملكة غرناطة مثلاً بين سنتي ٧٦٠-٧٦٣هـ أي فترة لا تتجاوز ثلاثة سنوات ثلاثة انقلابات سياسية متتابعة ويمدنا ابن الخطيب بمعلومات مهمة عن هذه السنوات المضطربة في كتابة نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، (القاهرة: دار الكاتب العربي، د. ت) ص١٠٣-١٨٨، ومقدمة المحقق ص١٢-١٥ حيث يؤشر على أسباب هذه الانقلابات التي تعود إلى الحزازات الشخصية والمنافسات السياسية، وكذلك لا ننسى نزاعات آخر أمراء غرناطة أبي عبد الله وعمه الزغل المستهلكة والمبددة لطاقات الأندلس ومواردها، ينظر لذلك سقوط غرناطة وربضه، عنان، نهاية ص١١٠-١١٢، ١٥٢-١٥٤؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٦٢. وعن بعض صور النزاع الداخلي زمن مملكة غرناطة ينظر: ابن خلدون، العبر، ٢/٤/ ص٣٧٣-٣٧٤، ص٣٨٣-٣٨٤.

المستعصية عليهم[1] إلا أنها استفحلت فيما بعد بشدة وخاصة في عصر الفتنة وما تلاه من حوادث في عصر الطوائف المتردي، وثمة نماذج عديدة متشابهة في أساليبها وأهدافها[2]، ولعل هذا أشر على الانحدار القيمي في شخص الزعيم والثائر في الأندلس[3]، وغالباً ما كانت قوى الصقالبة والمرتزقة الذين كثر استخدامهم أداة تنفيذ هذه الاغتيالات.

- وكان للنساء دور فعال في اضطرام مثل هذه المنافسات لذا فإن من سلبيات النظام السياسي في الأندلس المجال الواسع الذي منح لهن في التدخل بشؤون الدولة الخاصة والخطيرة وكتب التاريخ توقفنا على نماذج من النساء أدين أدواراً مؤثرة مثل طروب وصبح والذلفاء[4].

- وزادت من حدة النزاع السياسي في الأندلس ما ظهرت به البلاطات وأجهزة الدولة الحكومية بكونها مسرحاً محموماً للتنافس بين عدد من الشخصيات التي كان صعودها أو سقوطها يتم في وقت قصير حيث تؤدي الإشاعات والوشايات والمؤامرات دورها في هذه المسألة.

---

(١) أشرنا سابقاً إلى بعض حوادث الاغتيال في عهد الإمارة الأموية وكانت هذه الوسيلة تستخدم حين تواجه الإدارة الأموية ظروفاً أقوى من طاقتها وفي مقدمتها مناعة المدن الجغرافية وحصانة مراكز التمرد والمقاومة، عن هذا الموضوع ينظر الدوري، عبد الرحمن الداخل ص١١٥-١١٩، ص١٦٤-١٦٧، عواد صالح، الأندلس، ص٢٤-٢٦.

(٢) يكفي أن نشير مثلاً إلى تخلص المعتضد بن عباد حاكم إشبيلية من بعض خصومه بطريقة قاسية، وكذلك مقتل علي بن حمود على يد الصقالبة، عن هذه الحوادث ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص١٢٢، ٢٧٠-٢٧١، ١٣٩/٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص٢٣٩، الحميري، صفة جزيرة، ص٩٨-٩٩؛ خلاف، قرطبة، ص٣٣-٣٤.

(٣) التواتي، مأساة انهيار، ص٥٤٥، ٥٥١-٥٥٢.

(٤) عن هذه النماذج ينظر: مجهول، أخبار مجموعة، ص١٣٨-١٤٢؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ٢/ص٩٢، ٥٣٢؛ ٣، ٢٩، ٦٣-٦٤؛ ابن الخطيب، مصدر سابق، ٨٢، ١٠٩؛ ابن حيان، المقتبس ٥/ص٧-١٤، المراكشي، المعجب، ص١١٩؛ ابن الآبار، الحلة ١/ص١١٤ (هـ ١)؛ ابن سعيد، المغرب ١/ص٤٩، ١٩٩-٢٠٢، الحميدي، الجذوة، ص٧٩؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٩٦-٩٧؛ الضبي، بغية، ص١٠٥؛ تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٦٦ هـ (٤٤).

ومتابعة هذا الأمر يدلنا بوضوح أنه لم يكن هناك في كثير من الأحيان مخطط ثابت للكيفية التي يتم بها الانخراط والتقدم في سلك الخدمة الحكومية مما ولد ارتباكاً وارتجالية خطيرة بهذا الخصوص، وحتى حين جاء المرابطون والموحدون في عصر الانتعاش جعلوا أجهزة الحكومة حكراً على قبائل محددة وأسر معينة تدين لها بالولاء مما زاد من ضراوة المنافسة واضعف أجهزة الحكم حينذاك[1].

٢ـ مشكلة الطابع الوراثي للحكم

أدى الطابع الوراثي للحكم في الأندلس إلى زيادة حدة الصراع السياسي، ولا تتعلق سلبية هذه المسألة في الأندلس بالمفهوم النظري لها وتقاطعه مع شورى الإسلام، ولم يثر تطبيقه جدلاً فكرياً على الساحة العربية الإسلامية الأندلسية[2]، إنما برز أثره في الاتجاهين التاليين:

أ. تولي غير ذي الكفاءة للسلطة وحرمان الآخرين من فرصة قيادة الدولة عبر نظام الشورى، ويكفي أن نشير إلى تنصيب هشام المؤيد (ت ٤٠٣هـ) في قيادة الدولة من خلال هذا الإجراء الذي كانت عاطفة الأب تدفع إلى تمضيته دون أي اعتبار لمصلحة الدولة العامة، وغني عن القول أثر هذا التنصيب في مسيرة الوجود العربي الإسلامي الأندلسي[3].

---

(١) اعتمدت الدولة المرابطية في حكم الأندلس على عصبية القبيلية والأسرة فيتولى الحكم بها الأمراء من أبناء أمير المسلمين وقرابته وأصهاره، ويتولى هؤلاء كذلك قيادة الجيوش المرابطية ويضطلع بالقيادة العامة وله الأمر، ينظر عنان، عصر المرابطين ١/ص١٣١؛ ويبين مرسوم ابن تاشفين لولده علي كثيراً من هذه الأمور حول مناصب الحكام والولاة والقضاة، مجهول، الحلل، ص٥٦-٥٧؛ عنان، مصدر سابق، ١/ص٤٦.

(٢) عن مفهوم ولاية العهد وتطبيقاته في العهد الأموي: ينظر: الخفاجي، الدولة ص١١٨، ١٣٠.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢١.

ب. أورث خلافات أسرية داخلية حدثنا التاريخ الأندلسي عن كثير منها[1] فضلاً عن تقسيم السلطة بين عدد من الأبناء الذين ما أن تسنح الفرصة لهم حتى يشعلوا نزاعاً طويلاً دونما رادع رغبة في بسط السيطرة تولي القيادة[2].

٣. غياب القائد الأنموذج

ارتبط النظام السياسي في الأندلس بشخص القائد الذي يرأسه ويدير دفة شؤونه، وكان لذلك يضعف ويقوي تبعاً لطبيعة قائده، ووجد الأمر منذ البدء لكنه لم يظهر بشكل ملموس إلا بعد انتهاء الدولة العامرية وكان لقوة الدولة حينذاك أثر في ذلك.

وتأثرت أوضاع الأندلس في عصر الولاة سلباً وإيجاباً بطبيعة الوالي المعين عليها وأبرز ما انعكس عليها حينها هو الاضطرابات القبلية التي شهدتها لا سيما وأن التباين والتناقض بين الولاة الحاكمين كان كبيراً وواضحاً[3].

---

(١) حوادث النزاع الأسري على السلطة كثيرة ومتنوعة منذ عهد الداخل، بل إننا نجد عدداً كبيراً تجرأ على قتل ابنه خوفاً على سلطانه مثل الناصر والحاجب المنصور، عن بعض نماذج الصراع الأسري ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ص٢/٦٠-٦٣، ٦٥، ٦٩-٧١، ١٥٠-١٥١؛ ابن سعيد، المغرب ١/ص٤٣، ٥١-٥٢؛ ابن الأثير، التاريخ، ٧٥-٧٦؛ ابن خلدون، العبر ٢/٤/ص٢٧١؛ ٣٦١، ٢٩٧-٢٩٨؛ وفي عصر الطوائف: ابن بسام، الذخيرة ٣/ص٢٦٩-٢٧١؛ وفي عهد الموحدين، ابن عذاري، البيان المغرب (القسم الخاص الموحدين) ص٢٤٧-٢٤٨؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٥٦؛ أدهم، الناصر، ص١١١-١١٢؛ الخفاجي الدولة، ص١١٤.
ويقدم لنا ابن حزم في رسائله أشبه ما يكون بالإحصائية لمن قتل ابنه وثار على أبيه وحاربه ومن قتل أخاه وعمه أو ابن أخيه، ينظر الرسائل ٢، ص٨٨-٩٢، ١٩٢؛ ليس هذا فحسب بل البعض انفرد وعلل إقدامه على هذا الأمر، المؤسف دونما خرج مثلما فعل المعتضد ذلك حين قتل ولده إسماعيل، عنان، عصر المرابطين ١/ص٤٨-٥٢.

(٢) مثلما حصل في عهد المستعين بالله الذي قسم المملكة بين أبنائه الخمسة ثم المقتدر بن هود حين قسم الإمارة بين ولديه يوسف والمنذر، عن هذا الجانب: الحجي، مصدر سابق، ص٣٢٦؛ السامرائي، علاقات، ص٦٣-٦٤، ص٩٥.

(٣) يكفي أن نشير إلى النماذج المتضادة في توجهاتها مثل عبد الملك بن قطن وأبو الخطار في تعصبهما لقبائلهم والنماذج الإيجابية المتمثلة بالسمح بن مالك والغافقي وعقبة بن الحجاج، عن نزاع الشاميين ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٣٠-٣٢؛ مجهول، أخبار مجموعة ص٣٨، ٣٩؛ ابن عبد الحكم، فتوح ص٩٩-١٠١. وعن النماذج الإيجابية ابن عذاري، مصدر سابق، ص٢٩٥ الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٧٢، أخبار مجموعة ص٢٤.

وخفف من حد الحكم الفردي ووقعه على الشعب الأندلسي ما انطوت عليه شخصية الحكام الأمويين أمراء وخلفاء من صفات[1]، وهنالك صفتان هامتان ميزتهم من جهة ومكنتهم من مواصلة عملهم بنجاح من جهة أخرى:

أ. القدرة والكفاءة السياسية والإدارية، فقد عرف عن الحكام الأمويين أنهم خيرة من عرف العرب والمسلمون في الأندلس من حكام في نواحي الكفاءة والعدل والحزم[2]، فقد كان الوضع الأندلسي يحتاج إلى حاكم حازم قوي يستطيع السيطرة على أطراف المعادلة الصعبة فثمة صفات خاصة لمن يقودها فهو نمط خاص من الرجال وبناء متكامل من النظرة الشاملة والوعي المقتدر المبدع والسرعة في اتخاذ القرار[3] وقد نجح الأمويون في استيعاب تلك المتطلبات إلى حد كبير جداً[4].

ب. الإخلاص الحقيقي والانتماء الصادق لأرض الأندلس، فالأمويون حرصوا على حماية أراضي الأندلس وعدم التفريط بأي شبر منها[5]، وشمل هذا جميعهم وإلى

---

(١) كان الحديث عن أمراء وخلفاء بني أمية مدار اهتمام كثير المؤرخين منهم: مجهول، ذكر بلاد، ص١٠٩-١١١، ١٢٠-١٢٢، ١٢٥، ١٣٧-١٤٧، ١٥٠-١٥٤، ١٧٠، ١٧٤؛ ١٧٥؛ مجهول، مصدر سابق ص١٢٠-١٢١، ١٢٤، ١٣٠-١٣٢، ١٣٥-١٣٦، ١٣٨؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ١٥٧-١٥٨، ٢٢٣-٢٢٥؛ ابن سعيد، المغرب، ٢٩/١، ٣٩، ١٨١-١٨٨، ابن الكردبوس ص٥٨-٤١.

(٢) الذنون، آفاق، ص٢٤.

(٣) طه وآخرون، تاريخ العرب ص٢١٦.

(٤) أدهم، الناصر، ص٤، ١٤، وينظر في حرص الأمويين على العدل نموذج الداخل، النباهي، المرقبة، ص٤٤؛ والحكم الربضي م. ن ص٤٨،٤٦، ٧٥، المصدر السابق، ٨٠/٢؛ الخفاجي، الدولة ص١٢٨، الشعراوي، الأمويون، ص٢٥١، ٢٥٢، ويوصف الأمراء الثلاثة (محمد والمنذر وعبد الله) دائماً بالضعف وعدم الكفاءة والواقع أننا نظلم هؤلاء إذا رميناهم بالضعف والتقصير فإنهم لم يدخروا جهداً في إخماد الثورات وإخضاع المتمردين لسلطة الدولة ولكن الأحداث وتتابع المشاكل السياسية والاقتصادية الاجتماعية كان فوق طاقتهم ويكفي هؤلاء ما سجله التاريخ لهم من سعي محمود والنجاح في الحفاظ على سلامة الدولة من مهاوي السقوط النهائي بنفس مؤمنة صابرة لم تلن أمام الأعداء، ينظر: أدهم، الناصر، ص١٥-١٦؛ الخفاجي، الدولة، ص١٥٦-١٥٧.

(٥) عن إخلاص الحكام الأمويين تفيدنا المصادر التاريخية التالية: الحميدي، الجذوة، ص١٠-١١؛ المقري، نفح الطيب ١/ص١٦٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ص٩٨، ٢٢٨-٢٢٩؛ عباس تاريخ، سيادة، ص١٧، ونلمح في وصايا الأمراء الأمويين نموذجاً للحرص على الأندلس وسلامة أراضيها والتوصية بها ومنها وصية هشام لابنه الحكم، والحكم لولده عبد الرحمن، ينظر عنها وجوهرها ومغزاها: الخفاجي، الدولة ص١١٩-١٢١؛ ١٣٠-١٣١.

سقوط الخلافة، وحتى الأمراء الثلاثة الذين وصف عهدهم بـــ (دول الطوائف الأولى) أظهروا اخلاصاً محموداً من أجل استتباب الأمن وتحقيق الوحدة بين أجزاء الأندلس المختلفة[1] ولم يسجل عليهم أي تفريط بأراضي ومدن الأندلس، وبذلوا ما بوسعهم من قوة وجهد لحماية أراضيها، وهاتان الصفتان أدتا دوراً فعالاً في استمرارية الوجود الإسلامي السياسي والحضاري متواصلاً ومتقدماً.

ولكن الأمويين أخفقوا في استيعاب طبيعة التكوين الاجتماعي الأندلسي المتباين والتعامل معه بنجاح، وكذلك مسألة الحريات الفضفاضة للنساء وفتيان البلاط مما انعكس سلباً على مسيرة دولتهم، فالدولة التي لا تدرك طبيعة تكوينها وتعمل على إيجاد حل ملائم لها تكون معرضة للزوال ولعل هذا ما آل إليه أمر الأمويين في الأندلس بعد حياة سياسة قرابة ثلاثة قرون[2].

ولما غابت تلك القيادات المخلصة والكفوءة حدث فراغ كبير انعكس سلباً على مجريات الحياة السياسية، لا سيما وأنه لم يك هناك جهاز حكومي ثابت ومخلص يتولى توجيه مسيرة الدولة وفق مصلحتها العليا، فحدثت هناك فجوة كبيرة بين الكيانات السياسية التي خلفت الخلافة الأموية وبين أبناء الأندلس[3].

وكانت سنوات الفتنة وما تلاها نتيجة حتمية لفقدان القائد الأنموذج فقد حكمت الأندلس من قبل، زعامات هزيلة تنكرت لكل الثوابت والالتزامات، وحاول زعماء

(١) من صفات هؤلاء – والتي نقف عليها من تراجمهم – التقوى والالتزام ومحبة الصلاح والحرص على مصلحة الأندلس، ينظر: ابن عذاري، مصدر سابق، ٢/ ص٩٣-٩٤، ١٠٧-١٠٨، ١٢٠، ١٥٢-١٥٦، ١١٣-١١٤؛ ابن الخطيب، أعمال ص٢٦؛ مجهول، أخبار مجموعة ص١٤١-١٤٢، ١٤٩-١٥٠، ١٥١-١٥٣، الخشني، قضاة قرطبة ص٢٩٨؛ ابن الأثير، التاريخ، ص١١٤.

(٢) عويس، الصفحات الأخيرة، ص٦١-١٥.

(٣) رغم قوة المنصور فإن عمله غير الشرعي زاد من هذه الهوة، ولم يندمج الشعب الأندلسي معه أو مع أولاده، ويتحمل عبد الرحمن (شنجول) قسطاً كبيراً فيما حدث حيث يصفه المؤرخون بالانحدار الخلقي والتقليد المصطنع والرغبة الواضحة في الإجهاز على ما تبقى من رسوم الخلافة الأموية) عن عهده وصفاته ينظر: تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٦٦-٦٧؛ ابن عذاري، مصدر السابق، ٣/٣٨-٥٠، العبادي، المجمل، ص١٣٨-١٣٩ وغيرها.

الطوائف الاستعاضة عن ضعفهم وترديهم بالألقاب الرنانة الوهمية[1] والمدح المفرط من قبل الشعراء والذي كانوا يشرونه بمال شعوبهم، معتمدين على رقعة الأرض المنفصلة طبيعياً والفئة الاجتماعية المتعطشة لإشباع نزعة الاستقلال، وفئات الشعب العازفة عن خوض غمار الحياة السياسية، وحاولوا من كل ذلك اصطناع مجد لهم لكنه كان مجداً كاذباً لم ينفع في تغيير حكم التاريخ عليهم.

غلبت على هذه النماذج الآثرة والأهواء الشخصية إلى ابعد الحدود[2] وبرزوا ضعافاً في وطنيتهم، ودينهم، ونسوا التزاماتها، بل ونسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية واستساغوا لأنفسهم التعاون مع الملوك النصارى ضد بعضهم البعض من أجل الاستحواذ على بلدة أو حصن من مملكة شقيقة أو التنكيل بأحد الأمراء المسلمين المجاورين والغريب أن منهم من يفتخر بما يحققه من أهداف ويقبل التهاني حينما ينتزع حصناً أو مدينة من يد أخ كان قد استولى عليها ولا يتجه إلى أرض يطأها عدو الوطن الحقيقي لينتزعها منه، ويكفينا موقفهم من عمليات استنزاف طليطلة وإسقاطها ومأساة ببشتر ليكونا مثالين كافيين عن المستوى الذي غدا عليه، زعماء الطوائف[3].

---

(١) في تحديد مواقع المسؤولية بين الزعماء الانهزاميين والفقهاء السائرين في ركابهم ينظر الدور السلبي للاثنين عند: ابن حزم، رسالة التلخيص، ص١٧٣-١٧٤؛ محمد جميل بيهم: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ط١ (بيروت: مطبعة الكشاف، ١٩٤٨) ج١، ص١٠٣.

(٢) خالد محمود عبد الله: معاهدات الصلح بين الأندلس والممالك الأسبانية (٦٣٥-٨٩٧هـ) رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٦، ص٧٠؛ عنان، دول الطوائف ص٤٠٣.

(٣) أعلن الفونسو السادس حرب الاستنزاف ضد طليطلة عام ٤٧٢هـ وذلك وفقاً للمعاهدة السرية المعقودة بينه وبين المعتمد بن عباد، واستمرت هذه الحرب أعواماً دون أن ينجدها أحد خلال هذه الفترة سوى حاكمي بطليوس وسرقسطة بقوات رمزية لم تغن شيئاً، ينظر عن أنانية حكام الطوائف . . عبيدات، صعف، ص١٥٤؛ عنان، دول ص١٠٩-١١٠، ص٤٠٣؛ الحجي، التاريخ، ص٣٣٢، وعن فقدان القائد النموذج ينظر ابن الأثير، التاريخ، ص١٤٧؛ مؤنس، ص٢٢٨؛ خالص إشبيلية ص١٢٧؛ الطباع، القطوف، ص١٩٧؛ التواتي، مأساة، ص٢٠٩؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٦٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٩.

وبالرغم من ظهور بعض النماذج الإيجابية مثل أبو الحزم بن جهور والمتوكل بن الأفطس وبعض صور المعارضة الشعبية[(١)] إلا أنها بقيت فردية ودون المستوى المطلوب في ظل هذا الظرف التاريخي الحساس.

وكان مصير الدول التي حكمت الأندلس في عصور الانتعاش والانحسار مرتبطاً بأشخاص معينين، ومثلما لاحظ أحد الكتاب فإن مصير دولة الموحدين والمرابطين كان شبيهاً بمصائر الدول التي سلفتها والتي خلفتها، لقد أنشأها مؤسس الأسرة ثم وطد دعائمها خليفتاه الاثنان طوال فترة قصيرة من الزمان ولكن حكاماً أقل حظاً من القوة ما لبثوا أن أضعفوها[(٢)] وفي هذا دليل على ضعف نظام الوراثة وعدم قدرته على إمداد الدولة بقيادات كفوءة.

ويمكن للباحث في هذا المضمار أن يضع أبو عبد الله الصغير آخر أمراء سلاطين مملكة غرناطة في صف الأمراء الذين لم يكونوا بمستوى المرحلة التي ظهروا فيها وكان ضعفه وأنانيته وحرصه على سلطاته وحياته تجعلانه غريباً عن وضع الأندلس وأهله المسلمين المجاهدين في سبيل البقاء. ولكن هذا كله شيء وتحميله مسؤولية سقوط الأندلس كاملة شيء آخر.

ولا يوجه اللوم إلى زعيم واحد من كل هؤلاء[(٣)]، بل أنه يشمل كافة الزعماء الذين ساهموا في تجزئة الأندلس وانقسامها إلى طوائف وإمارات مفككة والذين كان كل شيء ممكناً لهم وفي عرفهم عدا شيئاً وهو العودة إلى جوهر العقيدة الإسلامية التي تربطهم ببعض وتعلمهم نبذ السلطة واستعباد الدنيا. وفي النتيجة دفع كل أهل الأندلس ثمن أخطائهم، دفع الحكام الثمن حين سلبت ممالكهم وأصابتهم الذلة، وبالرغم من

---

(١) مثال لذلك تذمر أهل طليطلة من سياسة القادر بن ذي النون في جمع الأموال ومنحها إلى حليفه الفونسو أثناء إمارته الثانية ينظر: ابن بلقين، التبيان، ص٧٧؛ بشرى الزبيدي، الثغر الأوسط، ص٦٨.

(٢) لاندو، الإسلام ص١٤٤؛ وعن المصادر الخاصة بصفات أمراء المرابطين والموحدين ينظر: ابن الأثير، التاريخ، ص١٦٤-١٦٥، ١٦٨، ١٨٢-١٨٤؛ ابن خلكان، التاريخ، ص٤٢٤-٤٢٨، ٤٥٩-٤٦٦؛ المقري، نفح الطيب ٦/ص١١٧-١١٩؛ المراكشي، المعجب، ص٢٦٩، ٣٠٩-٣١٠، ٣٥٤-٣٧٥، ٤٠٩-٤١٠، ٤١٣؛ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص١٣٨-١٣٩، ٤١٢-٤٢٠؛ عنان، عصر المرابطين، ١/٥١-٥٢، ٥٥-٥٦؛ ٢/٢٠-٢٢، ١٣٣.

(٣) عويس، الصفحات الأخيرة، ص١٦، ٢٤.

صورة الأسى التي تعلو نهايات هؤلاء فإن الجزاء كان من جنس العمل الذي قاموا به، ودفع الشعب المسلم الثمن حين استسلم لأمثال هؤلاء الزعماء ولم يأخذ على أيديهم فأحرقت دوره وسلبت أمواله وأرغم على تبديل دينه بل وتغيير اسمه وحرمته الصليبية المنتقمة فيما بعد أبسط حقوق الإنسان.

ـ القيادات الأندلسية وظاهرة الترف

انغمست الشخصيات القيادية الأندلسية في حياة الترف والبذخ[1] التي لازمتها منذ البدء واتضحت مساوئها فيما تلا من العصور حين أصاب الضعف العام الدولة في الأندلس، وتكمن خطورة هذه المسألة في إتاحة المجال لفئة قليلة أن تملك إلى حد الترف بمواجهة كثرة هائلة لا تملك شيئاً مما يعيش وسطه هؤلاء، وتزيد خطورة الأمر إذا كانت تلك الفئة المالكة في مراكز السلطة والمسؤولية.

تغدو المسألة تناقضاً لا أخلاقياً بين الطبقات الحاكمة التي تملك كل شيء تقريباً وتبني القصور الشاهقة وتمنح الشعراء الذين يمجدونها زيفاً وتملقاً وارتزاقاً أكياس الذهب والفضة وتقضي لياليها الباذخة في أبهى المباني وأفخم القصور، وبين قواعد محكومة لا تملك شيئاً يفيض عن الحد الأدنى من كفايتها وتعمل عدة أيام لتحصل على

---

(١) يمكننا فهم موضوع الترف بالرجوع إلى القرآن الكريم وطروحاته في هذا الصدد حيث تربط الآيات القرآنية بين البذخ والترف (الفعل والممارسة) وبين الهلاك والدمار (المآل والنتيجة) وتصرح بأن مصير القرى والكيانات المجتمعية المختلفة هو نتيجة انغماسها في الترف، (الإسراء/١٦، سبأ ٣٣).

وفي تحديد مواقع المسؤولية يقع ثقل كبير على عاتق القيادة التي تملك المال دون أن تغفل القاعدة التي تسير في ركابها وترضى بالخنوع على ممارسة دورها السياسي المشروع، عن الترف والنظرة القرآنية له ينظر: خليل، التفسير الإسلامي، ص٢٦٦-٢٦٨، ٢٧١-٢٧٢؛

وكان ابن خلدون قد نبه إلى الترف كمظهر من مظاهر الحضارة والقوة في الوقت ذاته الذي يؤدي إلى إضعاف البنية العامة للدولة ويكون الانغماس فيه عامل هدم للحضارة ومؤذناً بنهاية العمران، ينظر: المقدمة ص١٥٠-١٥٥، خليل، مصدر سابق ص٢٧١-٢٧٣؛ صبحي، في فلسفة، ص١٤١-١٤٢.

دينار واحد في الوقت الذي تنفق فيه مئات الدنانير وألوفها في أوساط الأمراء والأغنياء للمتعة واللهو[١].

مثلت السلطة الحاكمة في الأندلس قمة الثراء والتملك واقعياً، ورفعت لذلك الحاجز في أغلب أحيان بين الخزانة الخاصة وخزانة الدولة العامة، فنفقات الدولة كانت في معظمها موجهة لخدمة الطبقات الحاكمة، ولعل هذا يرتبط بالعمارة الأندلسية بصورة خاصة من خلال ما تركه لنا حكامها آثار ضخمة تدل على البذخ والرفاه الواسع.

ولا نركز ونحن نكتب في فلسفة تاريخ الأندلس ونتابع صور العمارة والترف على متابعة أطوال البناء والمواد المستخدمة فيه، إن تركيزنا نحو ما يريد الحاكم قوله لنا ولشعبه من خلال هذا البناء الشاهق وما تعنيه الأسوار المرتفعة والقاعات الفخمة ووسائل اللهو والمتعة، وثمة شواهد كثيرة على الإسراف في بناء القصور وظواهر الفخامة والبذخ في محتوياتها، وتفاصيل بناء مدينتي الزهراء والزاهرة[٢] تضعنا أمام واقعية وحقيقة هذه المسألة التي برزت عند كثير من الأمراء الأمويين وفي مقدمتهم عبد الرحمن الأوسط[٣].

---

(١) خليل، مصدر سابق، ص٢٨٠؛ خالص، إشبيلية، ص٥٩.

(٢) من أبرز مظاهر الترف في عهد الناصر أنه ابتنى قصراً كبيراً مدهشا سماه دار الروضة صرف في بنائه (٧.٥٠٠.٠٠٠) دينار استغرق انجازه خمس سنوات، وقصة الفقيه المنذر بن سعيد البلوطي معه عند بناء الزهراء مشهورة في كتب التاريخ، ثم أن اتفاق المؤرخين على أن موارد الدولة في عهد الخليفة الناصر قسمت إلى ثلاثة أثلاث الأول يدخر والثاني للمصالح العامة أما الأخير فللبناء والعمل لهو دليل آخر على الإسراف في عهد الناصر، عن التفاصيل يراجع: تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس)، ص٥٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٢٣١-٢٣٣؛ ابن سعيد، المغرب ١/ص١٧٩-١٨٠؛ النباهي، المرقبة العليا، ص٦٩-٧٢؛ ٥،٩/٣ عنان، دولة الإسلام ١/ص٣٩٦، فليفل الحياة الاجتماعية، ص٩٦.

(٣) بنى عبد الرحمن الأوسط قصر البهو والكامل والمنيف وكذلك قصر المجد والحائر والدوحة والمبارك والسرور والبديع وغيرها، وللشعراء وصف دقيق لهذه القصور يدلنا على فخامتها، ينظر، فليفل، الحياة الاجتماعية (ق٣-٤هـ) ص٩٥-٩٦؛ ابن سعيد، المغرب، ص٤٨، ٥٠-٥١.

وبرزت هذه الظاهرة بشكل واضح، زمن الطوائف[١] حيث شيد هؤلاء القصور الفخمة وانغمسوا في حياة الترف والمتعة كما هو حال المأمون بن ذي النون وبني جهور وبني عباد وكثير غيرهم حتى لم يشذ عن ذلك أمراء المرابطين والموحدين وسلاطين مملكة غرناطة[٢].

وظهر الترف كذلك في مجالات متعددة أخرى من أبرزها شراء المماليك والجواري، وإغداق الهبات والهدايا الكثيرة عليهم وكان للشعراء[٣] والمنجمين[٤] نصيب

(١) توقفنا المصادر على موضوع الترف في عصر الطوائف والضرائب غير الشرعية المفروضة وطرق جمعها وكلها تدلل على معاناة الشعب الأندلسي فضلاً عن حقائق بناء القصور التي نذكرها، وهذا الجانب المترف القائم على الإبداع في شؤون القصور والحدائق في ذلك العصر هو الجانب الذي ينبسط ويتطاول حتى يحول بيننا وبين رؤية جوانب ضعف والتخلف في المظاهر الأخرى وهذا ما كشف عنه ابن حزم في رسالة التلخيص، ينظر، عباس، تاريخ، الطوائف ص٣٣-٣٧؛ عنان، دول، ص٤٠٢-٤٠٧؛ وتنظر المصادر المراكشي، المعجب، ص٧٦-٧٣؛ ابن سعيد، المغرب، ص٧٨-٧٩، ابن حزم، رسالة التلخيص، ص١٧٣-١٧٨، ص١٩، ص٢٩ من مقدمة المحقق.

(٢) عن التفاصيل ينظر: المقري، نفح الطيب ١/ص٤٦٤؛ المراكشي، المعجب ص٩٥، ٢١٩، ٢٨٢، ٣٥٦؛ ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن، ص ١٢٩ وما بعدها، ص١٣٢، ٤٩٨-٤٩٩، ٣٧٠، ابن بسام، الذخيرة، ٤/ص٩٢-٩٣؛ أبو رميلة، علاقات، ص٣٣٤، فليفل، الحياة الاجتماعية (ق.٥-٦ هـ) ص٣٦، ٣٧.

(٣) تذكر لنا المصادر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم أجزل العطاء لزرياب حين دخل الأندلس فأجرى عليه في كل شهر مائتي دينار وعلى من حضر معه عشرون ديناراً لكل شخص كما قرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين ومائة مد من الشعير ومثلها من الحنطة إضافة إلى حدائق وقصور وهبه إياها تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار حتى بلغ زرياب الذروة في الجاه الثروة، ينظر بالنثيا، تاريخ الفكر، ص٥٣، فليفل، الحياة (ق٣، ٤هـ) ص٩٨. كما ومنح الشاعرة حسانة التميمية جائزة بعد إنشاءها قصيدة تشكو فيها من حاكم البيرة الذي لم ينفذ وصية الأمير الحكم بن هشام، وكان الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن يجزل العطاء للشعراء ينظر لذلك: هيكل، الأدب الأندلسي، ص١٠٨؛ الآوسي، فصول، ص٩٣؛ فليفل، مصدر سابق، ص١٠٠.

(٤) لم يكن المنجمون أقل حظاً من غيرهم في هذا المجال مثلما حصل عندما منح الأمير عبد الرحمن بن الحكم مروان بن غزوان المنجم ألف دينار عندما بشر الأمير وهو خارج في بعض

من ذلك، هذا فضلاً عن تكاليف الحروب الداخلية والهدايا المقدمة للعدو ونفقات القوات المرتزقة التي كان لها وقع شديد على الشعب الأندلسي.

ظهر أثر الانغماس في الترف في معاناة أبناء الأندلس(١) من الهوة السحيقة التي فصلته عن حاكميه، الشعب الذي كانت منازله تتضاءل أحجامها وقيمتها المادية حال النظر إلى قصور الأمراء والخلفاء الفخمة التي كانت حاجزاً يفصلهم عن صفات حياة أخرى لم يعرفها هذا الشعب يوماً ما(٢).

وإذا كان الأمويون قد أولوا الشعب عنايتهم في جوانب مهمة وانقادوا في أحيان كثيرة لآراء العلماء والصالحين مما خفف من وقع هذا الانغماس في حياة الترف قليلاً فإن المستأثرين بالسلطة ومستلبيها كانوا بعيدين كل البعد عن هذا الجانب فبنوا بمال الشعب نفسه مجداً زائفاً وكرماً لم يكلفهم شيئاً وعلى حساب أصحاب المال أنفسهم كما هو حال الحاجب المنصور وزعماء الطوائف الانهزاميين.

٤ـ الولاء والتحالف السياسي

أفرز النظام السياسي في الأندلس مشكلة غاية في الخطورة والحساسية وتتعلق بمنح الولاء والتحالف السياسي مع العدو ضد الأخ والصديق، وتاريخ الأندلس مليء بنماذج متعددة لهذا التوجه، وعلى الرغم مما تحمله هذه السياسة من أخطار عانى منها المسلمون على الدوام إلا أنها بقيت السياسة المتوخاة لديهم كلما حاق بهم مكروه أو فقدوا سبل النجاح في تحركاتهم وتمرداتهم.

سفراته بالسلامة وفي افتتاح ثلاث معاقل في بلاد العدو، ينظر ابن سعيد، مصدر سابق، ٢٢/١، فليفل، مصدر سابق، ص١٠٢.

(١) فضلاً عن هذا الأثر ترك الانغماس في الترف بعض صور الانحدار التربوي والأخلاقي ينظر عنه: التواتي، مأساة، ص٥٤١، ٥٤٣-٥٤٤؛ خالد، معاهدات ص٦٨-٦٩. ولابد من الإشارة إلى ما ذكره المؤرخون بأن أسباب تدهور المرابطين تعود إلى انغماسهم في حياة الترف واللهو، ينظر، التواثي، مصدر سابق، ٣٢٢-٣٢٣؛ وعن ظواهر الترف المدمر لمملكة غرناطة ينظر، حتاملة، محنة، ص٢١-٢٢.

(٢) عن الأثر النفسي لفعل الطوائف على الشعب الأندلسي ينظر: عنان، دول ص٤٠٥.

وسارع العدو لتلبية دعوات مسلمي الأندلس متخذاً منها ذريعة للتدخل في شؤونها الداخلية وإذكاء روح التفرق بين أبنائها[١]، ولذلك فتحت الأبواب على مصراعيها لهذه السياسة وقدمت للثوار والزعماء الأندلسيين الانفصاليين المساعدات البائسة لقاء تنازلات قاسية وكبيرة على حساب الأرض وأهلها.

ولعل محاولة الإعرابي استدعاء شارلمان سنة ١٦٢هـ زمن الداخل تعد أولى محاولات الاتصال مع العدو والتحالف معه ضد القوات المسلمة[٢]، وظلت القوات الفرنجية تلعب هذا الدور المهلك في تلبية دعوات المتمردين وإمدادهم بالقوات (المسيحية) ضد القوات (المسلمة)[٣] مثلما هو الحال في شرق الأندلس والأسر المولدية في الثغر الأعلى والتي كانت استعانتهم بالعدو في مقدمة أساليبها للضغط على السلطة المركزية وفي الحصول على ما يدعم موقفها من الإمدادات البشرية والمادية[٤].

وبرزت هذه السياسة بوضوح وقت التراجع الإسلامي، فيحدثنا ابن الخطيب أن هشام بن الحكم بن عبد الرحمن اتجه ((إلى خطة الخسف من استصراخ النصارى والاستغاثة بملكهم على شرط تمكنه من البلاد، ووصلت رسله إلى قرطبة فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن مما فتح الملوك المجاهدون من بني أمية وكافل أمرهم المنصور وولده))[٥].

واستعان سليمان المستعين في مسيرته نحو قرطبة بعسكر عظيم من النصارى فانتصر بهم وقتل النصارى عدداً كبيراً من مسلمي المدينة فكانت هذه الحادثة أول ثارات المشركين على المؤمنين كما يعبر عنها أحد المؤرخين[٦].

وعصر الطوائف مليء بمثل هذه التحالفات السياسية فلم يك أحد منهم إلا وهو يؤدي الجزية للأسبان عن يد وهو صاغر، بل كان هؤلاء أحقر شيء في عيني الملك الأسباني[٧] الذي كان أسر شيء عنده ((. . . فتنة تقع بين الولاة من المسلمين فيعين على هذا، وهذا على هذا فيستجلب بذلك أموالهم طمعاً منه أن يعجزوا فيظفر هو بملك

---

(١) عنان، مواقف حاسمة، ص٧٤.

(٢) ابن خلدون، العبر ٤٢-٢ ص٢٦٩؛ العبادي، المجمل ص٦٨.

(٣) عنان، دولة الإسلام، ١/ص١٦٨-١٦٩.

(٤) الشعراوي، الأمويون، ص١٥٩؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٧٢، ٣٣٧-٣٣٨.

(٥) أعمال الأعلام، ص١١٧.

(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص١١٤.

(٧) المراكشي، المعجب، ص١٣٣.

الجزيرة كلها))[1] وظهر هذا في صراع المعتمد بن عباد مع عبد الله بن بلقين والنزاعات المدمرة بين ابن هود وابن ذي النون والتحالفات المزدوجة لملوك قشتالة مع هؤلاء وغيرهم[2]، ونلمس بوضوح أن سياسة الود التي أظهرها ملوك أسبانيا لزعماء الطوائف كانت ستاراً أخفى تحته كل الأطماع والمخططات التوسعية الاستردادية.

ولم يخلُ عصر المرابطين والموحدين من هذه النماذج المتهاوية كأبن حمدين الذي استنجد بملك قشتالة حين حاصره ابن غانية[3]، والبياسي الذي تعاون مع العدو فاضعف خطوط دفاع قرطبة بتنازله عن مناطق أندلسية مهمة[4]، وابن مردنيش الذي كان شغوفاً بنظم النصارى وأزيائهم فضلاً عن إجادته اللغة القشتالية وتفضيله التحدث بها[5]، وعقد ابن مردنيش معاهدة صلح مع جمهوية بيزا مدتها عشر سنوات وكذلك مع جمهورية جنوة، وجرت الهدايا المتبادلة بينه وبين ملك إنكلترا وبسبب هذا منحه البابا لقب (صاحب الذكر الحميد)[6].

وضمت سياسة التردي هذه الالتجاء عند العدو واعتناق النصرانية والتنكر للثوابت والقواعد الإسلامية، ونجد في نموذج السيد أبي زيد من بني عبد المؤمن مثالاً واضحاً على ذلك وحدثتنا المصادر عن انقلابه المؤسف هذا[7]، هذا فضلاً عن استخدام

---

(١) تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس)، ص٨٢؛ خالد، معاهدات، ص٦٤.

(٢) عن هذه النماذج وغيرها ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص٣١٠-٣١١؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٠١؛ عنان، دول الطوائف، ص٦٣، ٧١، ٩٧-٩٨؛ عبيدات، ضعف ص١٥٤، عويس، الصفحات الأخيرة، ص٢٢.

(٣) علام، الدولة الموحدية، ص١٥٦-١٥٧؛ عنان، عصر المرابطين، ص٣١٤-٣١٥؛ أبو رميلة، علاقات ص٧٩.

(٤) ابن خلدون، العبر، ٥٢٩/٣/٣-٥٣٠؛ الحميري، صفة جزيرة، ص٦٠-٦١، ١٦٥.

(٥) أبو رميلة، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٦) عن هذه المعاهدة ينظر: عنان، عصر المرابطين، ٢/ص٢٣، ٤٦-٤٨، أبو رميلة، مصدر سابق، ص١٠٩-١١٠.

(٧) عن هذا الموضوع ينقل لنا عنان تفاصيل واسعة من المصادر المسيحية إذ تشير المصادر الإسلامية عنه باقتضاب غير أنها رغم ذلك تؤكده ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب ٣/ص٢٧٠؛ ابن الآبار، الحلة، ٣٠٥/٢؛ ابن خلدون، العبر ١٦٧/٤، عنان، عصر المرابطين ٣٧٩/٢-٣٩٨؛ ٣٠/١-٣١. وينظر الموضوع برمته عند: أبو رميلة، علاقات، ص٢٢٥-٢٢٧.

المرتزقة الذين خدموا الدولة لقاء المال[١] ومهما قدم هــؤلاء مــن خــدمات للمعســكر الإسلامي فإن الركون إلى خدماتهم غير مأمون لأن ولاءهم غير باق بل هــو مــرتبط بقدر ما يتقاضونه من أجر ولأن من خرج على قومه ودينه وتنكر لوطنــه وقبيلتــه لا يؤمن ولاءه كما وأن المنطق يقول أن الخروج على الحلفاء الجدد أســهل علــيهم مــن الخروج على مواطنيهم، ومن فرط في قومه أولى بالتفريط في أعداء قومــه[٢] ومثــال القمبيطور كاف للتدليل على هذه الحقيقة[٣].

إزاء كل ذلك لم يبدوا غريباً التراجع الحاد للوجود الإســلامي الــذي شــهدته الأندلس بعد سقوط الخلافة، ويتعلق جزء كبير منه بالتحالفات المعقودة مع العدو ونتيجة الولاء المتهالك المقدم من ثوار ومتمردي الأندلس وزعمائها الضعفاء.

ولم يقتصر هذا التراجع على الوجود السياسي إنما امتد ليظهر بصورة تراجــع في الالتزام القيمي والمبدأي لمن تولى زعامة الأندلس حينها فتنكر هؤلاء لقيم وثوابــت إسلامية لقاء المصلحة والسلطة والتملك وما قد يجره هذا من الاستمتاع المؤقت بالحياة المترفة وإغراءات المنصب.

والباحث لابد له أن يسأل عن الأسباب التي أدت إلى التحول في الذات المسلمة من الرفض لكل الأساليب السلبية والمتردية إلى القبول بها بل وعــدم التحــرج منهــا، ويتعلق نصيب كبير من ذلك بالمرحلة التي انتقل إليها العرب المســلمون بعــد انتهــاء عمليات الفتح الرئيسية حيث انتهت بها مرحلة التحدي المباشر ممــا أعقبــه اســتقرار النفسية الأندلسية وسكونها، ثم إن الخلل في توزيع الملكية الاقتصادية أوقف باب الهجرة إلى الأندلس بما يحقق تجديد روح مجتمعها فمال بذلك المستقرون إلى حياة الدعة وبدأت التناقضات ذات العلاقة بالأخلاق والقيم والتماسك بالظهور ممــا نجــم عنــه ظهــور ممارسات التحالف مع العدو.

---

(١) يحدد أحد الباحثين أسباب لجوء زعماء الطوائف والمعاصــرين للمرتزقــة بفقــدان المســوغات الشرعية لحروبهم التي لم تنخرط في إطار الجهاد في سبيل الله، ينظر خالص، إشبيلية ص٧٤.

(٢) طرخان، المسلمون، ص٢٤.

(٣) عن مغزى الاستعانة بــالقمبيطور ينظــر م. ن ص٢٤٤-٢٤٥؛ عنــان، دول ص١٢٢؛ وعــن تفاصيل ما حدث لبلنسية ينظر ابن الآبار، التكملة ٢٤٠/١؛ ابــن عــذاري، البيــان المغــرب، ٢٣٧/٤، وحول الظروف المهيئة لبروز القمبيطور وأمثاله ينظر: أشباخ ١١٢/١-١١٣.
وكان ابن مردنيش ممن اعتمد على هؤلاء بشكل واسع وأغدق عليهم الأحوال والهدايا والقطائع، ينظر لذلك عنان، عصر ٢٦٦/١؛ أبو رميلة، ص١٠٨.

سهل من هذه الممارسة السلبية موقف الآخر الذي بـــات يهـــرع لتقـــديم كـــل الإمدادات التي يحتاجها الزعيم أو المتمرد، ناهيك عن المساهمة في إثارة الفتن من أجل تقديم هذه المعونات وشق الصف وتمزيق القدرات العربية الإسلامية، فإقبـــال الآخـــر ومرونته مقابل انغلاق الخلف ساعد على زيادة اللجوء إلى هذا السبيل.

ويبدو أن دور أغلب الفقهاء في عصور التراجع العربي الإسلامي كان ضـــعيفاً في تصحيح مسار النهج الإسلامي على أرض الأندلس على عكس من سبقهم من فقهاء عصري الإمارة والخلافة مما ترتب على كل ذلك تغيير في العقلية الأندلسية الإسلامية في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في ظـــل غيـــاب المشـــاركة الشعبية التصحيحية والاكتفاء بمواقف الشجب والتذمر والسخط دونما أخذ جدي لزمـــام المبادرة لفعل سياسي معارض وإيجابي في الوقت ذاته.



الفصل الخامس
إشكالية التحدي الخارجي

المبحث الأول
العلاقة مع الآخر
بين المواجهات الحربية والدبلوماسية

الأول: **نظرة في أساسيات فهم العلاقة**:

واجه العرب المسلمون في الأندلس في التحدي الخارجي أقوى الإشكاليات المتعلقة بوجودهم وكيانهم السياسي، وارتبطت الأندلس منذ فتحها بوضعها الحساس والمتحفز على الدوام[1]، وعبرت مدونات مؤرخينا عن هذا، فوصفت بأنها ((دار جهاد وموطن رباط وقد أحاط بشرقيها وشماليها وبعض غربيها أصناف أهل الكفر))[2] وغدت الأندلس الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد[3]، وهي الجزيرة المنعطفة من البحر الزاخر والعدو الكافر[4]، وهذا ما ألمح إليه صاحب الأخبار المجموعة حين علق على فكرة الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) بإخلاء الأندلس حيث قال: ((وليت الله كان ابقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله))[5].

---

(١) يعبر أنور الجندي عن هذه النظرة بالإشارة إلى أن الفحص الدقيق يكشف عن قلق واضح في هذا الجزء من عالم الإسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الإسلامي قد توقف عندها، وبالرغم من المنجز الحضاري الباهر فقد كانت في الواقع أشبه بالمحاصرة أو المعزولة عن عالم الإسلام بحكم وقوعها في أوربا، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة لها طابع واضح يجري في إطار الإسلام ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوربية والجوار والتحديات المختلفة)) الإسلام وحركة التاريخ ص٣٢٩.

(٢) الحميري، صفة جزيرة، ص٣.

(٣) عنان، نهاية، ص١٤٦؛ حمادة، الوثائق، ص٥٣٦.

(٤) النباهي، المرقبة العليا، ص١٥٦.

(٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص٢٣.

وزاد من حساسية وضع الأندلس وخطورته عجز الخلف (المغرب) عن الإمداد في الوقت الذي كانت الأندلس ترتكز عليه في مواصلة وجودها العربي الإسلامي، فقدر لها مواجهة هذا التحدي كله وبعد سنوات لا تتعدى الخمسين من افتتاحها لوحدها وبقدرات ذاتية تماماً، وكان هذا متغير تاريخي مهم أصاب جسر التواصل الأندلس والدولة العربية في الصميم[1]، فقيام الدولة العباسية المتضادة مع الأمويين فيها الانقاسامات التي أحاطت بالمغرب أوقف جسر التواصل وأحيط الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بين جبهتين كلتيهما سلبي، بين جبال البرت التي تمثل حاجز العالم المسيحي وبين جبل طارق الفاصل بين الأندلس والعداء العباسي والكيان المحلي الانفصالي، هذا فضلاً عن فاصل البحر الطبيعي.

ولعل هذا ما قصده المنصور الموحد ي(٥٨٠-٥٩٥هـ) بعد قرون عديدة في وصيته[2] عندما وصف الأندلس باليتيمة وسكانها بالأيتام حين كتب عليها مواجهة العدو المتربص بها لوحدها، وعلى سكانها حمل ذلك العبء وتبعاته مما يؤشر خطورة كبيرة تحيط بالوجود الإسلامي تجاه قوى الآخر المتعددة والمعتدية.

ومحاولة فهم الآخر تتطلب منا رصداً كبيراً وشاملاً لأحواله وأوضاعه[3] إلا أننا نواجه بقلة كبيرة في المعلومات، والإطلاع على مصادرنا لا تكشف إلا عن معرفة قليلة أو ربما لا شيء على الاطلاق عن العدو الذي ظل يحارب طوال فترة إخضاع الأندلس، وحتى المعلومات التي ذكرت فهي تقتصر على قضايا الصراع السياسي والعسكري دون التعرض إلى أوضاع الآخر كقوة متعددة الأطراف، فالرواية التاريخية تنقل الكثير من الصور النمطية الشائعة ومع ذلك ليس هناك ما يدل على أنه جسم ضخم من المعرفة العملية الناشئة عن الاحتكاك الدائم[4].

وظلت المصادر تتحدث عن الآخر بأوصاف وتعابير ثابتة[5] (الطاغية/ لعنهم الله/ دمرهم الله) هذه الكلمات تعكس بعداً نفسياً قد يكون بديهياً تجاه قوى العدو الراغبة

---

(١) حوار في التاريخ والحضارة، (جامعة بغداد: كلية الآداب، ١٩٩٩) (حديث د. نزار الحديثي) ص٢٦٥.

(٢) عنان، عصر المراطين ٢/ص١٣٧.

(٣) يوتشيش، الانحسار العربي ص١٧٤.

(٤) عزيز العظمة: ((أعداء الداء/جيران أخفياء: الشماليون في عيون الأندلسيين)) الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٨٩-٤٠٦.

(٥) هذا فضلاً عن أثر طريقة الحوليات في تجزئة الحدث التاريخي وعدم عرضه بصورة تامة وواضحة ناهيك عن عدم تفحص المادة المعروضة ونقدها، فضلاً عن ضياع عدد مهم من المصادر، ينظر يوتشيش، مصدر سابق، ص٣٩٧.

في انهاء واجتثاث الوجود الإسلامي من هذه الأرض ونحن لا نركز على هذا الجانب فإن مصطلحات الآخر عنا تفوق هذه العبارات وتتجاوزها إلى الدس والتشويه في مواقف المسلمين على أرض الأندلس، إنما الذي نقصده أن حالة العداء التي انعكست في مدونات الجانبين حرمت البحث العلمي من مادة واسعة وشمولية ومنصفة في ذات الوقت تثري هذا الموضوع وتحيط بجوانبه المختلفة[١].

وبالرغم من هذا فالاطلاع على أحداث التاريخ الأندلسي ومواجهاته يمكننا من إعطاء إشارات ولمحات تعين الباحث على متابعة هذا الموضوع:

وابتداء: ظلت قوى الآخر من الأسبان مقتنعة بأحقيتها في أراضي شبه الجزيرة الايبيرية التي استولى عليها المسلمون بغير حق، ولم يتوقف هذا الشعور وبقي ينتقل من جيل إلى آخر طيلة فترة الحكم العربي الإسلامي، وكأن هؤلاء كانوا مدركين وبقناعة تامة أن هذه الأرض ستعود لهم يوماً ما ولو بعد حين[٢]، وعبر فرذلند في رده على أهل طليطلة حين هددوه باستدعاء المرابطين عن هذا المفهوم وتلك النظرة حيث أجابهم بقوله: ((ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضي لكم، فقد نصرنا الآن عليكم بردءاتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم))[٣].

يؤكد هذا القول على القناعة الأسبانية بأحقيتهم بالأرض والعودة المنشودة لتملكها من جديد، وفقدان المسلمين لذلك الحق، وأن انتماءهم لأرض أفريقية أقوى من انتماءهم لهذه الأرض الغريبة عليهم، وكانت عبارة حركة الاسترداد Re conqaista تعبر خير تعبير عن صفة ذلك التكتل الأسباني العائد لاسترداد أرضه ومنازله وتملكها بعد أن استلبها المسلمون طويلاً.

ويؤشر ما تقدم كذلك على وطنية وانتماء إسباني صميمي للأرض التي يقاتلون من أجل استعادتها مقابل عدم تبلور انتماء أندلسي يوازيه ويعادله، ويمكن أن يفهم هذا في ضوء قواعد المنطق الذي يفرض حقائق ضعف التفاعل بين الإنسان والأرض من

---

(١) وحتى حين يخصص ابن خلدون صفحات عديدة حول ذكر ملوك الأسبان وتعاقبهم ومدد حكمهم لا يقدم لنا معلومات واسعة وشمولية وعميقة عن الآخر وكياناً سياسياً وفكرياً وثقافياً، على سبيل المثال ينظر: العبر ٤-٢، ص٣٨٥-٣٩٧.

(٢) أمين، ظهر، ص٣١١؛ حمادة، الوثائق، ص٢٦-٢٧.

(٣) عن هذا القول المهم ينظر: ابن عذاري البيان المغرب ٣/ص٢٨٢؛ حمادة الوثائق، ص٢٤٦-٢٤٧؛ عنان، دول الطوائف، ص٩٩.

خارج وطنه بخلاف التفاعل القوي مع أرضه كما هو الحال في القاهرة أو بغداد أو اليمن أو غيرها من الأرض العربية فهناك علاقة مع الوطن أما في حالة الأندلس فإنها ليست أرضاً عربياً وليست جزءاً من الوطن العربي[١].

واتصف الآخر في حربه ضد الوجود العربي الإسلامي بالإصرار، وقد يتملك الباحث العجب وهو يتابع تاريخ الأندلس للقرون الطويلة التي قضاها الأسبان في استعادة بلادهم من المسلمين، حصناً حصناً، ومدينة مدينة، حتى اكتملت دولتهم مرة أخرى.

وامتاز الآخر في معاركه ضد المسلمين في الأندلس بالدقة في التخطيط، فعملية إنهاء الوجود الإسلامي لم تك مرتجلة ومتهافتة، وتدل طريقة تقدم الأسبان باتجاه الجنوب[٢]، والتسلسل التاريخي لذلك على أن حربهم كانت عملية قائمة على أسس دقيقة من الدراسة والتخطيط والتتابع، وخطة ترمي إلى أهداف واضحة المعالم تتمثل بإنهاء الكيان الإسلامي بصورة نهائية.

وتوزعت الممالك الأسبانية في مواقع مهمة وحساسة، حتى أصبحت تكون بتواجدها هذا قوساً حول المسلمين من الشمال والغرب، هذا فضلاً عن تواجد الجيوش الأوروبية في الشرق مما يمكن معه أن يتصور الباحث أن المسلمين أصبحوا بين شقي الرحا أو فكي الكماشة كما يقولون في الاصطلاح الحديث مما كان له أثر في إحاطة الكيان العربي من جوانب عدة مكنتها من مراقبة الأحداث الإسلامية وهي على أتم الاستعداد للتوجه نحو أراضي الأندلس وقريبة من كل حركات التمرد والانفصال[٣] التي كان التعاون معها إحدى وسائل حرب الاسترداد.

ونظرت أوربا إلى الفتح الإسلامي للأندلس بأنه يمثل الخطوة الأولى في الامتداد الإسلامي نحو أراضيها[٤]، وأحست أن إسبانيا ليست غايتها إنما هي طريق إلى دولها كلها، وبالتالي بات كثير من ملوكها وحكامها يخشون أن يكون بلدهم هو التالي في حلقات الفتوحات الإسلامية المتواصلة، وإذ نجحت تلك القوى الأوروبية في إيقاف مسار المد الإسلامي في بلاط الشهداء وحصر وجوده داخل حدود شبه الجزيرة

---

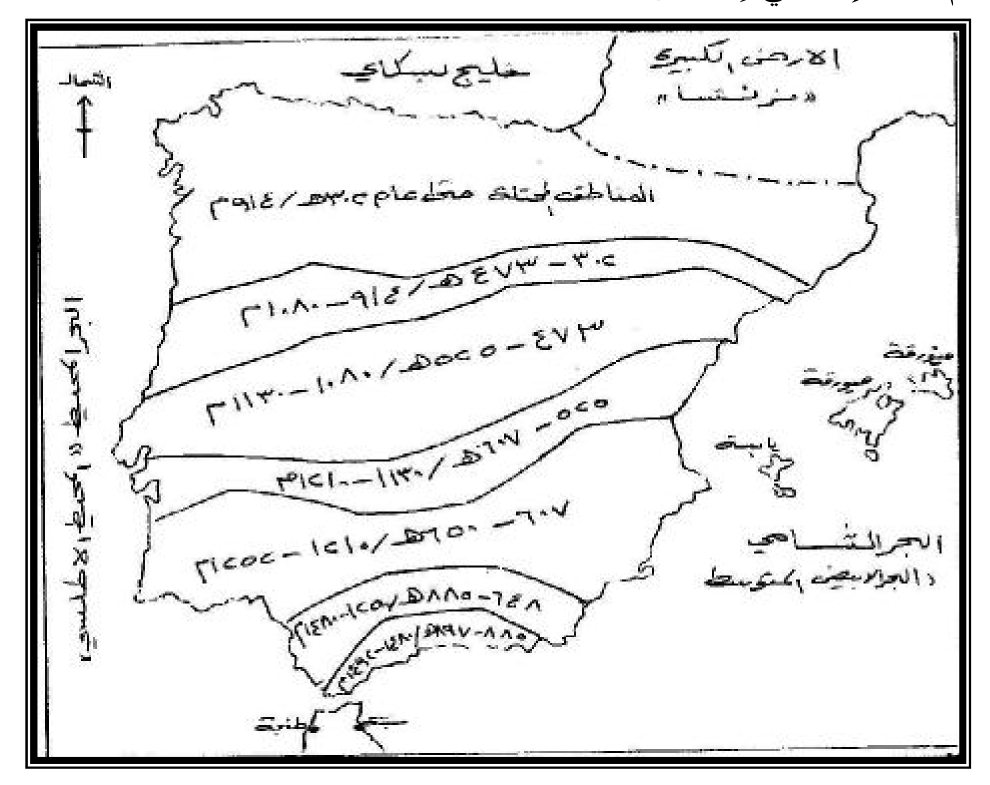
(١) حوار في التاريخ، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) التواتي، مأساة انهيار، ص٤٥٣.

(٣) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤)، ص٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩، ٣٩.

الايبيرية فإنها عمدت بعد ذلك إلى دعم الممالك الأسبانية مادياً ومعنوياً من أجل الحيلولة دون تقدم المد الإسلامي إليها من جديد.



تقدم الأسبان باتجاه الجنوب

المصدر: بشتاوي، الأندلسيون، ص٥٠، نقلا عن خالد، معاهدات الصلح، ص١٦٩



المصدر: بشتاوي، الأمة الأندلسية

نخلص بعد هذه الأساسيات إلى تقويم العلاقة مع الآخر بأن جانبها الحربي العدائي هو الأكثر وضوحاً، وأن المواجهات العسكرية طاغية على ما سواها من مظاهر الالتقاء الودي، وإن الآخر حمل فكراً وممارسة متضادة تماماً مع الجانب الإسلامي، وأن أهم فصول هذه العلاقة كانت تشهده ساحات القتال في معركة إثبات الوجود فوق هذه الأرض المحاطة بالأعداء المصيرين[١] فأساس العلاقة عسكري وحربي وعدائي وليس سلمي كما يذهب إلى هذا أحد الباحثين حين يظهر العلاقة الحربية صدى باهتاً لعقود وقرون من الحياة السلمية المزدهرة[٢].

إن متابعة إحصائية سريعة لأحداث التاريخ الأندلسي تبين لنا الثقل الواقعي للجانب الحربي في العلاقة مع الآخر، والتي كانت في نظرنا على الأقل أساس العلاقة وأن باقي صورها لا تمثل إلا جوانب سطحية في إطار ما نسميه حالياً بالعلاقات الدولية مثل تبادل الهدايا والكتب[٣]، بل أن هذه الجوانب ناتجة وتابعة إلى حد كبير لإحداث العمليات الحربية بين الطرفين، وأن أبرز عهود الأندلس تقدماً وازدهاراً (عهد الناصر وما تبعه) شهد نشاطاً جهادياً واسعاً ومتميزاً ضد كل القوى المعادية ودفعها بالتالي لطلب الهدنة والصلح، ويكفي أن ننظر إلى مدونات ابن عذاري[٤] وابن حيان[٥] وابن خلدون[٦] عن غزوات الناصر لنقف على حقيقة ما ندعيه هنا عن أساس العلاقة مع الآخر.

ثانياً: **الإطار التاريخي للعلاقة مع الآخر**:

لم يتوقف الصراع الخارجي في الأندلس منذ عام الفتح حتى سقوط الدولة العربية الإسلامية فيها، ولم يك إعلان توقف الفتوحات يعني نهاية الوجود الأسباني المسلح على أرض الأندلس وإن كان الفتح الإسلامي قد مهد الطريق لانتشار الإسلام

---

(١) بيضون، الدولة، ص٣١٢.

(٢) بشتاوي، الأمة، ص٧-٨.

(٣) بيضون، مصدر سابق، ص٣١٢.

(٤) تحتل غزوات الناصر صفحات مهمة من كتاب البيان المغرب ينظر عنها: ١٦٤/٢-١٦٩؛ ١٧٢-٢٢٣.

(٥) المقتبس ٥/ص٩٣-٩٩، ١٢٠-١٢٥، ١٤٥-١٤٧، ١٨٦-١٨٨، ١٩٥-١٩٧، ١٧٩-١٨١.

(٦) العبر ٢/٤/ ص٣٠٧-٣١١.

دعوة ورسالة وفكر عن طريق أفراد الجيش الذين لم يكونوا جنوداً فحسب إنما مثلوا دعاة وفقهاء وتابعين، وعن طريق المعاملة الحسنة والرفق الذي عومل به أهل الذمة والمصاهرات والتي كانت كلها وسائل سلمية فعلت وعجلت من عملية أسلمة إسبانيا فما هي إلا عدة سنوات حتى تغلغل الإسلام في بنية المجتمع الأندلسي، وحتى الذين لم يعتنقوه تأثروا به عملاً وسلوكاً[(١)].

- مثلت مجموعة بلاي نواة الممالك الأسبانية التي قادت حروب الاسترداد في الأندلس إلا أن هذا التجمع في بدايته لم يشكل خطورة تذكر، فوجدنا العمليات الحربية الإسلامية تتساح فيما وراء البرت متجاوزة الشمال الأسباني مركز المقاومة ورغم قوة العائق الجغرافي الذي وقف سداً منيعاً أمام اختراق تلك المنطقة فإغفال أمر هذه المجموعة كان خطأ ستراتيجياً فادحاً ومؤثراً[(٢)].

وساهمت النزاعات الداخلية في عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ) في تقوية المجامع الشمالية اللائذة بالجبال، وكانت الصورة التي بدا عليها الآخر بعد ذلك والمتسمة بالقوة والشدة والتوسع انعكس انعكاساً عملياً لذلك التغير في قوته وتكوينه.

دخلت العلاقة مع الآخر مرحلة مهمة في عهد الأمويين حيث أن اقتدارهم وكفاءتهم وإخلاصهم كان له أثره في هذه العلاقة بعدم التفريط بأي مدينة أو قلعة أو حصن، والرد بكل ما أوتوا من قوة تجاه كل محاولات العدو لاستباحة أرض الأندلس في نشاطات جهادية رائعة ومميزة[(٣)]، وبالمقابل لم يتوانَ العدو عن الرد بكل ما تجمع

---

(١) نواجه فقراً في المعلومات عن موضوع الانتشار السلمي للإسلام ومع ذلك ثمة شذرات عن هذه المسألة توجد في عدة مصادر ينظر عنها: ابن الآبار، التكملة ٣٢٤/١، ٢٨٢؛ الزهري، الجعرافية، ص٢٦؛ ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ١/ص٢٥؛ ابن الشباط، ص١٨١ وينظر عن الموضوع برمته الحجي، التاريخ الأندلسي ص١٤٥، ١٤٩، ١٥٢-١٥٦.

(٢) كان التأكد من فتح الأندلس وإزالة جيوب القوط في شمالي الجزيرة أولى من توجيه المد خلف البرت، هذه الجيوب كانت نواة دويلات ثم دول أسبانيا، وبعد تراجع الوجود الإسلامي عن تلك المناطق رسمياً بسقوط أربونة (٧٥١م) عادت جبال البرت من جديد لتفصل بين الأندلس وأراضي أوروبا الأخرى، ولبث الصراع الحاد على أرض شبه الجزيرة الايبيرية.

عن موقف الستراتيجية الإسلامية تجاه بلاي وأثرها ينظر الحجي، التاريخ ص١٣٥.

(٣) حاول الآخر استغلال الظروف الداخلية للأندلس من أجل تحقيق توسعات لصالحه على حساب التواجد الإسلامي مثلما حصل عند قيام الدولة العباسية (ابن خلدون) العبر ٤-٢ ص٣٩٦)؛ وعمد فرويلا الأول إلى استغلال إنشغال الداخل بتوحيد الدولة فقام بغزوات عديدة وكذلك =

لديه من قوة ولم تك تثنيه الانكسارات المتعددة عن عزمه وعن الالتجاء إلى أساليب مختلفة في توجيه الصراع ومنها التعاون مع متمردي الأندلس فشهدت هذه المرحلة بداية التعاون مع العدو، حيث اصطنع الآخر سبيلاً جديداً لإضعاف الوجود العربي الإسلامي في الأندلس من خلال التدخل في شؤونها الداخلية وتشجيع فئات النصارى في الشمال على التحرش بحكومة قرطبة، والتعاون مع رموز المتمردين والانفصاليين الكثيرين الذي ملأوا أرض الأندلس بهدف إضعاف الحكم المركزي وتبديد قواه الحربية[1].

ونلمح تفوقاً أسبانياً في أواخر عصر الإمارة يتضح من خلال الهجمات الأسبانية المتعددة على عدة قواعد إسلامية مثل حصن دويل (٢٦٦ هـ) وقلمرية (٢٦٨ هـ) وسمورة (٢٨٠ هـ) وطولوشة (٢٨٨هـ)[2] ولم يخف الخطر هذا إلا بعد إقرار نظام الخلافة في عهد عبد الرحمن الناصر[3]، أن هذا التفوق لم يستمد قوته إلا من ضعف الجبهة الإسلامية الداخلية على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والذي منح القوى المسيحية الفرصة التاريخية لتجاوز حالة انقسامها وضعفها لتحويلها إلى قوة لصالحها[4].

=الفونسو الثاني الذي عمد إلى تحين الفرص واستغل إنشغال الحكم الأول ببعض الفتن الداخلية وخاصة تمرد ماردة فهاجم أراضي الدولة الإسلامية (المصدر نفسه ص٢٦٥) ولكن في ذات الوقت رد الأمراء الأمويون وبشكل مميز على هذه المحاولات العدوانية مثلما فعل الداخل في مهاجمته لقشتالة سنة ١٤٢هـ، وغزواته نحو منطقة البة، كذلك أفشل الحكم بن هشام محاولات الأسبان المذكورة آنفاً ومنعهم من تقديم المعونة للمتمردين سنة ١٨١هـ/٨٩٧م وأفشل جميع تحالفاتهم وعملياتهم العسكرية ضد دولة الإسلام في الأندلس، وكذلك عبد الرحمن الأوسط الذي حقق انصاراً مهماً على الفونسو الثاني ملك ليون في غزوة ألبة والقلاع عام ٢٠٨هـ ٨٢٣م، عن التفاصيل ينظر:

ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٥٤، ٧٣-٧٥؛ المقري، نفح الطيب، ١/ص٣٣٠؛ ابن الخطيب، أعمال ص١٤ فما بعدها عنان، دولة الإسلام، ص٢١٣؛ السامرائي، لثغر الأعلى ص٨٥-٨٧؛ ١٩٦، ١٦٨؛ الحجي، أندلسيات ١٧٢/٢؛ خالد، معاهدات الصلح، ص٥٣-٥٦.

(١) الشيخ، دولة الفرنجة، ص١٧٩.
(٢) يوتشيش، الانحسار، ص١٧٩.
(٣) عن متابعة النشاط الأسباني في بداية عهد الناصر ينظر مقتبس ابن حيان في مواضع متعددة من جزئه الخامس.
(٤) حول ظواهر التراجع الإسلامي في هذه المرحلة وإفادة الآخر منها ينظر، يوتشيش، مصدر سبق ذكره، ص١٧٥-١٧٧.

ولما كان هذا التفوق مرتبطاً بالوضع الأندلسي الداخلي فإنه لم يمثل سوى تفوق سطحي ومؤقت انتهى بمجرد إلغاء شروطه الموضوعية، وأن تغير تلك الشروط في عصر الخلافة الذي عقبه حدد مساراً آخر لآلية تطور الصراع الإسلامي – المسيحي وأصبح لصالح مسلمي الأندلس[1].

- تصاعد العمل العسكري الإسلامي في القرن الرابع الهجري بسبب قوة الحكام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)[2] والحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ)[3] والحاجب المنصور (٣٢٦-٣٩٢هـ)[4] بصورة كبيرة حيث خاض أولئك حملات حربية واسعة كان لها أثرها في التعامل مع الممالك الأسبانية، وإعادة موازين القوى من جديد لصالح الأندلس المسلمة وعلى الرغم من ذلك لم تنجح أيا من تلك الحملات في القضاء على مملكة واحدة من الممالك الإسبانية[5] التي كانت ما تنفك تستعيد قوتها بين الحين والآخر، وتعيد جدولة نشاطها العسكري وتتهيأ استعداداً للمرحلة التي تليها، ليس هذا فحسب بل أن الصفة التأديبية غلبت على هذا النشاط الجهادي الذي

---

(١) يوتشيش، الانحسار، ص١٧٩.

(٢) تميز عهد الناصر بالنشاط الجهادي الواسع والانتصارات المتتالية وبرغم هزيمة الخندق فإن صفة التغلب كانت أكثر ثقلاً من صفة التراجع عن هذه المرحلة ينظر:
ابن حيان، المقتبس ٥/ص٩٣-٩٩، ١٢٠-١٢٥، ١٨٦-١٨٨، ٩٥-١٩٧؛ ١٧٩-١٨٨، ١٤٥-١٤٧، ٤٤٩-٤٥٢/ ٤٥٥-٤٥٦، وغزوة الخندق ٤٣٢-٤٤٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/١٦٤-١٦٩، ٧٢-٢٢٣؛ العذري، نصوص، ص٨١-٨٢.

(٣) رغم ميل المستنصر إلى الهدوء والمسالمة وحياة العلم إلا أنه رد العدوان بكل بسالة ودافع عن أراضي الدولة، يحدثنا عن ذلك ابن حيان، المقتبس (تحـ الحجي) ص٢٣-٢٦، ٥٨، ٧٦، ٧٨-٧٩، ٩٢-٩٣، ١٠٦؛ ابن عذاري، مصدر سابق ٢/ص٢٤٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ١٨٨-١٨٩ وغيرها.

(٤) يكتسب نشاط المنصور الجهادي أهمية كبيرة عند المؤرخين بسبب نجاحه ونحن لا ننكر ما اتفق عليه المؤرخون بهذا الشأن إلا أن المشكلة تتعلق بجوهره ودوافعه، كما أنه أدى إلى ترويع الآخر وتحفيزه للتوحد والانتقام من الوجود الإسلامي الذي كان بدأ التراجع بعد وفاة المنصور والمظفر، عن غزوات المنصور ينظر:
العذري، مصدر سابق، ص٧٤-٨٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ص٢٦٤-٢٦٥، ٢٦٧؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٠٠؛البكري، جغرافية الأندلس، ص٣٠-٣١؛ التواتي، ماسأة، ١٩٠، ١٩٦؛ طرخان، المسلمون، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٥) السامرائي، علاقات المرابطين، ص٣٢-٣٣.

كان رداً على عدوان أو دفاع عن أرض الأندلس وبدت أغلب تلك الحروب نتيجة لتحرشات ابتدأت بها أسبانيا الشمالية[1].

وتتغير صورة العلاقة مع الآخر بعد سقوط الخلافة[2] بشكل كلي إذ فقدت الوحدة بين أجزاء الأندلس وتبعثرت قوتها العامة واستنزفت طاقاتها في النزاعات الداخلية واعتمد زعماء الأندلس على الممالك الأسبانية التي تحالفوا معها وبالتالي غدا أمراء الطوائف يلتمسون الهدنة والأحلاف من الأمراء المسيحيين بعد أن كان هؤلاء هم الذي يسعون عند أمراء المسلمين[3]. فغدت المعادلة كالآتي: عدو ينمو على هدف واعتقاد وسلطة تذبل وتتكمش.

وكان زعماء الطوائف في نظر الآخر أصغر واقل من أن تعار لهم أهمية كما يعبر المراكشي عن ذلك[4]، وفسر الفونسو السادس ذلك بقوله:

((كيف أترك قوماً مجّانين [كثيروا المجون] تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم . . . وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفا قد أظهروا الفسوق والعصيان واعتكفوا على المغاني والعيدان وكيف يحل لبشر أن يقرّ منهم على رعيته وأن يدعها بين أيديهم سدى))[5] ، فالآخر بذلك أدرك مستوى زعامات الطوائف وقيمتها.

أفادت الممالك الأسبانية من ذلك الوضع لتنشيط جهودها من أجل إنهاء الوجود الإسلامي على طريقة ما سمي في العصر الحديث بـ ((حرب الاستنزاف)) أي استنزاف الطاقة البشرية والمادية لأمراء الطوائف ثم إسقاطهم بسهولة[6] سيما وأن سياسة ملوك الطوائف كانت انتحارية حيث عمدوا إلى القضاء على أنفسهم بأنفسهم من خلال الأموال التي دفعوها للأسبان فهم كما يقول ابن الكردبوس ((ضعف بعضهم عن

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٥٦؛ وعن الطابع التأديبي لجهاد الناصر ينظر حايك، الناصر، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) عن أثر سقوط الخلافة الأموية: مختار العبادي، في تاريخ، ص٢٦٠-٢٦١.

(٣) بروفنسال، الإسلام، ص١٢٤، وكذلك ص١٧١.

(٤) المعجب، ص١٩٣.

(٥) تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٨٩؛ وكذلك عنان، دول الطوائف، ص٧٤.

(٦) السامرائي، علاقات، ص٤٦.

بعض إلا بمعونة الروم، فبذلوا للفنش [الفونسو السادس] يجبيه من الأموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجال، واللعين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور))[١].

ولا تقدم المصادر التاريخية تقديرات أو إحصائيات معينة للمبالغ التي دفعها زعماء الطوائف وتكتفي بوضعها تحت عنوان دفع الجزية وبذل الأموال، ورغم ذلك فإن هذا يؤكد على سلوك زعماء الطوائف هذا الاتجاه الذي جعلهم يغذون الحرب ضدهم صاغرين، حتى أمكن القول أن العصور الوسطى لم تعرف إلا في حالات قليلة جداً وضعاً يماثل وضع الملوك الأندلسيين الذين وجدوا أنفسهم يمولون الحرب ضد أنفسهم بأموال الشعوب التي حكموها[٢].

وتدخل العلاقة مع الآخر مرحلة حساسة وخطرة منذ عهد الانتعاش الإسلامي إزاء انقلاب موازين القوى والسيطرة في شبه الجزيرة الأيبيرية وتوسع الممالك الأسبانية في استعادتها لعدد من المدن الأندلسية، والقوة التي ما لبثت في تصاعد مستمر لا يوقفه إلا حالات الخلافات الداخلية التي كانت تشتد بين الحين والآخر وتعرقل مشاريعها الاستردادية[٣].

كان العمل العسكري في هذه المرحلة متواصلاً ولم تعرف الحرب بن المرابطين ومن ثم الموحدين ونصارى أسبانيا يوماً توقفاً رغم تعدد الجبهات التي كان عليهم مواجهتها، وحقق المرابطون انتصارات مهمة في مقدمتها انتصار الزلاقة الشهير الذي عد من أيام التفوق الإسلامي المشهودة في الأندلس[٤].

---

(١) تاريخ الأندلس، مصدر سابق، ص٧٧.

(٢) بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص٧١-٧١ (باختصار).

(٣) عن أثر الخلافات الأسبانية في تقوية الجانب الإسلامي ينظر: عنان، عصر المرابطين ٧٣/١، ٢٥-٢٦، السامرائي، علاقات، ص٢١٧-٢١٨؛ أبو رميلة، علاقات، الموحدين، ص٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٦-٢٥٧.

وكانت العلاقة عكسية بين ضعف الجانب الأسباني وتنازعه وبين تزايد النشاط الجهادي الإسلامي.

(٤) فضلاً عن معركة الزلاقة خاض المرابطون معارك مهمة من أبرزها (اقليش ٥٠١هـ) (افراغة ٥٢٨هـ)، ينظر عن جهاد المرابطين: ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٢٩١؛ ابن كردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٤، الحميري، صفة جزيرة، ص٨٤-٩٥؛ المقري، نفح الطيب ٢/ص٢٧٦-٢٨٦؛ ابن الأثير، التاريخ ص١٥٢-١٥٥؛ عنان، عصر المرابطين ١/ص١٦٠-١٦٧؛ السامرائي علاقات، ص٣٣٨-٣٤٢؛ سيسالم جزر ص٢٩٧-٢٩٨.

ومما يلاحظ أنه رغم النصر الرائع الذي تحقق في هذه المعركة إلا أنها لم تمثل معركة إعادة الامتداد الإسلامي، أو معركة المصير العربي في الأندلس، فهي لم تعب القوى الإسلامية الأندلسية لبناء الدولة وإنما استعانت بقوى خارجية لتؤخر المصير المحتم(١)، ونجح المرابطون بالفعل في تحقيق نقلة نوعية في العلاقة مع الآخر ولكن الأندلسيين لم يحاولوا بناء أنفسهم وصنع التقدم من خلال الذات، وتبين مراجعة هذه المرحلة إلى أي حد ركن أهل الأندلس إلى استيراد النصر والبقاء من إخوانهم المغاربة، وبالفعل بقيت الأندلس إسلامية بهذا السبيل من إمدادات المرابطين والموحدين وبني مرين، لكن الحقيقة القاسية التي واجهها الأندلسيون فيما بعد هي خطأ الاعتماد المطلق على هذه السياسة فهذه القوى سيصيبها الضعف والوهن يوماً ما، وتعجز مواردهم وطاقاتهم عن استيعاب أطراف الصراع وأحداثه(٢)، ويعجز الخلف بالتالي عن مواصلة الإمداد.

أصاب التجربة الجهادية المرابطية الضعف واشتد الضغط عليهم وتعددت أطراف النزاع فلم يعد في وسعهم المواصلة والاستمرار(٣) فتحمل الموحدون المسؤولية، ولم يبخلوا بأي جهد وحققت البطولة الإسلامية صوراً رائعة في معارك متميزة من أبرزها معركة الارك (٥٩١ هـ)(٤) والتي سادت فيها صوراً مشرقة تدل على التضحية وحب الجهاد في سبيل الله، وبعد طول الجهاد والمصابرة أخذت قوة الموحدين بالنضوب إلى درجة تجعلها غير قادرة على إمداد الجهاد. في الأندلس مع التأكيد على أن هذا النضوب لم يمس الروح المعنوية الإسلامية التي ظلت مشبعة يجب التضحية والجهاد والحرص على مصير الأندلس مما قد يحيق بها، وكان التراجع يمس القوة المادية

---

(١) الطباع، القطوف اليانعة، ص١١١.

(٢) عويس، الصفحات الأخيرة، ص٢٠ بتصرف يسير.

(٣) عن عوامل ضعف التجربة المرابطية ينظر: الحجي، التاريخ، ص٤٢٥؛ التواتي، مأساة انهيار، ص٣٢٦-٣٢٧؛ علام، الدولة الموحدية، ص١٤٣-١٤٦.

(٤) عن موقعة الإرك تنظر: المقري، نفح الطيب ٦/ص١١٥-١١٦؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٢١؛ الحميري، صفة، ص١٢-١٣؛ المراكشي، المعجب ص٣٥٨-٣٦٠؛ ابن عذاري البيان الموحدي، ص١٩٣-١٩٦؛ مجهول، الحلل الموشية، ص١٢١-١٢٢.

والعسكرية التي لا يستمر الجهاد كذلك بدونها، ومثلت خسارة العقاب (٦٠٩هـ)[١] بداية نهاية الدولة الموحدية، ليس هذا فحسب بل أنها عدت بداية نهاية الأندلس[٢].

سنحت للآخر حينذاك الفرصة التاريخية من جديد في مد سيطرته على مساحات شاسعة وسقطت مدناً كبرى مثل قرطبة (٦٣٣هـ) وإشبيلية (٦٤٦ هـ)، وانزوى الوجود الإسلامي في مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ) التي كانت عنواناً ورمزاً للوجود الإسلامي في الأندلس في هذه المرحلة الحرجة قاد الصراع في قرنيه الآخرين وعقوده الختامية.

ولابد للدارس في تاريخ هذه المملكة أن يقرر بأن بقاءها لمدة قرنين ونصف كان حدثاً فريداً في سجل التاريخ الأندلسي لا سيما وأن ما واجهته هذه المملكة الصغيرة فاق قدراتها وطاقاتها، ولكن الملفت للنظر أن هذا الأمر نفسه هو ما أبقاها كل ذلك الوقت[٣].

كان قانون الاستجابة للتحدي هو الذي أبقى غرناطة زاخرة بالفكر الإسلامي والرقي الحضاري هذه المدة وكان شعور الغرناطيين أنهم أمام عدو محيط بهم من كل جانب ينتظر الفرصة للانقضاض عليهم وأنه لا أمل في استيراد النصر من العالم الإسلامي أو الاعتماد المطلق على هذه المساعدات وإنما الاعتماد على أنفسهم، هذا الشعور بعث فيهم الاستعداد الدائم ورفع راية الجهاد والتمسك بإسلامهم، وبهذا نجحت غرناطة في البقاء حتى سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م[٤].

وأسهم بنو مرين بدور كبير في صمود غرناطة حيث اضطلع هؤلاء بمهمة الموحدين والمرابطين من قبلهم في الأندلس، ولم يتوانَ هؤلاء عن نصرة إخوانهم في

---

(١) عن وقعة العقاب ينظر: المقري، نفح الطيب ٦/ص١١٧، مجهول؛ مصدر سابق؛ المراكشي، مصدر سابق. ص٢٠١-٢٠٣؛ بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص١٩٨.

(٢) يقول ابن الآبار واصفاً أثر المعركة: ((وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها)) التكملة، ١/ص١٠؛ كما أنها قضت على مكانه الموحدين في أرضها وأفضت إلى تراجع إسلامي حاد واضطراب داخلي مؤسف، ينظر عن هذه الآثار: عنان، عصر المرابطين، ٢/ص٣٢٠.

(٣) عويس، الصفحات الأخيرة، ص٢٦؛ وعن أسباب ثبوت غرناطة، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥١٩-٥٢٠.

(٤) عن الإنجاز الحضاري الإسلامي وقت مملكة غرناطة ينظر الحجي، مصدر سابق، ص٥٦٠-٥٦٢؛ فرحات، غرناطة، ص١٥٣-٢٠٠.

كل وقت ومتى ما قدروا[١]، فضلاً عن نزوح عدد من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها، وليكونوا على أهبة الاستعداد للجهاد والدفاع عن الأندلس فيما عرف بـ ((مشيخة الغزاة))[٢] هذا كله على الرغم من السياسة المتناقضة التي واجههم بها بن الأحمر.

أنهكت قوى مملكة غرناطة في مقابل التحدي الخارجي القوي والعنيف، واستهلكت الكثير من طاقاتها مما جعل مقاومة ذلك التحدي شاقة وصعبة وبدأ العدو ينال منها كثيراً في أوقات كانت تستفرغ قواها فيما بينها في نزاعات داخلية حتى انتهت إلى مصيرها المؤسف.

وواجهت القوى الإسبانية الكيان الإسلامي المتبقي بسلاحي: الوحدة والدعم في وقت افتقدت مملكة غرناطة للوحدة في خضم نزاعاتها الداخلية التي ظلت مستمرة حتى نهايتها[٣]، وفي الوقت الذي كانت أوربا كلها تساند ممالك أسبانيا في مشروعها الاستردادي الصليبي توقفت إمدادات المغرب للأندلس بعد انحلال دولة بني مرين وسقوط جبل طارق الذي حال دون وصول أية إمدادات من عدوة المغرب، فواجهت الأندلس مصيرها لوحدها وقتذاك[٤].

زال سلطان المسلمين السياسي تلاه زوال وجدهم البشري بعد سنوات واشهر وايام المعاناة والجوع والمرض، وكل ذلك تم مقابل معاهدة التسليم الموقعة بين حاكم

---

(١) حول إمدادات بني مرين والعلاقة مع بني الأحمر ينظر: ابن خلدون، العبر ٤-٢/ص٣٦٩-٣٧٠؛ عنان، نهاية الأندلس، ص١٢٦؛ الحجي، ص٥١١؛ التواتي، مأساة انهيار، ص٤١٢-٤١٣.

(٢) المقري، نفح الطيب ٦/ص١١٩-١٢٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٤٠.

(٣) إلى سنوات قريبة من اتحاد عرش قشتالة وارغون (٨٨١هـ) كانت غرناطة يمزقها النزاع بين السلطان أبي الحسن بن سعد وأخيه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكذلك بين السلطان أبي الحسن علي وابنه عبد الله محمد المعروف بالصغير، وبين أبي عبد الله محمد الصغير وعمه أبي عبد الله محمد الزغل، ينظر: عنان، نهاية ص١٧٢.

ولا ننسى الإشارة إلى اتفاق أبي عبد الله مع القوات الأسبانية وهو في الأسر من أجل احتفاظه بالعرش، عن هذا ينظر حتاملة، محنة ص٢٨-٣٦؛ خالد، معاهدات، ص١٤٥-١٤٧.

(٤) فشلت سفارات الاستغاثة الأندلسية إلى مصر ومنها سفارة ٨٤٤هـ إلى السلطان المملوكي الظاهر جقمق والتي لم تفلح إلا ببعض المساعدات المحدودة، عنها ينظر: خالد، معاهدات، ص١١٢؛ مؤلف مجهول، آخر أيام غرناطة، ص١٤٥؛ فرحات، غرناطة، ص٥٥-٥٦؛ طه وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٩٧.

غرناطة المتخاذل وبين ملكي قشتالة في ٢١ محرم ٨٩٧هـ/٢٥ تشرين الثاني ١٤٩٢م، والتي حملت كل شيء للأندلسيين ولكنها للأسف حبر على ورق، ليس هذا فحسب، بل خدعة رخيصة لإنهاء المقاومة الغرناطية والرروح الجهادية التي تعتمل في الصدور(١).

ثالثا: **السلام والدبلوماسية / نظرة في البواعث والمضمون**.

ثمة جانب مهم من جوانب العلاقة مع الآخر دار بعيداً عن ساحات القتال والمعارك وتمثل بالنشاط السلمي والدبلوماسي ومعاهدات الصلح(٢) التي عقدت بين الطرفين، ونجد عند الاطلاع على تاريخ السفارات ورسل السلام في الأندلس أن الرواية التقليدية تركز على عدة جوانب ظاهرية كاستقبال الوفود، أو مظاهر الفخامة التي قوبلوا بها، دون أن توقفنا على ماهية السفارة وجوهرها إلا القليل(٣).

وتترائى لنا مسألة مهمة في فلسفة هذا النشاط، حيث يتضح أن عاملين اثنين تحكما في فرض السلام، وعقد الصلح، وهما: القوة وتخلخل الأوضاع الداخلية، فيجنح الخصم إلى طلب الصلح من القوي، أو يضطر الملك أو الأمير إلى عقد الصلح مع الخصم من أجل الانصراف لضبط الأحوال الداخلية(٤).

عمد الآخر في الأندلس وأياً كانت هويته على اتباع سياسة ثابتة في تعامله مع السلطات الإسلامية في الأندلس تقوم على اقتناص أية فرصة ضعف في الآخر وقوة في

---

(١) عن الأيام الأخيرة وتحليل معاهدة التسليم ينظر: بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص١١٥-١١٩، ١٢٤-١٢٧، ٢٠١-٢٠٢؛ عنان، نهاية الأندلس، ص٢٤٥-٢٥٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٥٥٢-٥٥٩؛ حمادة، الواثق، ص٥٣٨-٥٤٦.

(٢) معاهدات الصلح هنا لا تعني الهدنة بل الاتفاقات التي تقدم عليها الدولة اقتضاءاً لمصالحها وسعياً وراء تحيق أهدافها وتدعيماً للعلاقات التي تنمي التعاون وتؤدي إلى تبادل المنافع، وأجازت الشريعة الإسلامية عقد مثل هذه المعاهدات شريطة أن يحقق هذا صالح الإسلام ومصلحة أهله، ومشروعيتها من القرآن الكريم وأقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الواقع الذي يفرضها، وعقد هذه المعاهدات لا يعني إسقاط فرض الجهاد والوقوع في الوهن وهي كذلك لا تتعارض مع الحذر، وترفض المعاهدات التي تعيق حركة نشر الإسلام أو التي فيها شيء من العدوانية ولا تخدم السلام المنشود أو أن فيها إقرار للعدو على أرض المسلمين أو تكون مضارها أكبر من نفعها، فهي غير جائزة شرعاً باتفاق الفقهاء، عن هذا كله ينظر: خالد، معاهدات الصلح، ص١٥-١٦، ٢٩-٣١، ٤٠.

(٣) نلمس هذا واضحاً عن المقري وابن حيان في عرضهما للسفارات المختلفة.

(٤) خالد، مصدر سبق ذكره، ص٥٨.

الذات للقيام بمجابهة المدن الأندلسية، وأنه متى ما رأى نزاعاً إسلامياً داخلياً استغله لصالحه بشتى الصور، ولكنه متى ما رأى قوة وتوحداً وإصراراً إسلامياً يلحق به الهزائم لجأ بكل استكانة وخضوع إلى طلب الود والسلام.

لم تنطلق هذه القوى المختلفة في بعث سفرائها أو عقد سلامها إيماناً منها بأهمية التعاون في إقامة علاقات السلام الذي لم تقتنع به يوماً، أن المسألة لم تك مبدءاً لديها إنما كان خياراً فرضته طبيعة المرحلة وشدة الضربات الإسلامية، ويتضح هذا بمجرد المقارنة بين موقف الآخر عند حصول نزاعات داخلية أو عند اشتغال الأمراء بقمع التمردات حيث يستغل ظروف الدولة لتوسيع سلطاته مثلما حصل في عصر الولاة أو بدايات عهدي الداخل والناصر وكما لمسناه في أواخر عصر الإمارة[1]، وبين موقفه إزاء الرد الإسلامي الحازم من قبل عبد الرحمن الداخل، والمبادرات الهجومية زمن هشام الرضا والحكم الربضي وعبد الرحمن الأوسط[2] والناصر

---

(١) نلاحظ أنه في أواخر عصر الإمارة لجأ الجانب الإسلامي إلى سياسة المسالمة رغبة في تجاوز حالة الخلاف والتمزق الداخلي والتدهور الاقتصادي والسياسي، ولكن الرغبة في السلام كان وظل مبدءاً إسلامياً ثابتاً ولذلك ألمحنا من قبل أن أغلب النشاطات الإسلامية الجهادية كانت رداً على عدوان الدفاع عن أراضي الأندلس، وهو أمر يتقاطع مع الموقف الأسباني، ففي ذات الفترة التي نتحدث عنها نجد الآخر يستغل هذه الظروف ويستغل معاهدات السلم هذه في صالحه فكانت عرضة للخرق ما لم تستجيب لمصلحتها أو رغبتها في التوسع نتيجة القوة التي كانت تعيشها حينذاك، ينظر:

ابو الحسن علي بن الحسن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت: المكتبة الإسلامية، د. ت، ٢/ص٣٩؛ ابن حيان، المقتبس ٣/ص١٧، ٥٠ فما بعدها، العذري، نصوص، ص٣٠، ٦١ وما بعدها ١٣٢، ابن عذاري، ٢/ص١٠٥ فما بعدها؛ الحجي، أندلسيات، ٢/ص٧٣، ٧٤؛ يونتشيش، الانحسار، ص١٨٠.

(٢) نجد في بداية عهد الإمارة إشارات طفيفة غير كبيرة عن النشاط السلمي والدبوماسي لكون الممالك الأسبانية لا تزال في بدايتها، ومن تلك الإشارات هجوم الداخل على قشتالة وإلحاق الهزيمة بها مما أضطرها إلى طلب عقد الصلح مع المسلمين سنة ١٤٢هـ وفي ١٥٠هـ أذعنت منطقة ألبة لهجمات الداخل وعقدت معه مملكة جليقية معاهدة صلح عام ١٦٥هـ، ينظر التفاصيل عند ابن عذاري البيان المغرب ٢/ص٥٤، العذري، نصوص، ص٣٠؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص١٩٦؛ عنان، دولة، ص٢١٣، خالد، معاهدات الصلح، ص٥٥،٥٣.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط انعكست قوة الدولة على مقدم الكثير من السفارات وعقد معاهدات الصلح مع ممالك ليون وجليقية والنافار التي قدمت إلى الأندلس بعد خسارة كبيرة جداً لحقت بهم دفعتهم إلى عقد الصلح، ينظر: خالد، معاهدات، ص٥٥-٥٦؛ السامرائي، مصدر سابق، ص١٧٠؛ الحجي، أندلسيات ٢/ص٧٢.

المستنصر[١] حيث كانت هذه السنوات الأشد قسوة على الممالك الأسبانية[٢] نجد الآخـــر يقبل وبكل خضوع مطالباً بالسلام عارضاً الود والمصالحة.

ترددت العلاقة بين الجانب الإسلامي والإسباني في الأندلس بين الحرب التـــي كانت سجالاً والسلم حين تعجز عن المواجهة ريثما تستعد لنقض ما اتفقت عليه من غير عهد ولا ذمة[٣]، فدوافع إنشاء علاقات ودية مع المسلمين من جانب هذه الدولة لم تـــك موضوعية البتة[٤]، ولا نغالي إن قلنا أن الجانب الأسباني هو المستفيد الأول من عقـــد الهدنة والسلام والبعثات الدبلوماسية التي غدت سلاحاً فعالاً بيد الأسبان الذين استخدموه بذكاء، رغم أن السلطات العربية استخدمت هذه البعثات نوافذ اختراق للآخر، وللإطلاع عن كثب على أحواله وتناقضاته، فالتعامل مع هذا الجانب من العلاقة مع الآخر كـــان يتطلب وعياً أكبر مما ظهر عليه عند الطرف العربي الإسلامي[٥].

واتضح هذا الأمر بوضوح منذ أن أصاب الوجود الإســـلامي التراجـــع وبـــدأ بالانحسار شيئاً فشيئاً، ونجد هذا بارزاً في عصر الانحسار النهـــائي (عصـــر مملكـــة غرناطة) فخيار السلم والصلح أصبح بيد الأسبان، وكانت غرناطة من الدول المغلوبـــة على أمرها وفي موضع دفاع لا يمكنها من التعامل بمرونة مع هذه المسألة فاضـــطرت إلى عقد معاهدات صلح مع الأسبان هي في غالبها تستهدف إلى المحافظة على ما بيدها من البلاد وأهلها، وفي أحايين كثيرة وقعت معاهدات تتيح للأسبان احـــتلال الأراضـــي

---

(١) ثمة إشارات كثيرة عن النشاط الدبلوماسي زمن الناصر والمستنصر حتى أن الأندلس أصـــبحت تقصد من قبل الآخر لحل مشاكله الداخلية، ينظر: الحجي، أندلســـيات ٢/ص٥٧-١٠٦؛ وعـــن المعلومات: ابن حيان: المقتبس، ٥/ص٣٢٣، ٤٥٧، ٤٥٨،٢٦٦-٢٦٨؛ تـــح الحجـــي ص٢٠-٢٣، ٦٣-٦٤ (هـــ١)، ٧١-٧٢، ١٣٧-١٣٩، ١٦٨-١٦٩.

(٢) في عهد الحاجب المنصور لم ترق العلاقات الودية إلى ما كانت عليه وغـــدت أغلبهـــا اســـتكانة وخضوع من قبل الآخر بعد عجزها عن المقاومة ينظر: طه وآخرون، تاريخ العرب ص١٩٨-١٩٩؛ العبادي، في تاريخ ٢٤٦-٢٤، سالم، قرطبة، ١/ص٧٣.

(٣) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٤٤.

(٤) الحجي، أندلسيات، ص٢/٥٦.

(٥) من الملاحظ أن أغلب السفارات دارت حول أمور ثانوية وثقافية كإهداء الكتب كما ونجـــد فيهـــا تملقاً واضحاً من الجانب الأسباني وإطراءاً مبالغاً فيه حتى أن بعضه كان على حســـاب كرامـــة الأسبان أنفسهم ولهذا دلالة خطيرة على نجاح هؤلاء في استخدام هذا السلاح، عن هذا الجانـــب ينظر: بيضون، الدولة، ص٣٠٩.

مقابل الحفاظ على أرواح المسلمين ودينهم وممتلكاتهم ولذلك تلاحظ أنه لم تحصل حالة انسحاب من قبل الأندلس في معاهداتها مع الأسبان لأنها متشبثة بالسلم حينما تجد إلى ذلك سبيلاً ولأنها تعيش حالة الضعف العسكري يوماً بعد يوم[١].

ولم تكن هذه المعاهدات متكافئة، بل أنها عكست حالة الضعف والتراجع في مقابل الجانب الإسباني والذي ظهر واضحاً في صيغ التعبير والمخاطبة وعبارات التودد والتملق التي استعملها سلاطين غرناطة عند ذكر الملوك الأسبان وليس ثمة فرق بين قشتالة وارغون، فالسمة الرئيسية للموقف الأسباني كانت واحدة[٢].

ولابد لنا من الإشارة إلى سياسة التنازلات الأندلسية[٣] تجاه الممالك الأسبانية والتي سادت خلال هذه الفترة الحرجة وكانت في أغلبها نتيجة طبيعة للضغط الخارجي الذي عانته مملكة غرناطة حينذاك، والتمعن بجوهر هذا التوجه يبين خطأ حسابات غرناطة بشأنه وسلبيته الخطيرة، فالمدن والحصون والمواقع الأندلسية هي أجزاء مكملة لبعضها البعض، وهذه المدن تصبح ضعيفة القوى إذا ما قطعت أطراف منها فهي كجسم الإنسان إذا قطع أحد أطرافه وقع العبء على الطرف الآخر مما يسبب إنهاكه وبالتالي إضعافه حتماً، لأن هذا الجسم أصبح لا يتمتع بكل قواه المطلوبة لتوازنه مع الحياة؟

وفضلاً عن ذلك لم يكن الآخر يتقيد بأي التزام مبدأي أو أخلاقي إزاء تقدمه مطلقاً، وكانت سياسة المعاهدات والصلح كلها وسائل استخدمها بين الحين والآخر لتقوية

---

(١) خالد، معاهدات، ص٤٤،٤٠.

(٢) كانت سياسة نقض المعاهدات متبعة من قبل الأسبان بشكل واضح، ومنها نقض الاتفاق مع محمد بن أبي الحجاج يوسف (٧٥٥-٧٦٠هـ) ونقضهم للعهد مع إشبيلية واحتلالها عام ٦٤٦هـ مستغلين وفاة أميرها الذي تعاهدوا معه، ونقض تعهداتهم مع الأندلس بعد وفاة السلطان يوسف الثاني وكذلك يوسف بن المول حيث كانت السلطة الأسبانية تستغل المتغيرات السياسية لنقض عهودهم. ولم تشذ مملكة أراغون عن ذلك فقد نقضوا معاهدة الصلح مع غرناطة سنة ٧٠١هـ وحاولوا عزل المغرب عن الأندلس وضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض.
عن جوهر السياسة الأسبانية وتوجهات ملوك قشتالة وأراغون السلمية ومغزاها ونقضهم لعهودهم، وعن معاهدات الصلح عامة في مملكة غرناطة ينظر:
حمادة، الوثائق ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٨، ٢٩٢-٢٩٤؛ خالد، معاهدات الصلح ص٢٤؛ ١٠٤، ١٠٦-١٧، ٢٤، ٤٣، ٤٧،١ ١٢٢-١٢٣.

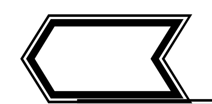
(٣) خالد، مصدر سابق ذكره ص٨٩-٩٠.

مركزه وتوسيع نفوذه، وأن أطماعه بقيت مستمرة سواء حصل على بعض مـــا يطمـــع بالقوة أو العذر أو الحيلة أو بأي وسيلة عسكرية أو سلمية أخرى. وأن سيطرته علـــى هذا الموقع أو ذاك دفعته إلى السيطرة على مواقع أخرى وهو يقتـــرب نحـــو مراكـــز المدن.

أن استقراء هذه المعاهدات والتنازلات يتبين منه نكوص الخـــط البيـــاني لهـــا وتأشيره لصالح الأسبان أكثر مما هو لصالح الأندلس، وكانت آخر مآسي هذه المســـألة تتمثل بالوثوق بمعاهدة التسليم النهائي التي صيغت بنودها العلنية والسرية في أجواء من التردي والسقوط والضعف والتخاذل لآخر سلاطين غرناطة أبـــي عبـــد الله الصـــغير (٨٨٧، ٨٩٧هـ)[١] والذي آثر حياته وسلامة عائلته على المقاومة، فتم التوقيع علـــى هذه المعاهدة التي لم تعلن نهاية الصراع الخارجي مع الوجود الإسلامي إنمـــا أعقبتهـــا عمليات إفناء الكيان الإسلامي وبصورة منظمة ومدروسة عن أراضي شـــبه الجزيـــرة الايبيرية.

---

(١) تشير المصادر التاريخية إلى أن ابا عبد الله الصغير آثر خيار الاستسلام منذ البـــدء وأن سلســـلة المفاوضات التي أجراها مع العدو الأسباني كانت مفاوضات شكلية من أجل أن يذر الرماد فـــي عيون الشعب الأندلسي ويخفي عليهم حقيقة اتصالاته السرية التي يجريها مع العدو قبل الحصار الأخير وأثنائه وبعد تسليم البلاد وللحصول على المكافأة المالية الضخمة لـــه ولأفـــراد أســـرته ووزرائه من عدوه، حيث أوقف القتال قبل بدء المفاوضات للتسليم ولاطف الشـــعب الأندلســـي وتملق إليه أثناء المفاوضات التي لبثت فيها بضعة اسابيع حتى وقـــع آخـــر المعاهـــدات تســـليم الأندلس في اليوم الحادي والعشرين من شهر محرم عام ٨٩٧هـــ الموافـــق لليـــوم الخـــامس والعشرين من شهر تشرين ثاني عام ١٤٩٢م، ينظر: خالد، معاهدات الصلح، ص١٥٧؛ عنـــان، نهاية الأندلس، ص٢٤٥، ٢٥٥-٢٥٦.



المبحث الثاني
الصراع الخارجي... خصائص وسمات

تكشف متابعة الصراع الخارجي الذي دار في الأندلس عن خصائص مهمة أدت دوراً مؤثراً وفعالاً في إنهاء ذلك الصراع وتوجيهه الوجهة التي آل إليها:

أولاً: حول جبهة المواجهة:

أ. تعدد قوى العدو: أول ما يمكننا لمسه من استقراء حوادث الصراع الخارجي اتساع جبهة العدو المواجهة للقوة الإسلامية فيها والتي توجب عليها مواجهتها بصورة متوالية ومستمرة.

وكانت الدولة الفرنجية وعلى رأسها شارلمان أولى القوى المبادرة لتوجيه الصراع ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، ومثلت حملته سنة ١٦٢هـ سبيلاً خطيراً للاستيلاء على الأندلس وإلحاقه بالإمبراطورية الكارولنجية وريثة الميرفنجية سابقتها[١]، وإذا لم تحقق الحملة النتائج المتوخاة فقد عمدت إلى انتهاج سياسة التدخل غير المباشر في شؤون الأندلس عن طريق الاتصال بالمتمردين، وحتى لو لم يتم التعاون المباشر مع رموز التمرد فإنها كانت تشجع ظاهرة النزاع والانقسام الداخلي معنوياً وتغذيها موقفاً وتأييداً مادياً لأن كل حالة ضعف داخل أرض الأندلس هو في صالحها.

وظهرت إلى جانب الفرنجة قوة النورمان التي اتجهت بأنظارها في عدة غزوات وهجمات نحو الأندلس، وكان الطمع بخيراتها وروح المغامرة، والرغبة في السلب والنهب تحرك تلك الهجمات التخريبية العدوانية[٢]، وتعرف الرواية الإسلامية هؤلاء بالمجوس وذلك لأنهم حين غزو الأندلس كانوا يكثرون من إشعال النار فظن المسلمون هناك أنهم يعبدون النار كالزرادشتية[٣].

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢١٩-٢٢٠؛ وفي تحليل حملة شارلمان نجد عرضاً وافياً في نفس المرجع تنظر الصفحات ٢١٨-٢٢٦.

(٢) خليل إبراهيم الكبيسي: غزوات الورمايين على الأندلس في عصر الإمارة الأموية، مجلة المؤرخ العربي، ع٤٠، ص١٤ (بغداد: ١٩٨٩)، ص١٥٣.

(٣) مؤنس: غارات النورمانيين على الأندلسيين ٢٢٩-٢٤٩هـ، المجلة التاريخية المصرية م٢، ٢٤ (القاهرة: ١٩٤٩)، ص٤٢؛ وينظر في تسمية الرواية الإسلامية: ابن سعيد، المغرب، ٤٩/١؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٨٤، ٨٦، ابن حيان، المقتبس تحـ الحجي، ص٢٨، ٦١، ٢٢٤؛ العذري، نصوص، ٩٨-١٠٠، ١١٨، ١١٩، البكري، جغرافية، ص١١٢؛ ابن الأبار، الحلة ٢، ٣٧٢؛ ابن عذاري، البيان ٨٧/٢، ٨٨، ٩٦؛ ابن الخطيب، أعمال ص٤١٢؛ المقري، نفح الطيب، ٣٤٥/١-٣٤٦، ٣٨٣؛ ويرى أحد الباحثين أن النورمان كانوا يقدسون النار وقت

تعددت هجمات هؤلاء فكان هجومهم الأول سنة ٢٢٩هـ زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط والثاني سنة ٢٤٥هـ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن وكذلك سنة ٢٤٧هـ ولم تتوقف هذه الغزوات في عصر الخلافة الذي شهد عدد منها في سنوات ٣٥٥هـ ٣٦٠هـ، ٣٦١هـ[١]، وواجهت تلك الهجمات صداً إسلامياً ناجحاً ومتميزاً فيما عدا الهجوم الأول الذي بوغت فيه المسلمون، ويربط المؤرخون كثيراً بين هجمات النورمان هؤلاء ونشوء البحرية الأندلسية وتطورها ازدهار دور صناعة كثرة وقوة ومهارة مما مكنها بالتالي من مواجهة الهجمات التالية وإحباط أهدافها العدوانية[٢].

- وتبقى الممالك الأسبانية القوة الأساسية التي واجهت الوجود العربي الإسلامي في الأندلس وتولت قيادة حرب الاسترداد المتواصلة التي لم تتوقف إلا بسقوط غرناطة وانتهاء الوجود الفعلي على أرض الأندلس.

غزواتهم فالمصادر الإسلامية كانت على حق حين نعتتهم بالمجوس، الكبيسي، مصدر سابق، ص١٤٥.

(١) عن مصادر هذه الغزوات والهجمات ينظر:

العذري، نصوص عن الأندلس، ص٩٨، ١٠٠، ١١٨، ١١٩؛ ابن الخطيب، أعمال، ص١٩-٢٠، ٤١؛ ابن عذاري، البيان المغرب ٢/ص٨٧-٨٨، ٩٦-٩٧؛ ابن الأثير، التاريخي، ص١٠١-١٠٢، ١٠٦؛ ابن خلدون، العبر، ٢/٤، ص٢٨١-٢٨٤؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٨٤-٨٦، ٨٧؛ ابن حيان، المقتبس تحـ الحجي، ص٢٢٤-٢٢٦، ص٢٤٩-٢٥٢؛ ابن سعيد، المغرب، ٤٩/١؛ البكري. جغرافية الأندلس ص١١٢؛ وعن الخطر النورماندي كقوة مرهوبة في نفوس الأندلسيين.

ينظر: الأدريسي، ص١٧٩؛ عنان، دولة الإسلام، ٤٤٦/٢؛ الكبيسي، غزوات، ص١٤٥-١٥٤.

(٢) ثمة آراء مختلفة حول هذه المسألة ففي حين يرى حسين مؤنس ميلاد البحرية وقتذاك هناك من أشار إلى أن إقامة الصناعة بإشبيلية لمواجهة غزوات النورمانديين زمن عبد الرحمن بن الحكم لم يسجل ميلاد البحرية الأندلسية التي وجدت منذ أيام الحكم الربضي ولكنه سجل تنظيماً وتطويراً للبحرية الإسلامية في الأندلس، ويرى الكبيسي أن عمل الأمير عبد الرحمن رغم أنه لم يكن أول محاولة لإنشاء دار صناعة السفت وبناء المراكب إلا أنه مثل بالتأكيد خطوة كبيرة إلى الأمام وعمل رصين نقل البحرية إلى خطوات متقدمة مكنتها من صد الهجمات العدوانية للنورمانديين، عن هذا الموضوع يتحدث محمد عبد العزيز عثمان (البحرية العربي في الأندلس منذ بداية تأسيسها إلى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر)، مجلة المورد، ع٤، (بغداد، ١٩٨٨) ص٥٩-٧٢؛ سالم، والعبادي، تاريخ البحرية، ص١٦٠؛ مؤنس، مصدر سابق، ص٤، الكبيسي، غزوات، ص١٥٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٢٢٧-٢٤٠.

- ولا ننسى أن نشير إلى دور البعد الصليبي للحرب في الأندلس في تكتل القوى الأوروبية المختلفة كافة والمغامرين والفرسان والمقاتلين المسيحيين الذين حشدتهم الكنيسة، وبمعنى آخر كتب على الأندلس المسلمة أن تواجه أوروبا كلها مجتمعة ومتحدة للقضاء على الوجود الإسلامي فيها.

وبدا الظهير المسلم فضلاً عما تقدم طامعاً وليس مسانداً حينذاك، وتمثل ذلك بالفاطميين الذين مثلوا خطراً توجب على أمراء قرطبة مواجهته، هذا الخطر رغم انتماءه وهويته الإسلامية إلا أن التضاد السياسي والمذهبي وضعه في صف الأعداء المتحفزين للسيطرة على الأندلس ونشر مذهبهم فيها، وبدأ هؤلاء عملهم التوسعي من خلال قنوات مختلفة كإرسال الجواسيس(١) أو الاتصال بمتمردي الأندلس وكسب الأنصار لهم في داخلها(٢)، ورغم أن النفوذ الفاطمي لم يتغلغل بصورة واسعة إلا أن عدداً من الشخصيات الأندلسية انضمت إلى جانب الفاطميين(٣)، وبذلك فالخطر الأكثر حدة لم يكن خطراً عباسياً إنما كان أقرب إليهم وأكثر قسوة عليهم هو خطر الفاطميين واتباعهم الأقوياء بشمالي أفريقية القريب منهم(٤).

أيقظ ظهور هذه القوة المهددة للوجود العربي الإسلامي في الأندلس انتباه أمراء وخلفاء الأندلس ونبههم إلى أن عملهم الإسلامي على مختلف الأصعدة لن يكتب له

---

(١) من أمثال أبي هارون أبي عفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي، زمن الأمير عبد الله، وإبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بأبي يسر الرياضي في عهد محمد بن عبد الرحمن، وتثار ملاحظات عديدة على زيارة ابن حوقل إلى الأندلس، عنهم ينظر: ابن الفرضي، تاريخ علماء، ص٦١، مجهول، أخبار مجموعة، ص١٤٦، سالم، تاريخ المسلمين، ص٢٨٧؛ الخفاجي، الدولة، ص٢٠٠-٢٠٢.

(٢) من أمثال هؤلاء عمر بن حفصون الذي أيدهم خدمة مصالحه الخاصة حيث أرسل بيعته لعبيد الله الفاطمي ينظر: مجهول/ ذكر بلاد الأندلس، ص١٥٦.

(٣) لعل التباين المذهبي لعب دوراً في عدم انتشار دعوة الفاطميين بصورة واسعة بحيث أن مذهب الإمام مالك في الأندلس كانت له قوة متأصلة عند أهل تلك البلاد وعن هذا ينظر: صابر محمد دياب: سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي، ط١ (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٣) ص١١٥.

(٤) بروفنسال، الإسلام، ص٩٤.

الاطمئنان والتمام من غير إعادة الاتصال بالمغرب ومحاولة إخضاعه لنفوذهم لا سيما وأن المنطقة تعد قاعدة وعمقاً للأندلس وخط دفاعها الأول[(١)].

ردت الخلافة الأموية على مخططات الفاطميين التوسعية بقـوة وحـزم، وأدى الخليفة عبد الرحمن الناصر دوراً مهماً في هذا المضمار مما دفع بدعاة الفاطميين إلـى التخلي عن مشاريعهم في الأندلس والانصراف باتجاه مصر[(٢)].

- كان على الدولة العربية الإسلامية إزاء كل تلك القوى أن تـولي اهتمامـاً للممالك الأسبانية وتوجهاتها، ثم تبقي عين الحذر والترقب ساهرة لأي تحرك لمتمردي الأندلس وعناصر القلق فيها، كما توجب البقاء يقظة للهجمات الصليبية التي تشارك فيها جيوش متحدة من دول مختلفة واهتمامها بالقوى المعادية المتمركزة أمامها كان يوجـب عليها عدم إغفال أمر ظهيرها المسلم الذي تحفز في أوقات مختلفة لغـرض سـيطرته وضم الأندلس إليه[(٣)]، فجعلت كل تلك القوى من مهمـة اسـتيعابها والسـيطرة علـى تحركاتها أمراً شاقاً وصعباً سيما في وقت التراجع والتفكك والانحسار.

ب- شبه التحدي وقسوة الانتقام:

---

(١) التواتي، مأساة انهيار، ص٦١٥.

(٢) اتخذ عبد الرحمن الناصر عدة وسائل لمواجهة الخطر الفاطمي من بينها التقـرب إلـى زعمـاء القبائل المغربية وكسب ولائها وتقديم العون والمساندة لها ضد الفاطميين وكذلك القيـام بنشـاط بحري مميز ضد الأساطيل الفاطمية، وإعلان الخلافة في الأندلس، عن هذه الأساليب ينظر فـي سياسته نحو القبائل: ابن حيان، المقتبس، ٥/ص٢٦٥،٢٦٠؛ سالم، تاريخ، ص٢٨٧؛ الخفـاجي، الدولة، ص٢٠٣، ٣٣٢؛ العبادي، ص٢٠٤-٢٠٦؛ دياب، سياسة، ص١١٥؛ فيلالي، العلاقـات السياسية، ص١٢٧ وما بعدها.

وعن العلاقة بين إعلان الخلافة والوجود الفاطمي في أفريقية، ينظـر: المراكشـي، المعجـب، ص٥٤؛ الخفاجي، الدولة، ص٢٠٣، وتحضى جهود عبد الرحمن الناصر في هذا المجال بأهمية خاصة في مصادرنا التاريخية عنها ينظر: ابن حيان، المقتبس ٥/ص٢٥٥-٢٥٨؛ ٢٦١-٢٦٣، ٢٨٨-٢٩١، ٢٩٤-٢٩٥؛ابن خلدون، العبر، ٤،٢، ص٣٠٦-٣٠٧،: المقتبس، تـح: الحجـي، ص٧٩-٨١، ٨٦-٩١، ٩٦، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨-١٠٩، ١١٥-١١٦، ١١٨-١٢٣، ١٢٤-١٣٤، ١٤٢-١٥٥.

(٣) يشير أحد الباحثين مسألة العلاقة مع الظهير المغربي المسلم ويعـدها واحـدة مـن الإشـكاليات الخطيرة التي أضعفت الوجود العربي الإسلامي في الأندلس عن ذلك ينظـر: التـواتي، مأسـاة انهيار، ص٦١٣-٦٣٦.

تكشف قراءة أوراق الصراع الخراجي عن الشدة والقسوة التي واجهها أهل الأندلس من قبل العدو المتربص بهم والذي كان يهدف إلى استنزاف قوة وطاقة المقابل دون أي يكون ثمة تكافؤ بين الاثنين، وتاريخ سقوط المدن الأندلسية شاهد على ذلك.

ولم يقصر أهل الأندلس في الدفاع عن أراضيهم، وأنهم عدا حالات التردي للزعامات البائسة جاهدوا عدوهم بكل ما أوتوا من قوة، وسقط عدد كبير منهم شهداء في ساحات القتال، وغالباً ما نواجه ضمن أحداث التاريخ الأندلسي ذلك الرفض الشعبي الصارم تجاه مطالب العدو بالإنصياع والاستسلام وفي مقدمة هؤلاء رجال العلم والفقه(١).

اقترنت المأساة الأندلسية بالعطاء والتحمل ولم يبد تاريخ الأندلس سلبياً في هذا الجانب فلم يستسلم المسلمون وجاهدوا وناضلوا وكان يشحذ من همتهم عدد من الشعراء الذين خاطبوا فيهم روح الجهاد وحب الشهادة(٢)، ولذلك ونتيجة لاقتران الجهاد الإسلامي في الأندلس بهذه الروح المتميزة، فقد كان سقوط كل مدينة أندلسية مقروناً بنهاية معركة ضارية سجلت عدداً من الشهداء والأسرى والمفقودين، وهذا الجانب مهم لإيفاء الشعب الأندلسي حقه في فصول الصراع الشديد والقاسي مع الآخر.

---

(١) متابعة سريعة لكتب التراجم الاندلسية توقفنا على نماذج واسعة لشهداءقضوا نحبهم في سوح القتال وكانوا عنواناً للنصر والتضحية والمجاهدة، ونكتفي بالإشارة إلى أحد هذه النماذج وهو القاضي أبي الربيع سليمان الكلاعي الي استشهد سنة ٦٣٤هـ في واقعة انيشة حيث ظل يجاهد مقبلاً غير مدبر والراية بيده وهو ينادي المنهزمين ((أعن الجنة تفرون إلى أن استشهد صابراً محتسباً وهو ابن سبعين سنة إلا شهراً، واستشهد في هذه الموقعة جماعة من علماء بلنسية وفضلائها وصلحائها وفقد نحو سبعين من أهل الصف الأول بجامعها الاعظم منهم نفعهم الله بالشهادة)) فكان أهل الاندلس يقاتلون بهذه الروح الجهادية عن هذا الموضوع ينظر:
النباهي، المرقبة العليا، ص١١٩-١٢٠؛ المراكشي، الذيل، س٤، ص٨٩-٩٠؛ المقري، نفح الطيب، ٦/ ص٢١٦؛ وكذلك، الذيل، ق١، ص١٢، ٧٨، ١٧١، ١٨٣ــ ١٩٠، ٢٦٦، ق٢، ص٤٧٨/ س٦، ص٥٤، ٢٤١، ٢١٧، ابن الفرضي، تاريخ العلماء، ص٦٣، ٨٢، ٢٩٧، ٢٢٨، ٢٦٠، ٣٦٣، ابن الزبير، صلة الصلة، ص٢٦، ٣٤، ٨٦، ١٣٢، ١٥٥، ٢٠٥، ٢٢١؛ القاضي عياض، ترتيب، ٤، ص٥٧٥؛السلفي، أخبار، ص١٨، ابن بشكوال، الصلة ، ١/ ص٧١، ٦٨، ٣٧٦/٢، ٥٧٢، ٤٦٤؛ ابن الابار، التكملة، ١/ص١٢، ٢٤٢٢٢، ٢٩، ١٥١، ٧١، ٣٢٩.

(٢) عن هذا الجانب ينظر: كمثال: المراكشي، الذيل والتكملة س١، ق١ ص١٩٨-١٩٩.

وشهد خط التراجع الإسلامي الذي ابتدأ بطليطلة حتى سقوط غرناطة تسليم عدد من المدن والقرى وفتح أبوابها للعدو، ولم يشكل ذلك خيانة أو تهاوناً من قبل الشعب الأندلسي، فصفحات التاريخ. تحدثنا من جهة عن صمود المدن خمس سنوات مثل بلنسية وسبع مثل طليطلة، ومن جهة أخرى أن هذه المدن لم تهزم أو تسقط في حرب تتكافأ فيها الأسباب أو الفرص على الأقل، إنما سقطت بالطريقة ذاتها التي تكررت كل مرة وتمثلت بالدفاع المستميت ونفاذ كل وسيلة، أو بعد حرب الجوع والعطش والحاجة والمرض حيث يضطر الناس إلى الاستسلام، وبهذه الطريقة ثم ذهاب العديد من المدن الأندلسية وقواعدها(١)، والأمثلة عديدة ومتشابهة في تفاصيل المعاناة قبل التسليم وبعده حين يقرر أهل المدن المقاومة وحمل السلاح، وحين يسقط في أيديهم فتفتح أبواب مدينتهم لتواجه انتقاماً قاسياً لم تألفه من قبل.

ظهر هذا واضحاً عن سقوط طليطلة حيث حوصرت المدينة وضيق عليها الخناق حتى سقطت وأرتكبت خلال ذلك وبعده بها وبأهلها الأفعال القاسية المؤسفة، وحين دخلها الفونسو السادس لم يحفظ للمراكز الإسلامية حرمتها ولم يحفظ عهوده التي قطعها بنفسه بضمان حريات سكان المدينة واحترام شعائر دينهم وحقوقهم وحرمة مساجدهم فلم يمضِ شهران حتى نقض كل ذلك(٢).

وارتكب النورمانيون مع بعض الفرنسيين في بربشتر سنة ٤٥٦هـ، ١٠٦٤م أقسى وأبشع وأشنع الجرائم الوحشية والأعمال الانتقامية، فقد استباح العدو المدينة بعد أن أنهك العطش أبناءها بكل ما فيها ومن فيها، وقدر عدد القتلى والأسرى بين أربعين ومائة ألف! ثم أعطى قائد الحملة الأمان لكنه حين رأى كثرة أهل المدينة أمر جنده أن تقلل أعدادهم حصاداً بالسيف فأطيح أرضاً بستة آلاف من الرؤوس، ثم أنهم انتهبوا المدينة واحتلوا دورها لأنفسهم وارتكبوا أبشع الجرائم قتلاً وهتكاً للأعراض فكان بذلك الخطب في بربشتر أعظم من أن يوصف أو يتقصى كما يقول ابن حيان(٣).

وعانت بلنسية سنة ٤٨٨هـ الشيء نفسه حتى لما بلغ بأهلها الماء الزبى وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ولا نصر ولا غوث الجأتهم الحال إلى دخول العدو

---

(١) ابن الابار، التكملة، ١/ص١٢١، ص٧٩؛ الحلة، ٢٠٣/٢؛ عنان، عصر المرابطين، ٤٣٩/٢؛ الحجي، التاريخ، ص٥١٥.

(٢) عنان، دول الطوائف، ص٣٩٦؛ الحجي، التاريخ، ص٣٣٤.

(٣) عن تفاصيل مأساة بربشتر ينظر: الحميري، صفة جزيرة، ص٣٩-٤٠؛ المقري، نفح الطيب، ٦/ص١٩١-١٩٣؛ البكري، جغرافية الأندلس، ص٩٤؛ الحجي، التاريخ الأندلس، ص٣٦١.

وبحكم الاضطرار لا بحكم الاختيار[1]، أما صور الانتقام بعد التسليم فكان أبلغها دلالة على قسوتها حرق القاضي ابن حجاف في ساحة المدينة على مرأى من الناس في موضع عام لعله ما يعرف اليوم باسم: رحبة القاضي[2]، ومثل هذا تكرر عند سقوط المرية سنة ٥٤٢هـ، فضلاً عن حالة الفوضى والاضطراب التي كانت عنوان استيلاء العدو على المدن الأندلسية[3] وليس ثمة نفع في تكرار الأمثلة المتشابهة، والمصادر التاريخية غنية بصور مؤثرة على ما رافق الانحسار الإسلامي من معاناة وقسوة واجهها أهالي المدن الأندلسية لوحدهم[4].

ج- غياب الوعي السياسي في التعامل مع الآخر:

غاب عن المسلمين في الأندلس وفي أحيان كثيرة الوعي السياسي مفهوماً وممارسة شاملة في التعامل مع الآخر، وظهرت عدة حالات لذلك استثمرها العدو لصالحه واستخدم ذات الوسائل التي قدمها له المسلمون ضد الوجود الإسلامي ذاته.

تمثل غياب الوعي السياسي في الانسياق وراء محاولات العدو عقد الهدنة والصلح في وقت تفوق المسلمين عليه، وعدم استغلال نتائج الانتصار الإسلامي في إتمامه وتثبيته[5] بالرغم مما لمسوه من غدر الآخر ومفهومه للصلح والسلام، وعلى الرغم مما يدله هذا الموقف من رغبة المسلمين في السلام وتحاشي الحروب، إلا أنه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ص٣٤. وثمة كتاب مفقود مخصص كلية لمأساة بلنسية بعنوان (البيان الواضح في الملم الفادح) لابن علقمة ووصف بأنه يبكي القارئ ، ونقل عنه ابن عذاري فقرات لعلها كاملة منه عن تفاصيل هذا الموضوع: ابن الابار، التكملة، ٤١٢/١، ٢٨٦؛ المراكشي، الذيل، س٦/ ص٨٤؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ٣/ ص٢٨٩، ٣٠٥، ج٤، ص٥، ٣١-٤١، ١٤٨، الحجي، التاريخ، ص٣١٧.

(٢) ابن عذاري، مصدر سابق، ٤/ص٣٣، ٣٦-٣٩، ١٤٨؛ ابن بسام، الذخيرة، ٥٧/٣-٦٢، ٣٥٦، ابن الابار الحلة، ٢/ص١٢٦.

(٣) يضعنا المراكشي في وسط جو الفوضى والشدة التي ترافق سقوط المدن الاندلسية فيقول أنه عند وفاة علي بن جابر بن بن علي بن يحيى اللخمي الاشبيلي في حصار اشبيلية (تولى غسله الشيخ الصالح أبو الوليد الخرّاز ولم يحضر الصلاة عليه إلا ثلاثة نفر لما حل بالناس حينئذ من الموت وباءاً وجوعاً . . . وقال أبو الحسن بن السراج، توفي عند دخولهم ولم يمهل، قال ودفن بداره وحفر قبره بالسكاكين استعجالاً لمواراته واشتغالا عن التماس آلات الحفر بهول اليوم)، الذيل س٥، ق١، ص٢١٠. ق٢، ص٦٣١.

(٤) يفيدنا المقري بصورة خاصة بمعلومات مهمة عن هذه المسألة، ينظر: نفح الطيب: ١٩٨/٦-١٩٩، ٢٠٠، ٢٧٠، ٢٧٦؛ الحميري، صفة جزيرة، ص١١، ٢٢، ٩٧-٩٨، ١٤٩.

(٥) مثلما حصل عقب الزلاقة (٤٧٩ هـ) وافراغة (٥٢٨ هـ) حيث ضاعت وقتها الفرصة التاريخية لاستعادة طليطلة بعد الزلاقة وسرقسطة بعد افراغة فضاعت البلدتان للأبد، ينظر عنان ١/ص١٢٦.

فوت عليهم الفرص الغالية في استثمار نصرهم المتحقق لإنجازات اكبر ضد قوى الشمال التي لم تبد أية رغبة حقيقية واقعية في إرادته السلام(١).

وهذا يتصل بموضوع السفارات الدبلوماسية، فأية قيمة لهذا السلام وتلك السفارة ما دام مرسلها لا يتوانى عن نقض هذا العهد والاتفاق متى شعر بقوته وليهاجم الجانب الإسلامي، بل أي منطق يسوغ التعامل المستمر مع أشخاص ينقضون السلم والمعاهدات عدة مرات ومتى ما أراد مثلما فعلت وصية عرش نبارة (طوطة Todo) التي نقضت صلحها مع عبد الرحمن الناصر مرتين واشتركت مع راميرو الثاني في معركة الخندق ضد الناصر(٢)، وكما فعل غرسيه بن فرذلند حاكم قشتالة حيث اتبع سياسة ملتوية تجاه الحكم المستنصر وتظاهر بالسلام في الوقت الذي كان يبيت الخطط لغزو الأراضي الإسلامية(٣) وكانت رسله وسفاراته تغطيه لاعتداء مدبر ضد السلطة الإسلامية، ليس لهذا السلام القلق قيمة دون شك ومع ذلك كان يكفي السلطة في الأندلس حالة الانبهار التي يغدو عليها الوفد الزائر إزاء مظاهر الفخامة والبذخ الأندلسي.

وفي دليل واضح على غياب الوعي السياسي تقديم المسلمين في الأندلس مساعدات لطرف ضد آخر من العدو، واشتراك القوات العسكرية الإسلامية في معارك لا دخل لها فيها ولا مصلحة ناسين ومتناسين أن هذا الطرف الذي يقدم له الدعم لا يتوانى عن القيام بأي عمل ضد السلطة التي ساعدته، ورأينا هذا في حالات عدة مثل مساعدة بر مودة أخي الفونسوا الثالث في الاستقلال بحكم استورقة(٤) وامداد عبد الرحمن الناصر لغرسيه بن طوطة المذكورة سابقاً عسكرياً لاستعادة عرشه(٥)، واتصال

---

(١) التواتي، ماسأة، ص٥٧٦-٥٧٧ (بتصرف).

(٢) الحجي، اندلسيات، ٧٥/٢ وكذلك نقض الفونسو الثالث عهده مع الأمر محمد بن عبد الرحمن في هدنة لم تدم طويلا وذلك حين تعاون الفونسو مع بني قسي الذين خرجوا على سلطة قرطبة سنة ٢٧٠هـ، ينظر: المصدر نفسه، ص٧٤.

(٣) ينظر ابن حيان، المقتبس، تح الحجي، ص١١٨، والتعليق للحجي، ص٢٥٦-٢٥٧.

(٤) الحجي، أندلسيات، ٢/ص٥٥.

(٥) م. ن ص ٨٠-٨٢.

ملك اراغون الشرعي بالخليفة الموحدي المستنصر التماساً لنصرته وإعانته[1] وغيرها. وفضلاً عن ضعف الوعي السياسي ألا يؤشر هذا التوجه مساعدة الآخر لإتمام سيطرته على مدن كانت أندلسية إسلامية، بمعنى آخر ألا يمثل ذلك إقـراراً إسـلامياً بـالوجود الأسباني وعدم التفكير مطلقاً بانهائه، أي التعامل مـع الآخـر وفـق هـذه المبدأيـة الخطيرة؟!!.

والأكثر خطورة من هذا إيواء رموز العدو داخل المدن الأندلسية ممـا مكـنهم الإطلاع على كل دقائق الحياة الإسلامية ونقاط القوة والضعف فيها ومن ثـم ممارسـة الدور المعاكس في الإحاطة بالوجود الإسلامي في ذات الأرض التي آوته يومـاً مـا، وأبرز الأمثلة على ذلك إيواء الفونسو السادس[2] في مدينة طليطلة والذي رحـب بـه زعيمها المسلم يحيى بن إسماعيل بن ذي النون الملقب بالمـأمون (٤٣٥-٤٦٧هـ) وأحاطه بالحدائق وأسكنه في دار مجاور لقصره.

كان إيواء طليطلة لالفونسو السادس أيام نفيه نقمة عليها وسبباً للتعجيل بسقوطها أو البدء بشن الحرب عليها وإسقاطها، وقد أشار ابن الخطيب لذلك بقولـه: ((وسـكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى بها))[3].

- أن غياب الوعي السياسي في التعامل مع قوى الآخر أمر خطير فـي ظـل وضع الأندلس الحساس تجاه التحدي الخارجي المحيط بها، وانعكس هذا الأمـر علـى الصراع الخارجي وأثر على أحداثه كما وأنه ارتبط بضـياع فـرص عديـدة للتقـدم والامتداد من جديد، وكذلك في خسارة الوجود الإسلامي مدناً وقرى مهمـة وعديـدة، وبالتالي حين تعاقبت الأخطاء وتجمعت كانت النتيجة انهياراً كلياً لهذا الوجود في أرض الأندلس.

ثانياً: **الروح الصليبية**:

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٦/ص٥٣٤-٥٣٥؛ حمادة، الوثائق، ص٤٢٠-٤٢٢.

(٢) كان الفونسو قد تنازع مع أخيه سانشو الثاني بن فرذلند الذي أراد توحيد مملكة ليون تحت حكمه والسيطرة على جميع المناطق التي كانت في حوزة الفونسو فحدث صراع بين الأخـوين هـزم الفونسو فيه وأسر في سجن في مدينة برغش ثم هرب إلى طليطلة لاجئاً عند ملكها يحيى بن ذي النون، عن هذا ينظر ، أشباح، تاريخ، ص٢٤؛ بروفنسال، الاسلام، ص١٢٦؛ الحجي، التاريخ، ص٣٢٧، ٣٣٠.

(٣) أعمال الأعلام، ص٣٣٠، نقلاً عن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٣٢.

كان دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الايبيرية قد زاد من توجس القوى النصرانية في أوربا، والتي رأت أنه يطوقها من جهة الغرب وفي عقر دارها ولذلك حمل الفتح الإسلامي في خطورته على السلطة الدينية المتمثلة بالبابوية وممتلكاتها، والتي رأت في انتشار الإسلام مرحلة تحجم من سيطرتها وسلطتها ولذلك لم تنظر الكنيسة إلى التوسع الإسلامي يوماً ما نظرة إيجابية(١).

حمل الصراع الخارجي في الأندلس منذ سنة الفتح الأولى روحاً صليبية قاسية(٢) وبالطبع لم تك كل الحملات الموجهة إلى الأندلس تقودها جيوش صليبية متحدة لكن ثمة روحٍ صليبية غمرت نفوس أعداء الوجود الإسلامي في الأندلس وليس من الضروري اقتصار معنى (الحروب الصليبية) على تعدد الجهات التي ترد منها الجيوش لتتجمع على حرب المسلمين، وحتى لو كانت جبهة واحدة فهي تحمل هذه الروح وتحمل صفة الحرب التي لا هدف لها ولا مبرر، وتخلو من أي مثل ولا ترعى ذمة ولا تلتزم بعهد، وتفعل ذلك ابتداء بل تقابل وبشكل أعنف من سبقها منه خير وفضل وإحسان في المعاملة(٣).

ويمكن أن نضيف كذلك بأنها الحرب التي تركن إلى الصليب في استثارة مشاعر مواطنيها وتشحذ هممهم وتمنحهم الغفران المزعوم لكل الآثام والخطايا التي اقترفوها بمجرد نيل شرف الاشتراك في مقاتلة مسلمي الأندلس فضلا عن إحاطتها بهالة من الأسطورية والخيال الذي غلف معاركها وجعل منها قصصاً خيالية للتضحية من أجل الكنيسة ضد أعداء الدين، واللجوء إلى هذا السبيل في التجمع والاستثارة وخوض المعارك على أساس ديني فيه محاكاة للنموذج الإسلامي العقائدي في الجهاد والقتال في سبيل نشر الدين الإسلامي(٤).

---

(١) التواتي، مأساة، ص٥٨٩، ٥٩٠؛ الجندي، الإسلام، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) لا نتفق مع ما يذكره أحد الباحثين حول طبيعة الصراع الخارجي، حيث يصفه بأنه صراع شعوبي ذي صبغة صليبية مذهبية ويبني رأيه هذا على خصوصية الوجود الإسلامي في الأندلس وصراعه مع الكيانات النصرانية. والواقع أن مصطلحي (الشعوبية والحروب الصليبية) لكل منها مدلول ومفهوم خاص ومستقل لا يمكن الجمع بينهما ومع ما ألمحنا إليه سابقاً من التوجهات الشعوبية فإن ذلك شيء والصراع الخارجي ذي الروح الصليبية شيء آخر ينظر: فاروق عمر فوزي، حول طبيعة الحركة الشعوبية، ص١٢٢، ١٥٥-١٥١.

(٣) الحجي التاريخ الأندلسي، ص٥٢٩.

(٤) عن هذه الفكرة ينظر: التواتي، مصدر سبق ذكره، ص٥٩٢-٥٩٣.

التحرك الصليبي جذور قديمة موطنها الأول الأندلس ومغرب الدولة الإسلامية قبل أن يكون موطنها مشرق الدولة، وظهرت التوجهات الصليبية على أرض الأندلس منذ وقت مبكر وقبل إعلان البابا أربان دعوته للحروب الصليبية المنظمة.

تمثلت أولى مظاهر الروح الصليبية بواقعة بلاط الشهداء (١١٤ هـ) ففيها وعلى أثرها انتعشت البابوية وأضفت على شارل مارتل مختلف نعوت الإجلال والبطولة واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية حامياً للنصرانية ومنقذاً لها من الانهيار، لذلك أخذت حروبه مع المسلمين صفة الحروب المقدسة[1]، وظهرت على جيشه الملامح الصليبية بوضوح حين ضم قوات لم تقتصر على الفرنجة وحدهم بل تعدتهم إلى شعوب أوربية أخرى من الألمان والبلغار[2].

وعملت البابوية بعد ذلك على توجيه الضربات الصليبية في داخل أرض الأندلس، وعمدت إلى التوحد مع مملكة الأفرنج الكارولنجية، وكانت لحملة شارلمان (١٦٢هـ) على الإمارة الأموية أبعاد صليبية خطيرة، فشارلمان لم يمثل زعيماً سياسياً فحسب بل قائداً دينياً حمل تاريخاً طويلاً وحماساً متنامياً من أجل نشر المسيحية في الأراضي الأوروبية واكتسب سمعة واسعة من خلال هذا النشاط[3]، كما وأنه عمد من أجل دعم مشروعه التوسعي ضد الأندلس إلى توثيق صلته بالبابا، ونجده في حملته الشهيرة هذه يبلغ البابا هارديان بأمرها قبل أن يضطلع بها، فبارك البابا حينها مشروعه ووعده بإقامة الصلوات لكي يعود ظافراً إلى مملكته[4].

وبعيداً عن النظرة التقليدية لهذه الحملة والروايات الأسطورية المحيطة بها[5] يمكنا لمس خطورتها وعلاقتها بصفة الروح الصليبية في حرب الأندلس، فشارلمان

---

(١) المطوي، الحروب الصليبية، ص١٣٨.

(٢) مؤنس، فجر ص٢٦٧ (هـ ٣)؛ بيضون، الدولة، ص١٥٢.

(٣) عنان، مواقف حاسمة، ص٧٢.

(٤) م. ن، ص٧٥، وكذلك فشر تاريخ أوروبا ق١ ص٨٦-٨٧، ص٩٢-٩٣.

(٥) تتعلق أبرز هذه الروايات بالأحلام والرؤى ففي رؤيا رآها شارلمان ناداه القديس جيمس وهكذا تقول الرواية أن جثمانه الذي لا يعرفه المسلمون والمسيحيون يرقد في تلك الأراضي النائية وأمر شارلمان أن ينهض ويستخلص جليقية من المسلمين، وقد تكررت الرؤيا ثلاث مرات ولبى شارلمان في المرة الرابعة وتوجه نحو الأندلس، عن هذه الروايات ينظر:

وربما من دون أن ينتبه كان أول ملك أوروبي مسيحي كبير سار غازياً إلى بلاد الإسلام باسم المسيحية، وهنا يجب أن يصحح تاريخ الحروب الصليبية أو أن تضاف إليه على الأقل حاشية مهمة جداً: الحملة الصليبية الأولى لم تنطلق من فرنسا عام ١٠٥٩م، بالرغم من أنها الحملة التي أدت إلى احتلال بيت المقدس إنما هي حدثت قبل ذلك بـ ٢١٨ سنة وكان على رأسها ملك فرانكي مسيحي طموح من أصل جرماني هو شارلمان[١].

وقد يبدو غريباً لأول وهلة القول أن هذه المرحلة المبكرة جداً شهدت مثل هذا التوجه الصليبي ولكن إذا دققنا في تاريخ الأندلس ووقفنا على دور كل من شارل مارتل وابنه بيبان الذي نال لقب ملك من البابا[٢]، ومن ثم شارلمان في تراجع الوجود الإسلامي، وربطنا بين هذا وصلتهم المتينة بالبابا أمكننا أن ندرك قدم فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي قبل ظهورها بالمشرق[٣].

وعمدت البابوية إلى إحاطة هذه الأرض بهالة من الخيالات والأساطير التي وجدت من أجل التأثير على الجانب المعنوي لأتباعهم وشحذ هممهم وربطهم روحياً بأرض شبه الجزيرة الأيبيرية، وبرمز ديني يكون هدفاً لتوجهاتهم، فمن ذلك الخرافة التي قامت حول مزار القديس يعقوب التي اخترعها الفونسو الثاني (١٧٥-٢٢٧هـ/٧٩١-٨٤٢)[٤] وجعلته مزاراً للمسيحيين لا يقل أهمية عن بيت المقدس وله

ديفز، شارلمان ص٢٩٨-٢٣٣ (نقلاً عن السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٣٣؛ رينو، تاريخ غزوات، ص١٥٧؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ٢٢٥.

(١) بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص٢٠٩.

(٢) المطوي، الحروب، ص١٣٩.

(٣) رينو، تاريخ غزوات، ص١٤٥؛ وعلى أثر ذلك اللقب اشتد حماس بيبين في استرجاع المدن الفرنسية من أيدي المسلمين فسيطر على تيم وماجلون ثم زحف إلى القاعدة الحصينة اربونة ولكنه فشل في السيطرة عليها، ينظر: مؤنس فجر، ص٢٨٩؛ السامرائي، الثغر، ص١٤٨.

(٤) السامرائي، علاقات، ص٣٣.

تأثير روحي وديني عميق[١] ساهم في نقل حروب الأسبان للمسلمين إلى الطابع الصليبي المنظم.

ودعمت البابوية الممالك الإسبانية الناشئة مادياً ومعنوياً من أجل إضعاف الوجود الإسلامي وتقوية العدو ضده، واستغلت بذلك ما لها من مكانة عميقة في نفوس المسيحيين مستخدمة سلاح الترغيب والترهيب من خلال الحرمان الديني للترهيب والغفران للترغيب، وانعكست كل تلك الجهود في التحكم والسيطرة والأثرة والنفوذ الذي وجهت به البابوية حروب الأندلس بروح صليبية عاتية، وتسابق الملوك الإسبان من أجل إرضائها[٢].

وزجت الكنيسة بأعداد كبيرة من رجالاتها لخوض المعارك الدائرة على أرض الأندلس بأنفسهم، ورافق الجند إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين الذين كانوا يسقطون إلى جانب الفرسان في سوح الوغى[٣].

اشتدت الهجمة الصليبية ضد الأندلس في وقت الضعف والتراجع وظهرت إسهاماتها في حملات متواصلة على المدن الأندلسية، فالحملة على بر بشتر كانت صليبية بشر بها الباب (إسكندر الثاني) في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا[٤]، وضمت قوات الفونسو السادس في توجهه نحو طليطلة مقاتلين من جنود قشتالة وليون واراغون ومتطوعين من فرنسا وغيرها وكان الطابع الصليبي واضحاً في هذه الحملة[٥].

وزاد الانتعاش الإسلامي من مخاوف البابوية فالقاعدة الجهادية لحركة المرابطين والقوة الفتية التي انطوت عليها أنذرت بخطر كبير على مشاريعها في الأندلس، وكان لقاء الزلاقة التاريخي واحد من لقاءات الحروب الصليبية وأكد الحميري أنه ((لما تحقق ابن فرذلند جواز يوسف، [ابن تاشفين] استنفر جميع أهل بلاده وما يليها

---

(١) عن المنزلة والمكانة الروحية لهذا المزار ينظر: ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧) ١/٧١-٧٢؛ لورد، أسبانيا، ص٦٠-٦١.

(٢) التواتي، مأساة انهيار، ٥٩٤-٦٠٠؛ فوزي، الشعوبية، ص١٥٤.

(٣) عنان، نهاية، ص٦٩.

(٤) تاريخ الأندلس (نص ابن الكردبوس) ص٦٩-٧١؛ السامرائي، علاقات، ص٦٠؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٦٠.

(٥) حسن محمود، قيام دولة المرابطين ص٩٥.

وما ورائها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع لـــه من الجلالقة والأفرنجة وما يليهم ما لا يحصى عدده))[١].

وأشر ابن خلدون على قيام الفونسو السادس لجميــع أمــم النصــرانية للقــاء المرابطين[٢].

ورفضت البابوية اشتراك الجنود الإسبان في حملاتها على المشرق الإســلامي وذلك لإدراكها خطورة الجبهة الأسبانية مع المسلمين على أساس أن المعارك الدائرة في أسبانيا تدور على أبواب أوروبا ذاتها ومن الممكــن أن تتغيــر الخارطــة السياســية والاجتماعية والاقتصادية لو قدر للمجاهدين المسلمين أن ينجحوا في اختراق الممالــك النصرانية الشمالية في أسبانيا، كما كان الصليبيون يهدفون من وراء إشعال الحرب في شبه الجزيرة بصورة متواصلة ومستمرة أشغال مسلمي الأندلس عــن أخــوانهم فــي المشرق فلا يقدمون لهم أية معونة[٣].

وانعكس احتلال بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى على الأندلس، حيــث أجج الروح الصليبية وانتقل بها إلى مرحلة الحملات المنظمة على أرضها وتمثل ذلــك بعدد من الحملات سنة ٥١١هــ و٥١٢هــ[٤]، وعندما ندقق النظر في تواريخ ســقوط المدن والقواعد الأندلسية نجد أن سقوط طليطلة لا يبعد كثيراً عــن مطلــع الحــروب الصليبية في الشرق سنة ١٠٥٥م، وفي الوقت الذي أعلن فيه عن سقوط بيت المقــدس بيد الصليبيين ودقت الأجراس في كل أوروبا فرحاً بذلك سقطت بلنسية في الأندلس بيــد المغامر المرتزق (القمبيطور) حتى أن بعض الروايات التاريخية تتحدث عــن وجــود توافق بين العملين، كما أن سقوط آخر معقل صليبي في الشرق بيد المسلمين وهو عكا

---

(١) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص٨٨.

(٢) العبر، ٦-٢، ص٣٨٢-٣٨٣.

(٣) عن هذا الموضوع ينظر: محمود، قيام ص٢٤٧؛ الهرفي دولة، ص١٨٥؛ التواتي، مأساة انهيار، ص٦٠٠.

(٤) محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، دراسات تاريخية نقدية (عمان: دار الشــروق؛ ١٩٩٩) ص١٦-١٩؛ رنسيمان، تــاريخ الحــروب، ص١٣٤-١٣٧؛ ٢/٤٠٠-٤٠٣؛ عنــان، عصــر المرابطين ٢/١٧٠-١٧١.

عام ١٢٩١م زمن السلطان خليل بن قلاوون لا تبعد كثيراً عن استيلاء مسيحي أسبانيا على منطقة مرسية الإسلامية عام ١٢٦٦م(١).

ونجد صورة أخرى للتحرك الصليبي متمثلاً في خيانة النصارى المعاهدين سنة٥١٩هـ بتحالفهم مع الفونسو المحارب فلما تجمعت القوات المتحالفة وخرجت من سرقسطة كان في ركبها عدد من رجال الدين وفي مقدمتهم أسقف سرقسطة ووشقة وقد تعاهدوا جميعاً وتحالفوا بالإنجيل على إلا يفر منهم أحد، وهكذا طبعت هذه الحملة بالطابع الصليبي شأن سائر الحملات الأسبانية(٢).

وكان لانتصار الموحدين في معركة الارك (٥٩١ هـ)(٣) صدى واسع لدى الجانب الأسباني والبابوبي حيث نظر هؤلاء إلى القوة الإسلامية الجديدة، بأنها تمثل نقطة العودة للمسلمين على أرض الأندلس لبسط سيطرتهم من جديد ولو بجزء قليل مما كان يحكموه، وبرز دور البابا انونست الثالث(٤) في الدعوة إلى توحيد جبهة المسيحيين ضد مسلمي الأندلس وإقامة السلام والوئام بين الممالك الأسبانية النصرانية، فتمثل أثر ذلك في اتحاد ارجونة وقشتالة تحت قيادة الفونسو الثامن وخوض معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م(٥).

عقد ملك قشتالة مؤتمراً في مدينة قونقة لتوحيد الجهود ضد المسلمين حتى تم الاتفاق على الاتحاد والتضامن لقتال الموحدين وتقديم الجند والمال اللازم ثم أعلن الحرب الصليبية في أسبانيا واطلق صرخته المشهورة ((كلنا صليبيون)) تهيئة لخوض المعركة(٦)، وأخذت الإمدادات الصليبية بالوصول وبكثرة حتى بلغت أكثر من عشرة آلاف فارس ومائة ألف من الرجالة وتولى قيادتهم رجال الدين والأساقفة وكانوا جميعاً يتقلدون شارة الصليب وهم متحمسون بشدة لقتال المسلمين(٧).

---

(١) فشر، أوروبا، ص٢٨٩؛ أشباخ، تاريخ، ص١١١، التواتي، مأساة، ص٦٠٠؛ عنان، نهاية، ص٩٩-٧٠.

(٢) أشباخ، تاريخ ١/ص١٤٨؛ السامرائي، علاقات، ص٢٥٤.

(٣) عن موقعة الإرك: ابن خلدون، العبر ٣/٦/ص٥١٢، المقري، نفح الطيب ٦/ص١١٥-١١٦؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص١٢١.

(٤) عن دور البابوية في هذه المرحلة ينظر: أبو رميلة، علاقات الموحدين ص٧٦، ٢٨٢-٢٨٣.

(٥) طرخان، المسلمون، ص٢٧٠.

(٦) أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص٢٨٢.

(٧) عنان، عصر المرابطين، ٢/ص٢٨٩؛ التواتي، مأساة انهيار، ص٦٠٩-٦١٠.

وأمر البابا انوسنت الثالث ومن أجل إضفاء جو روحي وديني علـى المعركـة بالصوم في روما ثلاثة أيام إلتماساً لانتصار الجيوش النصـرانية فـي أسـبانيا علـى المسلمين أقيمت الصلوات العامة وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلـى ارتـداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب الدينية في الطرقات خاضعة متمهلة من كنيسـة إلى أخرى وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية طلب فيها من النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الأسبان، وكانت نتيجة المعركة بأن دارت الدائرة على المسلمين(١).

- وبرز دور الجمعيات الدينية المسيحية(٢) في تفعيل حدة الروح الصليبية علـى أرض الأندلس، وأدت القوات العسكرية التابعة لها دوراً مؤثراً في المعارك ضد مسلمي الأندلس، ويرى أحد الدارسين أن نشوء مثل هذه الجمعيـات كـان بتـأثير جماعـات المرابطة في الثغور الإسلامية والتي كانت ترابط عند حدود الأراضي الإسلامية وتبدي في محاربة العدو بسالة منقطعة النظير وتؤدي للقـوات المسـلمة أجـل الخـدمات(٣)، وبرزت من هذه الجمعيات الدينية وجمعية فرسان يوليان التي عرفت فيما بعـد باسـم جماعة فرسان القنطرة وجمعية فرسان قلعة رباح كذلك(٤).

واعتنى الملوك الإسبان بأفراد هذه الجمعيات عناية كبيرة مـن خـلال إغـداق الأموال عليهم ومنحهم الإقطاعات، الشاسعة من ممالكهم كما فعل فرناندو الثاني ملـك ليون مع أفراد جمعية القديس ياقب، وعمدت البابوية إلى منح أفـراد الجمعيـات هـذه الكثير من الهبات والامتيازات الدينية(٥)، ومن خلال الإطلاع على هذا الدور المهم لتلك الجمعيات يتبين لنا أن تأثيرها لم يقتصر على المشاركة العسكرية التي كانت فرقتها تقوم بدور كبير فيها وحسب إنما عملت على شحذ الحماس الديني الصليبي وتفعيله وتنظيمه.

وعن موقعة العقاب ينظر: المقري، مصدر سابق ٦/ ص١١٧، ابن خلـدون، مصـدر سـابق ص٥٢٢؛ النباهي، المرقبة العليا، ص١١٥-١١٦؛ المراكشي، المعجـب، ص٤٠١-٤٠٣ ابـن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين) ص٢٤١.

(١) عن دور الجمعيات الدينية ينظر:عنان، نهاية الأندلس، ص٧٠-٧١ أبو رميلة، مصـدر سـابق، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٢) عنان، مصدر سابق، ص٧٠.

(٣) م. ن، أبو رميلة، مصدر سابق ص٣٠٤.

(٤) عن مظاهر هذه العناية، أبو رميلة، مصدر سابق.

(٥) عن مظاهر هذه العناية، أبو رميلة، مصدر سابق.

ونلتقي بتأثير كبير للبابوية في إسقاط مملكة غرناطة التي جاهدت كثيراً وطويلاً، ولكن منذ اتحاد مملكتي قشتالة وارغون في شبه الجزيرة الايبيرية بزواج فرناندو بايزابيلا (٨٧٤هـ) أصبح من العسير على مملكة غرناطة الاستمرار والصمود كوجود مسلم في وسط مسيحي متحمس، وكنيسة مقاتلة اعتمدت على السيف واللاتسامح أكثر من اعتمادها على العقل والمنطق والدين[١].

والتهبت مخاوف البابوية وأوروبا كلها بعد نجاح السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) في فتح القسطنطينية (١٤٥٣م) وإخضاع ١٢ مملكة و٢٠٠ مدينة جنوب شرقي أوروبا لسيطرته وعمله على نشر الإسلام في تلك البقاع، فكان حادث سقوط القسطنطينية يعني انهيار الصرح المنيع الذي يحمي أوروبا النصرانية من جهة الشرق من امتدادات الإسلام[٢]، لذلك اضطرمت الروح الصليبية ضد مملكة غرناطة التي لم تك في نظر الإسبان والبابوية سوى رمز للوجود الإسلامي ومركزاً لتجميع القوة المسلمة مهما كانت ضعيفة.

وكانت الحملة الأخيرة على غرناطة[٣] ذات روح صليبية مسرفة، وأكدت إيزابيلا في رسالتها للبابا وهي تطلب دعمه الطابع الديني للحملة هذه بقولها ((لا رغبة في توسيع ممالكنا وحقوقنا ولا طمعاً في الحصول على مداخيل أكثر مما لدينا ولا في أي رغبة في تكديس الكنوز، بل الرغبة في خدمة الله وحماس لدينه الكاثوليكي المقدس))[٤] وسبق هذا الدعم المادي منح الدعم الروحي بإعطاء البابوية غفرانها الفوري لايزابيلا وزوجها لكل ما يمكن أن تفعله قواتهما خلال الحملة للقضاء على غرناطة[٥].

ضربت القوات الصليبية المتحدة والأسبانية المزودة بالذخائر والمدافع الحصار الصارم على غرناطة، وأنشأ فرديناند لجيشه في تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتافيه Sentta fe أو (الإيمان المقدس) رمزاً للحرب الدينية، وبدأ الفصل الأخير من

---

(١) لاندو، الإسلام، ص١٨١-١٨٢.

(٢) عنان نهاية الأندلس، ص١٥٤-١٥٥؛ بشتاوي، الأمة، ص١٠٤؛ الذنون، آفاق، ص٤٥.

(٣) جاشت الصليبية مرات عديدة قبل هذا الحصار الأخير على مملكة غرناطة ينظر: طرخان، المسلمون، ص٢٧١-٢٧٢؛ العبادي، المجمل، ص١٧٤-١٧٥؛ خالد، معاهدات ص٩٨-٩٩.

(٤) بشتاوي، مصدر سابق، ص١٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٢.

صراع الوجود الإسلامي مع التكتل الصليبي في أسبانيا[1] ولم يقدر له أن يكون طويلاً وكان للدعم البابوبي المادي[2] أثره في تقوية الممالك الأسبانية والصليبية في حصارها لغرناطة ودخولهم إياها.

وكتب فرناندو إلى البابا يبشره بانهاء آخر صور الوجود الإسلامي السياسي في شبه الجزيرة الايبيرية بقوله:

((ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وارغون وصقلية وغرناطة يقبل قدميك ويديك الطاهرتين خالصتي الطهارة، ويبشرك بأن ربنا أنعم علينا بنصر مبين على أندلسيي غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر، فتم في هذا اليوم الثاني من كانون الثاني في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة وألف استسلام مدينة غرناطة مع الحمراء وكل القوات مع كل القلاع والحصون))[3].

سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ ودقت أجراس كنائس أوروبا ابتهاجاً بالمناسبة لا سيما وأن الأندلس كانت ولا تزال الدولة الوحيدة التي تمكن المسيحيون من انتزاعها من المسلمين بعد انتشار الإسلام فيها، وتحقق للبابوية هناك ما لم تحققه ثماني حملات صليبية راح ضحيتها أكثر من مليون إنسان[4].

---

(١) عنان، مواقف حاسمة، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٢) كانت البابوية تمثل حينذاك أكبر بنك دولي لتمويل الحملات ضد الإسلام في البر والبحر وإن لم تكن الأموال البابوية متاحة في تلك الحملات فراياتها على الأقل، وفي حصار غرناطة منحت البابوية أموالاً طائلة لتقوية الموقف الأسباني وجددت الإدارة البابوية الخاصة بذلك عدة مرات حتى نجحت الحملة في أهدافها ينظر: بشتاوي، المصدر السابق، ص١٠٦.

(٣) بشتاوي، الأمة الأندلسية، ص١٠٤-١٠٥. (بتصرف بسيط).

(٤) المصدر نفسه، ص٩٩.

Abstract

Contradiction of Extension & Retreat in the Islamic Realm in Andalusia

*This study has dwelt upon the contradictory phases of exte
nsion of Muslim Spain. The subject gains its importance from th
e fact that Andalusia has been a unique experiment in the Iberia
n peninsula for eight centuries. Therefore the factors that had to
its collapse needs to be reasoned out.*

*In addition to the introduction as well as the conclusion, th
e study includes five chapters: The first one is a rapid view of th
e Islamic Arab existence in Andalusia.*

*The second is devoted to the effects of the Andalusian undu
lations upon the course of events; these undulations hindered th
e Muslim Arab armies beyond Albert Mountains and afford goo
d shelters for pockets of resistance there.*

*Chapter three deals with the contradictions in the social st
ricture that affect the Islamic emergence through political and e
conomic links. The fourth chapter id concerned with the politica
l system in regard to its nature and the problems it external chal
lenge relationships with the neighboring countries and the aspec
ts of struggle.*

*The study is based upon a collection of both main Arab s
ources as well as secondary Arab and Arabicised references suc
h as : "Tarikh Iftitah Al-Andalus" by Ibn Kardbus, and its descri
ption by Ibn Al-Shabbad, "Al Bagaan Al-Maghrib" by Ibn Athar
e Al Marakishi (died after 721 A.H); "Al-Muqtabas" by Ibn Mar
wan Hagan bn Khalf Al-Qurdabi (died in 469 A.H) as well as th
e numerous works of lisan " Al Din Bin Al-Khatib (died 776 A.H
).*

*Several contemporary authors have been consulted, especi
ally those by mohammed abdulla Anan, Abdul Rahman Al-Ha
ji and Hussen Munis besides a number of articles and these as m
entioned in the list of sources and references.*

*Finally we have come to the following conclusion, the Mus
lim Arab existence never took the from of on monotonous phase,
in stead of that, it occurred as aseries of ups and downs, the An
dalusian geography hindered the aduance of the muslim Arab fo
res beyond Albert mountains: Hence the Andalusaion territory h
ad never been united.*

*The Andalusain community become split because of its uar
ious struugging groups for power. These disputs caused segrega
tion that woew out the revenues and weakened the Islamic existe
nce these; moreoues the political system was not based on fixed
priciples. That led to dangerous contentions and made others all
y with the enemy.*

*It is clearly shown that there were great constant fierce pe
rils to be facid by the Andalusians and backed by the papacy wo
rally and materially.*

*The collapse of Qranda in (897 A.H) was the direct result
of accumulated negative factors and contradictions accompanie
d by great external challenges.*